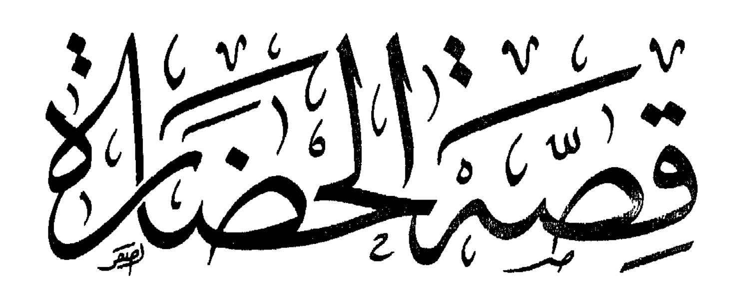

ول
وايرل ديورانت
قصة
الحضارة
26
الإصلاح الديني



ول وايرل ديورانت

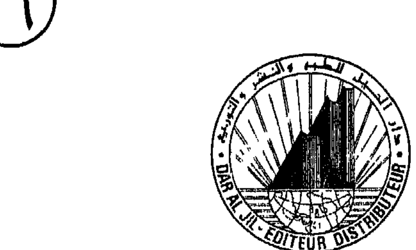
الإصلاح الديني

ترجمة
محمد علي أبو درة

مراجعة
علي أدهم

الجزء الخامس من المجلد السادس

(٢٦)





بيروت

تونس

فهرس الجزء الخامس من المجلد السادس

صفحة

الفصل التاسع والعشرون
توحيد روسيا
١٣٠٠ – ١٥٨٤

الفصل الثلاثون
عبقرية الإسلام
١٢٥٨ – ١٥٢٥

صفحة

الفصل الحادى والثلاثون

سليمان القانونى

١٥٢٠ – ١٥٦٦

الفصل الثانى والثلاثون

اليهود

١٣٠٠ – ١٥٦٤

صفحة

الباب الرابع

ما وراء الستار

الفصل الثالث والثلاثون

حياة الناس

١٥١٧ - ١٥٦٤

الفصل الرابع والثلاثون

الموسيقى

١٣٠٠ — ١٥٦٤

الفصل التاسع والعشرون

توحيـــد روســـيا

١٣٠٠ — ١٥٨٤

---

١ — الشعب

فى سنة ١٣٠٠ لم يكن لروسيا وجود . وكان معظم القسم الشمالى يتبع ثلاث مدن دولة تحكم نفسها بنفسها ، وهى نوفجرد Novgorod ، فياتكا Viatka ، بسكوف Pskov . وكانت المقاطعات الغربية والجنوبية خاضعة للتوانيا . أما فى الشرق فإن إمارات موسكو وريازان وسوزدال ونجنى لفجرد وتفر Tver ، ادعت كل منها لنفسها حق السيادة ، ولم يربطها بعضها ببعض إلا اشتراكها فى الخضوع « للقبيلة الذهبية » .

وقد اتخذت « القبيلة الذهبية Golden Horde » هذه التسمية من اللفظة التركية أوردو Ordu ومعناها « المخيم » ، أما وصفها « بالذهبية » فيرجع إلى الخيمة ذات القبة ، والتى كانت موشاة بغطاء من الذهب ، وكانت مقر قيادة « باتو الرائع » حفيد جانكيزخان : وبعد أن تم لهؤلاء الآسيويين الغزاة فتح جنوب روسيا وغرب آسيا ، شيدوا عاصمتهم فى « سراى » Sarai على أحد فروع نهر الفولجا الأدنى ، وهناك تقاضوا جزية سنوية من الأمراء الروس . وكانت « القبيلة » موزعة بين الزراعة والرعى المتنقل . وكانت الأسرات الحاكمة من المغول ، أما بقية السكان فكان معظمهم من الأتراك . وقد أطلق على القبيلة اسم « تتار » نسبة إلى قبائل « تاتا Ta-ta » من صحراء

جوبى ، وهى قبائل بدأت فى القرن التاسع الزحف المغولى نحو الغرب . وكانت النتائج الأساسية التى ترتبت على طول خضوع روسيا « للقبيلة » نتائج اجتماعية : وهى استبداد أدواق موسكو ، وولاء الأهالى ولاء ذليلاً لأمرائهم ، والمركز الوضيع للمرأة فى المجتمع ، وتنظيم حكومة موسكو وفقاً لأساليب التتار من النواحى العسكرية والمالية والقضائية . وقد عاقت سيطرة التتار محاولة روسيا لمدة قرنين من الزمان أن تصبح دولة أوربية غربية .

وواجه الشعب الروسى أشق الظروف بعدم اكتراث رواقى صامت ، اللهم إلا أنهم فى غمرة آلامهم وأحزانهم ، وجدوا فى أنفسهم الشجاعة لممارسة الغناء . ونعتهم أعداؤهم بالخشونة والقسوة والخيانة والخبث والعنف[1] . ولا شك أن الكد والنصب ، وقسوة المناخ ، كل أولئك أكسبهم صلابة ، على أن ما تميزوا به من الصبر وروح المرح والمودة وكرم الضيافة ، كان فيه تعويض كبير لهم ، إلى حد أنهم مالوا إلى الاعتقاد بأنهم « أكثر إنسانية » ، وأنهم « ملح الأرض » (إشارة إلى ما جاء فى إنجيل متى : ٥ — ١٣) : لقد أدخلوا قسراً إلى المدنية بقوانين همجية وعقوبات رهيبة ، من ذلك — كما رُوى لنا — أن المرأة التى تقتل زوجها كانت تدفن حية حتى عنقها ، وأن السحرة والمشعوذين كانوا يحرقون أحياء فى قفص من حديد ، وأن مزيفى النقود كان يصب فى حلوقهم معدن مصهور[2] . وكأى شعب يقاوم البرد كان الروس يدمنون المشروبات الروحية إلى حد فقدان الوعى أحياناً ، كما كانوا يضيفون إلى طعامهم التوابل التماساً للدفء . واستمتعوا بالحمام الساخن ، وكانوا يستحمون أكثر من معظم الأوربيين . وكان من أوامر الدين عندهم أن تخفى المرأة مفاتن جسمها وشعرها ، كما دمغ الدين النساء بأنهن أولياء الشيطان ، ومع ذلك تساوين بالرجال أمام القانون ، وكثيراً ما شاركن فى تسليتهم أو فى الرقص ، وهو ما كان محرماً باعتباره خطيئة . وكانت الكنيسة الروسية تحض بشدة على مكارم الأخلاق ، وتحرم

عقد الزيجات واقتراب الرجل من المرأة فى أيام الصوم الكبير ، ومن ثم كانت صرامة الشريعة حائلا دون نزوع الشعب إلى الإفراط فى الانغماس فيما يكاد أن يكون المسرة الوحيدة التى تركت له . وكان الوالدان هما اللذان يدبران شئون الزواج ، وكان يتم فى سن مبكرة ، فكانت البنت فى سن الثانية عشرة والولد فى سن الرابعة عشرة يعتبران صالحين للزواج . وكانت مراسم العرس معتمدة تصحبها الأشياء الرمزية القديمة والأفراح التى كان مطلوباً من العروس فى أثنائها أن تلازم الصمت الموسوم بالحياء ، ولسوف تعوض عن ذلك فيما بعد . وكان ينتظر منها أن تقدم إلى والدة زوجها غداة العرس ما يثبت أنه بنى بعذراء . وكان الحريم يبقين فى طابق أعلى بعيداً عن الرجال ، وكانت سلطة الرجل فى الأسرة مطلقة مثلها فى ذلك مثل سلطة القيصر فى الدولة .

وسما الورع عند الروس بالفقر حتى جعل منه سبيلا إلى الجنة . وكان كل بيت مهما صغر أو كبر يضم غرفة مزدانة بالأيقونات أو الصور المقدسة ، بمثابة مكان للصلاة من حين لآخر . وكان الزائر الصالح يحيى هذه الصور المقدسة قبل التسليم على أهل البيت . وكانت النساء الصالحات يحملن مسابح أينما ذهبن . وكانت الابتهالات تتلى بمثابة تعاويذ ورقى سحرية ، ومن ثم — كما يروى كتاب مشهور من القرن السادس عشر اسمه « كتاب الأسرة Domostroi » فإن ابتهالات معينة تكرر فى اليوم ٦٠٠ مرة لمدة ثلاث سنوات ، قد تؤدى إلى تجسد الآب والابن والروح القدس فى شخص المتضرع[٣] . ومع ذلك كان هناك كثير من المظاهر الجميلة فى هذه الديانة الممتلئة بالخرافات . فكان الناس فى صبيحة يوم عيد الفصح يحيون بعضهم بعضاً بهذه الألفاظ البهيجة « المسيح قام » . وفى ظل هذا الأمل هان أمر الموت إلى حد ما . فإذا حانت منية الرجل الطيب الوقور سدد ديونه وأعفى المدينين له ، وأعتق واحداً أو أكثر من أرقائه ، ووزع

الصدقات على الفقراء والكنيسة ، ولفظ أنفاسه الأخيرة وكله أمل وثقة فى الدار الآخرة .

وعملت الكنيسة الروسية على تقوية الورع عن طريق فن العمارة والرسوم الحائطية والأيقونات والعظات القوية وحفلات التنويم المغناطيسى ، والترانيم التى يشترك فى إنشادها عدد كبير من المرتلين ، والتى كانت تبدو وكأنها تخرج من أخفى أعماق النفس أو المعدة ، وكانت الكنيسة لساناً قوياً ناطقاً باسم الدولة ، وتثاب على الخدمات التى تؤديها فى تعليم الآداب والأخلاق وتقويم السلوك وتوطيد دعائم النظام الاجتماعى بأوفى مثوبة . وكانت الأديرة كثيرة ضخمة . من ذلك أن « دير الثالوث الأقدس » الذى أسسه القديس سرجيوس فى سنة ١٣٣٥ ، كان قد جمع فى عام ١٦٠٠ من الأراضى الشاسعة ما يحتاج إلى أكثر من مائة ألف فلاح لزرعها . وفى مقابل ذلك وزعت الأديار الصدقات على الروس ، وكان بعضها يطعم ٤٠٠ شخص فى اليوم . وفى إحدى سنوات القحط كان دير فولوكولامسك Volokolamsk يطعم سبعة آلاف شخص يومياً . وكان الرهبان يقطعون على أنفسهم عهداً بالتزام العفة ، ولكن الكهنة كانوا يضطرون إلى الزواج . وكان معظم هؤلاء « الآباء » أميين ، ولكن الشعب لم يكن يعيب عليهم ذلك . وكان مطارنة موسكو فى معظم الأحوال أكثر أهل زمانهم كفاية ومقدرة وعلماً ، وكانوا يبذلون ثرواتهم للحفاظ على الدولة ، ويوجهون الأمراء على طريق الوحدة الوطنية . وكان سانت ألكسيس هو الحاكم الفعلى لروسيا طوال توليه منصبه (١٣٥٤ — ١٣٧٠) . إن الكنيسة الروسية بكل أخطائها التى ربما تكون قد فرضتها عليها مهامها — نقول إن هذه الكنيسة فى عصر التكوين والتشكيل هذا ، كانت بمثابة العامل الأبرز والأهم فى تمدين الشعب الذى صبرته وحشياً مصاعب الحيـــاة وضراوة طبيعة الإنسان ذاته .

وحين رفضت الكنيسة الروسية فى ١٤٤٨ اندماج الكنيسة اليونانية مع الكاثوليكية الرومانية فى مجلس فلورنسه ، أعلنت استقلالها عن البطريرك البيزنطى ، وبعد ذلك بسنوات خمس حين سقطت القسطنطينية فى يد الأتراك ، أصبحت موسكو عاصمة المذهب الأرثوذكسى . وحوالى ١٥٠٥ كتب راهب متحمس إلى أمير عظيم فى موسكو « اعلم الآن أن سلطان المسيحية بأسرها قد آل إليك ، لأن روما الأولى وروما الثانية (يقصد روما والقسطنطينية) قد سقطتا ، أما الثالثة فهى صامدة ، ولن يكون هناك رابعة ، لأن إمبراطوريتك المسيحية سوف تدوم إلى الأبد »(4) .

وكادت الكنيسة أن تكون النصير أو الراعى الوحيد للآداب والفنون : ومن ثم كانت هى التى توجهها . ولم تكن أجود الآداب مدونة . وكانت أغانى الشعب التى رددتها ألسنة الناس من جيل إلى جيل هى التى تذيع وتمجد قصص حبهم أو أعراسهم أو أحزانهم أو فصولهم أو أعيادهم أو موتاهم ، وكان هناك أناشيد مألوفة لقديسين مرموقين وأبطال قدامى ومآثر أسطورية ، مثل مآثر سادكو **Sadko** تاجر نفجرد . وكان المكفوفون والعرج يطوفون بالقرى ينشدون مثل هذه الأغانى والأناشيد والتراتيل المقدسة . وكان كل الأدب المكتوب تقريباً مقصوراً على الأديرة ، وكان يخدم الأغراض الدينية .

وكان الرهبان هم الذين وصلوا عندئذ برسم الأيقونات إلى فن كامل . فكانوا يأتون بلوحة صغيرة من الخشب ، مغطاة بالقماش أحياناً ، ينشرون عليها طبقة لزجة ومن ثم يرسمون عليها الصورة ويضعون الألوان ، ثم يغطونها بالطلاء ويضعونها فى إطار معدنى . وكانت الموضوعات تحددها السلطات الدينية ، أما الأشكال والسمات فكانت تقتبس من النماذج البيزنطية ، وعادوا بها أدراجهم فى تطور مستمر عبر فسيفساء القسطنطينية إلى رسوم الإسكندرية الهللينستية . وأحسن أيقونات هذا العصر هى صورة لا يعرف

اسم صاحبها تمثل « المسيح يرقى عرش السماء » موجودة فى كاتدرائية صعود العذراء فى موسكو ، وصورة دخول المسيح إلى أورشليم — وهى من عمل مدرسة نفجرد ، والثالوث المقدس للراهب أندريه روبليوف فى دير الثالوث المقدس . ورسم روبليوف وأستاذه تيوفانس الإغريقى ، لوحات جصية جدارية تجمع بين الطراز البيزنطى والطراز البيزنطى الجريكو فى فلاديمير وموسكو ونفجرد ، ولكن الزمن أعمل أثره فيها .

إن كل حاكم كان يبرز عظمته ويريح ضميره ببناء كنيسة أو دير ، أو تخصيص الأوقاف والهبات لهذا أو تلك . وقد انضمت الأشـكال والحوافز من أرمينية وفارس والهند والتبت ومنغوليا وإيطاليا واسكنديناوه — انضمت إلي التراث البيزنطى السائد ، لتشكل عمارة الكنيسة الروسية ، بما فيها من جمال تعدد الوحدات ، والقبة المذهبة فى الوسط ، والقباب البصلية الشكل التى صممت بطريقة رائعة لمنع تراكم مياه المطر والثلوج . وبعد سقوط القسطنطينية وطرد التتار قل اعتماد روسيا على الفن البيزنطى والفن الشرقى ، وجاء التأثير من الغرب ليعدل من الطراز السلافى . و سنة ١٤٧٢ راود الأمل إيفان الثلث فى أن يرث حقوق الأباطرة البيزنطيين وألقابهم ، ومن ثم تزوج « زو باليولوغوس Zoë » ابنة أخى آخر حكام الإمبراطورية الشرقية ، وكانت قد نشأت فى رومة وتشربت شيئاً من بواكير عصر النهضة ، وقد جلبت معها بعض العلماء الإغريق ، وأظهرت إيفان على الفن الإيطالى ، وربما كان بإيحاء منها إرساله لأول بعثة روسية إلى الغرب (١٤٧٤) ، وقد أصدر إليها توجيهاته بالحصول على الفنانين الإيطاليين لموسكو . وقبل الدعوة ريودلفو فيرافانتى البولونى الذى كان يلقب بأرسطو بسبب تعدد مواهبه ، ثم تصيد المبعوثون الروس بعد ذلك بييرو سولاريو ، والفيزيونوفى وعدة فنانين آخرين وهؤلاء الإيطاليون هم الذين أعادوا بناء الكرملين مع معاونين وعمال من الروس .

وكان يورى دجلوروكى Yuri Delgoruki قد أسس موسكو سنة ١١٥٦ بأن أقام سوراً حول داره (فيللا) ، التى كانت تقع فى موقع استراتيجى عند التقاء نهرين ، فكان هذا الحصن « Kreml » أول شكل للكرملين . واتسع مع الزمن هذا النطاق ، وقامت الكنائس والقصور داخل سياج مرصوص من البلوط ، ونذر ايفان الثالث نفسه لتعديل هذه المجموعة بأكملها . ومن الواضح أن فيرافانتى Fieravante هو الذى أعاد بناء كاتدرائية صعود العذراء القـــديمة فى الكرملين (١٤٧٥ — ١٤٧٩) حيث توج القياصرة فيما بعد وبقى الطراز بيزنطيا مع زخرفة إيطالية . وأضاف مهندسون معماريون من بسكوف داخل نطاق الكرملين «كاتدرائية عيد البشارة » الصغرة (١٤٨٤ — ١٤٨٩) . ثم أقام أليفزيو Alevisio فى الكرملين كاتدرائية رئيس الملائكة (١٥٠٥ — ١٥٠٩) . وفيما بين ١٤٨٥ — ١٥٠٨ أعاد سولاريو وآخرون تسوير المنطقة بالآجر القرنفلى على طراز قلعة سفورزسكو فى ميلان(٥) . وهكذا — ترى أنه من وسط روسيا الزاخر بالمعابد ، ومن قلب هذه الوحدة المتسلطة التى تركزت فيها السلطتان الدنيوية والدينية ، بسط أمراء موسكو العظام ومطارنتها حكمهم ونفوذهم على النبلاء والتجار والفلاحين ، ووضعوا بالدماء والعظام وبالتقى والورع أسس واحدة من أقوى الإمبراطوريات فى العالم .

٢ — أمراء موسكو

ظلت موسكو قرية مغمورة حتى عهد دانيال اسكندروفتش فى أواخر القرن الثالث عشر ، ووسعت رقعتها الداخلية حتى جعلت منها إمارة صغيرة ، ويعزو الإدراك التاريخى المتأخر(٦) — نمو موسكو إلى موقعها على نهر موسكو الصالح للملاحة الذى كان متصلا عن طريق ممر برى قصير ، بنهر الفولجا شرقاً ، وأنهار أوكا والدون والدنيبر جنوباً وغرباً . وطمع يورى دانيالفتش بن دانيال أمير موسكو فى الاستيلاء على إمارة سوزدال المجاورة ،

وكانت عاصمتها فلاديمير غنية نسبياً ، كما طمع فى ذلك ميكائيل أمير تفير Tver . واقتتل الفريقان للحصول على الجائزة فكانت الغلبة لموسكو ، وقتل ميكائيل وضم إلى قائمة القديسين . ونمت موسكو ، واتخذ ايفان الأول ، أخو يورى لقبى أمير موسكو العظيم ، ودوق فلاديمير العظيم .

وكان إيفان الأول ، بوصفه جامعاً للجزية الروسية لحساب خان التتار ، يتقاضى أكثر مما كان يرسله أو يحوله ، ومن ثم أثرى وازدهر بطريقة شريرة مؤذية . وجعله جشعه للمال ينبز بلقب « Kalita » ومعناه « حقيبة المال » . ولكنه بذلك حمى الإمارات من حملات التتار لمدة ثلاث عشرة سنة نعمت فيها بالهدوء . وتوفى إيفان سنة ١٣٤١ على أنه راهب حليق شعر الرأس ، وأطلقوا من حوله بخور القداسة . وورث عنه ابنه سيميون المتكبر ميله إلى جمع الضرائب . ولما كان يدعى السلطان على كل الولايات فإنه أطلق على نفسه اسم الأمير الأعظم على كل الروس ، ولكن هذا لم يحل بينه وبين الموت بالطاعون (١٣٥٣) . وكان إيفان الثانى حاكماً وديعاً يؤثر السلام ، وفى عهده اجتاحت روسيا حرب قتل فيها الأخ أخاه . وتميز ابنه ديمترى بكل الصفات التى تتطلبها الحرب والقتال ، فهزم كل منافس له وتحدى خان التتار . وفى ١٣٨٠ جميع ماماى خان جيشاً من التتار والمرتزقة الجنوبيين وغيرهم من المتعطلين المتشردين ، وتقدم به نحو موسكو . وقابل ديمترى وحلفاؤه الروس هذا الجحفل عند كوليكوفو Kulikovo قرب نهر الدون وأنزلوا به الهزيمة (١٣٨٠) ، وفاز بلقب دونسكوى Donskoi وعاود التتار الكرة بعد عامين بمائة ألف رجل ، ولكن الروس ، وقد غرتهم وأرهقتهم نشوة النصر ، لم يستطيعوا أن يواجهوا التتار بقوة مماثلة . واستولى التتار على موسكو ، وذبحوا أربعة عشر ألفاً من السكان وأحرقوا المدينة برمتها . وعقد فاسيلى الأول ، ابن ديمترى ، صلحاً مع التتار ، وضم نجنى نفجرد ، وأرغم نوفجورود وفياتكا على قبوله أميراً عليها .

واقتبس أمراء موسكو العظام أساليب الطغيان والاستبداد عند التتار ، وربما كان هذا بديلا عن فوضى الجهل ، وأدارت دفة الحكم على الأسلوب البيزنطى بيروقراطية فى ظل حكومة فردية مطلقة طابعها العنف والدهاء ، خاضعة لمجلس من أبناء الطبقة العليا ذوى الامتيازات (Boyars) الذين كانوا يقدمون مشورتهم وخدماتهم للأمير ، وكانوا فى نفس الوقت قادة الجيش وحكام الأقاليم والقائمين على التنظيم ، والحماة والمستغلين للفلاحين شبه الأحرار الذين كانوا يفلحون الأرض . وهاجر مستعمرون مغامرون إلى الأقاليم غير المستقرة وجففوا المستنقعات وأخصبوا الأرض بحرق الغابات والأدغال واستهلكوا الأرض نتيجة إسرافهم وقصر نظوهم فى فلحها ، ثم انصرفوا عنها ضرباً فى الأرض حتى وصلوا البحر الأبيض وجبال الأورال ، واتخذوا سبيلهم سرباً إلى سيبيريا . وفى السهول المترامية الأطراف بلا نهاية كانت المدن كثيرة ولكنها صغيرة ، وكانت البيوت مبنية من الخشب والطين ، وكان مقدراً لها أن تحترق وتنقض على مدى عشرين سنة على الأكثر . وكانت الطرق غير معبدة وأقل إزعاجاً فى الشتاء حيث كانت تكسوها الثلوج وتملؤها الزحافات والأحذية العالية . وآثر التجار الأنهار على الطرق ، ونقلوا تجارتهم فى بطء على الماء أو الجليد بين الشمال والجنوب ، مع بيزنطة والمسلمين وعصبة الهانسا (وقد تكونت من بعض المدن الحرة فى شمال ألمانيا والدول المجاورة ، تكونت فى العصور الوسطى بقصد التجارة) . وربما كانت هذه التجارة المنتشرة هى التى تغلبت على النزعة الفردية لدى الأمراء وفرضت توحيد روسيا . وكان فاسيلى الثانى (١٤٢٥ — ١٤٦٢) الملقب باسم تمنى Temny — الأعمى — لأن أعداءه فقأوا عينيه — هو الذى قضى على تمرد العصاة وألزمهم الطاعة ، عن طريق التعذيب وبتر الأطراف والجلد ، وترك لابنه روسيا قوية إلى درجة تضع معها نهاية لمخازى حكم التتار .

وصار إيفان الثالث هو (العظيم) ، لأنه هو الذى أنجز هذه المهمة ، ووحد روسيا . لقد خلق للشدائد ، وكان مجرداً من المبادئ الخلقية ، لا يتورع عن شيء ، حاد الذهن ماكراً حذراً عنيداً قاسياً ، وكان يقود جيوشه إلى النصر على مسافات بعيدة ، وهو مستقر فى مكانه فى الكرملين . وكان يعاقب على العصيان أو العجز والقصور عقاباً وحشياً ، بأن يعذب أو يضرب بالسياط أو يبتر أطراف حتى أعضاء المجلس ، أو يقطع رأس طبيب أخفق فى علاج ابنه ، وهكذا بمثل هذه الصرامة كان يسيطر على حاشيته ، حتى أن النساء ليغمى عليهن لمجرد نظرة منه . وأطلقت عليه روسيا اسم « الرهيب » حتى التقت بحفيده .

وكانت إمارة نفجرد أيسر فتوحاته ، وكان ينظر فى تطلع جشع إلى هذه السوق المزدهرة الخاضعة للضريبة ، ولقد حرضه تجار موسكو على القضاء على منافسيهم فى الشمال(٧) . وسيطر الأمير العظيم على السهول الممتدة بين موسكو ونفجرد ، حيث كانت الجمهورية التجارية تشترى المواد الغذائية اللازمة لها وتبيع بضاعتها ، ولم يكن على إيفان إلا أن يغلق هذا المخزن المورد للحبوب وتلك السوق ، لكى تقع المدينـــة الدولة فى ضائقة وتفلس ، أو تخضع وتستسلم . وبعد ثمان سنوات توالت فيها الحرب والهدنة ، تنازلت الجمهورية عن استقلالها (١٤٧٨) ونقل ٧٠٠٠ من صفوة سكانها إلى سوزدال ، وطردت عصبة الهانسا ، وورث تجار موسكو أسواق نفجرد ، وورث أميرهم دخلها .

وما أن ضم إيفان مستعمرات الجمهورية المندثرة حتى بسط حكمه على فنلندة والمنطقة المتجمدة والأورال . وخضعت بسكوف فى الوقت المناسب حفاظاً على الأشكال الجمهورية فيها تحت سيادة الأمير العظيم . وتلمست تفر أسباب الحماية عن طريق التحالف مع لتوانيا ، ولكن إيفان سار إلى المدينة بنفسه واستولى عليها دون أن يضرب ضربة واحدة ، وتبعتها روستوف Rostov

وياروسلافل Iaroslavl . ولما مات إخوة إيفان رفض أن تؤول مخصصاتهم إلى ورثتهم ، وضمها إلى ممتلكاته . وانحاز أخ له — أندريه — إلى لتوانيا فقبض عليه واعتقله ، ومات أندريه فى السجن ، فبكى إيفان ، ولكنه صادر أملاكه . إن السياسة لا قلب لها .

وبدا أن التحرر من ربقة التتار مستحيل ، ولكن ثبت أنه أمر يسير . ذلك أن بقايا الغزاة المغول — الأتراك كانوا قد استقروا فى ثلاث جماعات متنافسة متنافرة ، وتركزوا فى سراى Sarai وقازان Kazan وفى القرم ، وكان إيفان يضرب كلا منها بالأخرى حتى وثق أنها لن تتحد ضده . وفى ١٤٨٠ امتنع إيفان عن دفع الجزية ، وقاد خان أحمد جيشاً كبيراً من الفولجا حتى ضفاف نهرى أوكا وأوجرا جنوب موسكو . وقاد إيفان جيشاً قوامه ١٥٠,٠٠٠ رجل إلى الضفاف المقابلة ، وواجه العدوان بعضهما بعضا لعدة شهور دون أن تقع بينهما معركة . وتردد إيفان فى أن يغامر بعرشه وحياته فى رمية واحدة ، كما خشى التتار مدفعيته التى أدخل عليها تحسينات . ولما تجمدت الأنهار ، ولم تعد تحمى الجيوش بعضها من بعض ، أصدر إيفان أوامره بالانسحاب ، وبدلا من تعقب الجيش المنسحب ، انسحب التتار كذلك ، حتى وصلوا إلى سراى (١٤٨٠) ، وكان انتصاراً هائلا ولكنه مضحك . ومنذ ذلك الحين لم تدفع موسكو جزية إلى التتار ، وسمى الأمير العظيم نفسه الحاكم المطلق ، أى الذى لا يدفع الجزية لأحد . واستدرج الخانات المتنافسون إلى محاربة بعضهم بعضا . وهزم أحمد وذبح ، وانقضى سلطان المغول فى سراى ، واندثرت « القبيلة الذهبية » .

وبقيت لتوانيا . ولم يطق الأمير العظيم ولا مطران موسكو الصبر على السلام ، ما دامت أوكرانيا وكييف وروسيا الغربية تحتفظ بقوة تهدد موسكو دوما ، وتدعو الأرثوذكس إلى المسيحية اللاتينية . وزعم إيفان أن ثمة مؤامرة لاغتياله ، واتخذ من ذلك ذريعة لشن حرب مقدسة لتخليص

المديريات المغرر بها (١٤٩٢) . فما كان من أمراء لتوانيا الذين استشعروا القلق فى ظل اتحاد الرومان الكاثوليك البولندى إلا أن فتحوا أبوابهم أمام جيوش إيفان . وتوقف الاسكندر أمير لتوانيا العظيم فى فدروشا **Vedrosha** وهزم (١٥٠٠) . ورتب البابا الاسكندر السادس هدنة لمدة ست سنوات . وفى نفس الوقت احتفظت موسكو بالأقاليم التى كسبتها — إلى الغرب من نهر سوز **Sozch** بما فى ذلك شرنيجوف **Chernigov** حتى سمولنسك تقريباً . وكان إيفان الثالث قد بلغ آنذاك الثالثة والستين فترك تخليص البقية لحفدته .

إن حكم إيفان الذى دام ثلاثا وأربعين سنة يعدل فى أهميته أى حكم آخر فى تاريخ روسيا قبل القرن العشرين . وسواء كان مدفوعاً بشهوة المال وحب السيطرة أو بإيمانه الراسخ بأن أمن الروس وازدهارهم يتطلبان توحيد روسيا ، فإن إيفان الثالث حقق لبلده ما كان يؤديه لويس الحادى عشر لفرنسا ، وهنرى السابع لإنجلترا ، وفرديناند وايزابلا لأسبانيا ، والإسكندر السادس للولايات البابوية ، ولقد كشف تزامن هذه الأحداث عن تقدم القومية والملكية ، الأمر الذى قضى على سلطان البابوية الأسمى فوق الأمم والقوميات . وفقد أبناء الطبقة العليا استقلالهم ، وأرسلت الإمارات الجزية إلى موسكو ، واتخذ إيفان لقب « ملك روسيا بأسرها » . ويحتمل أن زوجته الإغريقيـــة أوصته بأن يتخذ كذلك لقب « قيصر » ، وهو لقب رومانى إغريقى . ولقد اتخذ النسر الإمبراطورى المزدوج شعاراً قومياً ، وادعى وراثة السلطة السياسية والدينية لبيزنطه الغابرة ، واقتبست من بيزنطة نظريات الحكومة وأعيادها ومراسمها ، وكذلك فعلت الكنيسة ، بوصفها من أدوات الدولة ، بعد أن دخلت إلى روسيا المسيحية البيزنطية والأبجدية البيزنطية الإغريقية وأشكال الفن البيزنطى ، وبقدر ما كانت بيزنطة شرقية لقربها من آسيا ، فإن روسيا التى كانت قد اصطبغت بالصبغة الشرقية بسبب حكم التتار لها ، أصبحت من وجوه كثيرة مملكة شرقية مغايرة للغرب غريبة عنه غامضة لديه .

٣ — إيفان الرهيب

١٥٣٣ — ١٥٨٤

تابع فاسيلى الثالث إيفانوفتش ١٥٠٥ — ١٥٣٣ توحيد روسيا ؛ وضم عمولنسك إلى مملكته ، وأرغم إمارتى ريازان ولفجرد — سفرسكى على الاعتراف بسيادته . وقال أحد كتاب الحوليات الروس « ليس سوى الأطفال الرضع هم الذين استطاعوا أن يكفكفوا الدمع ، عندما خضعت لحكم فاسيلى (١٥١٠) جمهورية بسكوف التى كانت يوماً مزهوة بنفسها » ؛ كانت روسيا آنذاك دولة أوربية كبرى . وتبادل فاسيلى الرسائل على قدم المساواة مع مكسيميليان الأول وشارل الخامس وسليمان القانونى وليو العاشر . وعندما حاول بعض أبناء الأرستقراطية أن يحدوا من استبداده كبح جماحهم بكلمة احتقار واحدة هى « فلاحون » . ثم قطع رأس أحد النبلاء . ولما لم ينجب من زوجته أولاداً ، فإنه طلقها وتزوج من هيلينا جلنسكى ، وهى سيدة مصقولة بارعة مستبدة . وبعد موته صارت وصية على ابنها إيفان الرابع فاسيليفتش البالغ من العمر ثلاث سنوات . وعند موتها عاود أعضاء المجلس أبناء الطبقة العليا شغبهم ، وتولت أحزابهم المتناحرة زمام الحكم تباعاً ، ونشروا الفوضى والخلل فى المدن نتيجة عنفهم ، واستنزفوا فى الحرب الأهلية دماء الفلاحين الروس البؤساء العاجزين .

وفى غمرة هذه المنازعات كاد الملك الصغير « سيد روسيا بأسرها » أن يكون مهملا متجاهلا بل محروماً بائساً فى بعض الأحيان . ولما كان يبصر بضروب الوحشية فى كل مكان من حوله ، فإنه حسبها أسلوباً مقبولا فى السلوك ، ومن ثم اختار أعنف ضروب الرياضة . ونشأ شاباً نكدا متقلب المزاج متشككاً . وفجأة ، عندما كان بعدُ ولداً فى الثالثة عشرة من عمره ، (١٥٤٤) ألقى إلى كلابه أندريه شويسكى زعيم أحد أحزاب

النبلاء ، وتولى زمام الأمور فى الدولة . وبعد ثلاث سنوات قام مطران موسكو بتتويجه قيصراً ، ثم أمر القيصر بأن ترسل إليه نخبة من العذارى النبيلات من مختلف أنحاء المملكة ، واختار منهن أنستاسيا رومانوفا وتزوج منها ، ومن لقب أسرتها سوف يتحدد عما قريب لقب أسرة حاكمة .

وفى ١٥٥٠ دعا أول جمعية وطنية من جميع أنحاء روسيا ، واعترف أمامها بجميع أخطائه فى شبابه ، ووعد بإقامة حكومة عادلة رحيمة . ولعله تحت تأثير الإصلاح فى ألمانيا واسكنديناوه ، درست الجمعية اقتراحا بمصادرة أملاك الكنيسة لتدعيم الدولة . ورفض هذا الاقتراح ، ولكن اتخذ قرار آخر متصل به ، بمقتضاه استردت كل الأراضى المنقولة للكنيسة وغير الخاضعة للحجز ، كما ألغيت كل الهبات التى منحت للكنيسة أيام كان إيفان قاصراً . ولم يعد للأديار حق حيازة أية ممتلكات دون موافقة القيصر . وهدأ بال رجال الدين نوعاً ما عندما عين إيفان الكاهن سلفستر مرشداً روحياً له ، واتخذ منه ومن ألكسيس أداشيف وزيرين له ، وبفضل هذين المعاونين القديرين كان إيفان فى سن الحادية والعشرين سيدا على مملكة تمتد من سمولنسك إلى الأورال ، ومن المحيط المتجمد إلى بحر قزوين تقريباً .

وكان همه الأول تقوية الجيش ، والموازنة بين قوى النبلاء المعادين له ، عن طريق هيئتين مسئولتين أمامه : فرسان القوزاق ومشاة سترلتس Strieltsi(*) ، مزودة بالهركوبه (Harquebus) — نوع من الأسلحة النارية اخترع فى القرن الخامس عشر . ونشأ القوزاق فى هذا القرن من طبقة الفلاحين الذين كان مقامهم فى جنوب روسيا بين المسلمين والمسكوف يقتضيهم أن يكونوا دوما على أهبة الاستعداد للقتال عند أول صيحة ، كما هيأ لهم

(*) مشتقة من معنى إطلاق النار . أما القوزاق فيحتمل أنها محرفة عن لفظة تركية معناها مغامر .

فرصاً تتعذر مقاومتها لسلب القوافل التى كانت تنقل التجارة بين الجنوب والشمال . وجموع القوزاق الأصليون هم قوزاق نهر الدون فى جنوب شرقى روسيا ، وقوزاق زابوروج Zaporogue فى الجنوب الغربى ، وكانوا جمهوريات شبه مستقلة ، ومن الغريب أنه كان يسود بينهم نظام ديموقراطى ، حيث كان أرباب البيوت يختارون رئيساً تنفيذياً لجمعية منتخبة . وكانت كل الأرض ملكاً عاماً مشتركاً ، ولكنها تؤجر إلى الأسرات بصفة فردية لاستخدامها استخداماً موقوتاً ، وكانت الطبقات كلها متســاوية أمام القانون[٨] . وأصبح فرسان القوزاق ، بسبب اشتهارهم بالشجاعة الهائلة ، الدعامة الأولى لإيفان الرابع داخل البلاد وفى الحرب .

وكانت سياسته الخارجية بسيطة ، فهو يريد أن تربط روسيا بين بحر البلطيق وبحر قزوين . وكانت كازان واستراخان والقوم لا تزال فى قبضة التتار الذين كانوا لا يفتأون يطالبون موسكو بالجزية ، ولكن عبثاً . وكان إيفان على يقين من أن أمن روسيا ووحدتها يتطلبان امتلاكها لهذه الأجزاء ، والتحكم فى نهر الفولجا حتى منابعه . وفى ١٥٥٢ قاد القيصر الشاب ١٥٠٫٠٠٠ رجل إلى أبواب كازان وحاصرها لمدة خمسين يوما . ولكن المسلمين — وكان عددهم ٣٠٫٠٠٠ — قاوموا وصمدوا فى عناد تحدوهم الروح الدينية وهاجموا أعداءهم فى غارات متكررة ، وعندما أسر نفر منهم وعلقوا على أعواد المشانق أمام الأسوار سدد إخوانهم المدافعون إليهم السهام صائحين : « خير لهؤلاء الأسرى أن يموتوا بأيدى بنى وطنهم النظيفة من أن يهلكوا بأيدى المسيحيين الدنسة[٩] » . ولما وهنت عزائم المحاصرين وأصابهم القنوط بعد شهر من الإخفاق ، أرسل إيفان إلى موسكو فى طلب صليب عجيب ، فما أن ظهرت هذه الأعجوبة أمام جنوده حتى ثارت حميتهم من جديد ، وكان الله يحارب مع الجانبين . وبث مهندس ألمانى الألغام فى الأسوار فانهارت ، واندفع الروس إلى المدينة صائحين « الله

معنا » ، وأعملوا الذبح فى كل من لم يباعوا بوصفهم رقيقا . وروى أن إيفان ذرف الدمع حسرة على المغلوبين قائلا : « إنهم ليسوا مسيحيين ، ولكنهم رجال » وأسكن إيفان فلول المسيحيين فى الأطلال . وهتفت روسيا بأنه أول سلافى يستولى على معقل تترى ، واحتفلت بالنصر ، كما احتفلت فرنسا بصد المسلمين فى معركة تور سنة ٧٣٢ . وفى ١٥٥٤ استولى إيفان على استراخان ، وأصبح نهر الفولجا قناة روسية تماما . وظلت القرم فى يد المسلمين حتى ١٧٧٤ . ولكن قوزاق نهر الدون أحنوا رءوسهم آنذاك لحكم موسكو .

وما أن حرر إيفان حدوده فى الشرق حتى ولى شطره متلهفاً نحو الغرب . وكان يراوده حلم تجارة روسية تتدفق غربا وشمالا عبر الأنهار الكبرى إلى البلطيق ، وكان يحسد غرب أوربا على التوسع الصناعى والتجارى ، وكان يلتمس للاقتصاد الروسى منفذاً يربط به نفسه بهذا التوسع . وفى ١٥٥٣ أرسل تجار لندن سير هيو ولفبى Hugh Willoughlby وريتشارد تشانسلر لإيجاد طريق فى المنطقة المتجمدة حول اسكنديناوة وصولا إلى الصين ، فأبحرا من هاروك Harwich فى ثلاث مراكب ، وهلك اثنان من الملاحين فى الشتاء فى لابلند ، ولكن تشانسلر وصل إلى الموقع الذى أسماه البريطانيون أركنجلسك ، على اسم الملاك ميكائيل . وشق تشانسلر طريقه وسط مئات الأخطار والصعاب إلى موسكو ، فعقد معه إيفان ، ثم مع أنطونى جنكنسن فيما بعد ، معاهدات تخول « شركة لندن والمسكوف » امتيازات تجارية خاصة فى روسيا .

ولكن هذه المعاهدات كانت بالنسبة لإيفان مجرد ثقوب ، ولم تكن بابا أو منفذا إلى الغرب ، وأراد أن يستجلب فنيين من ألمانيا ، وحشد له من هؤلاء ١٢٣ فى لوبك ، ولكن شارل الخامس رفض السماح لهم بالخروج . وكان النهر الكبير دوينا الجنوبى يجرى من قلب روسيا إلى البلطيق قرب

ريجا ، ولكنه يجرى عبر ليفونيا المعادية ، ولم تكن منابع دوينا والفلجا بعيدة بعضها عن بعض ، ومن ثم يمكن ربط النهرين بقنوات ، وهنا ، بحكم « القدر المقدور » كان الطريق المائى الذى يمكن أن يعوض روسيا عن عدم تناسب أراضيها المترامية الأطراف مع سواحلها وثغورها ، ومن ثم يمكن أن يتصل بحر البلطيق ببحر قزوين والبحر الأسود ، كما يمكن أن يلتقى الشرق والغرب . وفى تبادل السلع والأفكار قد يستطيع الغرب أن يسدد شيئاً من دينه الثقافى القديم للشرق .

وعلى ذلك فإن إيفان فى سنة ١٥٥٧ ابتكر ذريعة لمهاجمة ليفونيا ، وأرسل إليها بجيش تحت قيادة شاه على ، الذى كان أخيراً خان التتار على كازان . واجتاح الجيش البلاد بطريقة وحشية ، فأحرق الدور والمحاصيل ، واستعبد الرجال واغتصب النساء حتى الموت . وفى ١٥٥٨ استولى جيش روسى آخر على نارفا التى تبعد عن البلطيق بثمانية أميال . واستنجدت ليفونيا اليائسة ببولندة والدانمارك والسويد وألمانيا : وارتعدت أوربا الوسطى بأسرها فزعا من مشهد الطوفان السلافى الذى وصل إلى الغرب ، كما وصل فى القرن السادس إلى نهر الإلب . واستثار ستيفن باثورى حمية البولنديين وقادهم إلى الانتصار على الروس عند بولتسك (١٥٨٢) . ولما حلت الهزيمة بإيفان سلم ليفونيا إلى بولندة .

وقبل هذه النكسة الحاسمة بزمن طويل ، كان إخفاق حملات إيفان قد أدى إلى الثورة فى الداخل ، حيث كان التجار الذين كان إيفان يسعى إلى إثرائهم بفتح طرق جديدة للتجارة ، قد فقدوا صوابهم بسبب هذه الحرب المدمرة الباهظة التكاليف . وعارض النبلاء هذه الحرب لأنها لا بد أن ترحد بين دول البلطيق ، بسلاحها المتفوق ، ضد روسيا التى ما زالت إقطاعية فى تنظيمها السياسى والعسكرى . وفى أثناء الحرب وفيما قبلها كان إيفان قد ارتاب فى مؤامرات النبلاء ضد عرشه . وفى أثناء مرض كاد يقضى عليه

(١٥٥٣) علم أن جماعة قوية من النبلاء كانوا يدبرون أن يبعدوا ، عند موته ، ابنه ديمترى ويتوجوا الأمير فلاديمير الذى كانت أمه تمنح الجيش عطايا كثيرة . وكان أقرب مستشاريه سلفستر وأداشف ضالعين مع النبلاء ، ولمدة سبع سنوات بعد الارتياب فيهما ، أبقى إيفان على هذين الموظفين فى مواقع السلطة ، ثم طردهما فى ١٥٦٠ ، ولكن دون عنف . ومات سلفستر فى أحد الأديار ، وقضى أداشف نحبه فى إحدى الحملات على ليفونيا ، وهاجر عدة نبلاء إلى بولندة وحملوا السلاح ضد روسيا ، وفى ١٥٦٤ لحق الأمير كوربسكى Kurbsky صديق إيفان الحميم والقائد العام ، بهؤلاء الهاربين ، زاعما أن القيصر يدبر قتله ، ومن بولندة أرسل كوربسكى إلى إيفان ما يصل إلى أن يكون إعلاناً للحرب عليه ، متهماً إياه بأنه مجرم مجذوم . وتدعى الأساطير أن إيفان عندما قرئ عليه الخطاب دق أحدى قدمى حامله بالمسامير فى الأرض بضربة من العصا الملكية ، ولكن القيصر تنازل فرد على كوربسكى بدفع يقع فى اثنتين وستين صفحة ، وكان رداً بليغاً مشوشاً ، عاطفياً مليئا بمقتبسات من الكتاب المقدس ، عدد فيه دسائس النبلاء لخلعه . واعتقاداً منه بأنهم كانوا قد دسوا السم لأنستاسيا ، تساءل إيفان : « لماذا فرقتم بينى وبين زوجتى ؟ ألم تأخذوا منى وليدى الصغير ؟ لم يحدث قط أن ذبح أحد من النبلاء . . . لقد فتشت عبثاً عن رجل يستشعر الشفقة بى ، ولكنى لم أجد أحداً(١٠) » . وكتب كوربسكى فى أخريات أيامه تاريخاً قاسياً عدائياً لإيفان ، وهو أهم مرجع لنا فى إرهاب إيفان .

إن هذه المؤامرات ومغادرة البلاد توضح لنا أشهر حادث متميز فى عهد إيفان . وفى ١٢ ديسمبر ١٥٦٤ غادر إيفان موسكو مع أسرته وأيقوناته وكنوزه ، مع قوة صغيرة من الجنود ، وسار إلى مقره الصيفى فى اسكندروفسك . وأرسل إلى موسكو بيانين ، زعم فى الأول أن النبلاء

والبيروقراطية والكنيسة تآمروا ضده وضد الدولة ، وأنه لذلك « مع أشد الأسف » اعتزل الآن العرش ، ليعيش فى عزلة . أما البيان الثانى فقد أكد فيه لأهل موسكو أنه أحبهم وأن لهم أن يبقوا واثقين من نياته الطيبة دوما . والحق أنه تمسك بمحاباة العامة والتجار ضد الأرستقراطية ، وقد شهد بذلك ما قامت به الطبقتان الوسطى والدنيا آنذاك ، فقد انفجروا يرددون صيحات التهديد ضد النبلاء ورجال الدين ، مطالبين بأن يشخص إلى القيصر وفد من الأساقفة والنبلاء ، ليرجوه فى العودة إلى العرش ، وتم ذلك وقبل إيفان « أن يتولى أمر الدولة من جديد » ، بشروط يحددها هو فيما بعد .

وعاد إيفان إلى موسكو فى فبراير ١٥٦٥ ، ودعا الجمعية الوطنية من رجال الدين والنبلاء ، وأعلن أنه سيعدم زعماء المعارضة ويصادر أملاكهم ، وأنه من الآن فصاعدا سيتولى كل السلطة دون استشارة النبلاء أو الجمعية ، وأنه سينفى كل من يخالف أوامره العالية ومراسيمه ، ولما كانت الجمعية تخشى ثورة الجماهير فقد استسلمت وانحلت . وقرر إيفان أن روسيا سوف تنقسم فى المستقبل إلى قسمين : الأول « زمستشينا Zemstchina أو مجموعة المقاطعات ، ويظل تحت حكم النبلاء ومجالسهم « الدوما » ، ويخضع لضريبة إجمالية يفرضها القيصر ، ويكون تابعاً له فى الشئون العسكرية والخارجية ، ويكون فيما عدا ذلك حراً يتمتع بحكم ذاتى . والقسم الثانى « أوبرشنينا Oprichnina — الممتلكات المستقلة » يحكمه هو أى إيفان ، ويتكون من الأراضى التى يخصصها هو « للطبقة المنفصلة Oprichniki » التى يختارها القيصر للشرطة ولإدارة نصف المملكة هذا ، ولحمايته من الشعب ، ولتقوم بحمايته هو شخصياً ، ولتقدم له الخدمات العسكرية الخاصة به . واختير الموظفون الجدد — وكانوا فى البداية ألفاً وبلغ عددهم فى النهاية ستة آلاف ، اختيروا على الأخص من بين صغار أبناء النبلاء ، ولما لم يكن لديهم

أرض ، فقد كانوا على استعداد لتأييد إيفان مقابل الضياع التى منحهم إياها . واقتطع جزء من هذه الأراضى من أملاك التاج ، والجزء الأكبر منها من أملاك النبلاء الثوار التى صودرت . وبنهاية عصر إيفان كانت هذه « الممتلكات المستقلة — أوبرشنينا » تشمل نصف روسيا تقريباً ، وكثيراً من موسكو وأهم طرق التجارة . وكان هذا الانقلاب مماثلا لما حاوله بطرس الأكبر بعد ذلك بمائة وخمسين عاماً : الارتفاع بطبقة جديدة إلى السلطة السياسية ، والارتقاء بالتجارة والصناعة فى روسيا . وفى مثل هذا القرن الذى كانت فيه القوة العسكرية كلها من الوجهة العملية فى قبضة الأرستقراطية ، تطلب المشروع شجاعة مفرطة فى القيصر الذى لم يتزود إلا بجنده الخصوصيين ، وبالتأييد الهزيل الذى لايعتد به من جانب التجار والجماهير . ويؤكد لنا بعض المعاصرين أن إيفان — فى هذه الفترة الدقيقة — وهو آنذاك فى سن الخامسة والثلاثين ، كان يمثل ابن العشرين(11) .

واتخذ إيفان آنذاك الاسكندروفسك مقراً دائماً ، وحولها إلى قلعة محصنة . وربما كان التوتر الذى انتابه بسبب ثورته ضد النبلاء بالإضافة إلى الإخفاق فى الحرب الطويلة الأمد مع ليفونيا ، سبباً فى اعتلال عقله الذى لم يكن قط كامل الاتزان . ولقد ألبس حراسه عباءات سوداء ، وهى لباس الكهنة ، وقلنسوات ضيقة ، وأطلق على نفسه لقب رئيس الرهبان . ورتل مع فرقة المرتلين ، وشهد معهم القداس يومياً ، وكم خر ساجداً أمام المذبح فى حماسة حتى تكررت إصابات جبهته بالكدمات . وزاد هذا من الفزع الذى بثه فى روسيا التى بدأت تحس نحوه بمزيج من التبجيل له والإشفاق عليه ، وحتى أفراد « الطبقة المنفصلة » Oprichniki كانت تمثل أمامه فى ذلة وخشوع حتى أطلق عليهم أنهم حاشيته أو بلاطه .

واقترن انقلاب إيفان بالإرهاب ، شأنه فى ذلك شأن أى انقلاب آخر ، وقبض على معارضيه وأعدموا دون شفقة أو رحمة ، وجاء فى عرض

لأحداث هذه السنوات (١٥٦٠ — ١٥٧٠) دونه أحد الرهبان ، ويحتمل أن يكون معاديا ، أن عدد قتلى غضبه بلغ ٣٤٧٠ . ويقول هذا العرض التاريخى أن الضحية كان فى الغالب يعدم « مع زوجته » أو « مع زوجته وأطفاله » ، وفى حالة واحدة « مع عشرة من الرجال جاءوا لمساعدته[١٢] » . وأعدم الأمير فلاديمير مع أمه ، أما أولاده فقد أبقى إيفان على حياتهم ووفر لهم أسباب العيش . ويقال إن القيصر طلب إلى الرهبان أن يصلوا من أجل نفوس ضحاياه . ودافع إيفان عن إعدامهم بأن هذا هو العقاب المعتاد لجريمة الخيانة وخاصة زمن الحرب . وقد سلم أحد ممثلى بولنده بهذه الحجة ، وتضرع إنجليزى شهد شيئاً من هذه المجزرة قائلا : « ندعو الله أن نتمكن من تعليم ثوارنا العنيدين واجبهم نحو أميرهم بالطريقة نفسها[١٣] » .

وجاءت ذروة هذا الإرهاب فى نفجرد . وكان إيفان قبل ذلك بفترة وجيزة قد منح رئيس الأساقفة مبلغاً كبيراً من المال لإصلاح الكنائس ، وظن أنه كان بذلك محبوباً من رجال الدين هناك على الأقل . ولكنه أبلغ أنه قد وجدت وثيقة ، ليست بالضرورة غير مزيفة ، خلف صورة للعذراء فى أحد أديار نفجرد ، وفيها عهد بالتعاون بين نفجرد وبسكوف مع بولنده لمحاولة خلع القيصر . وفى الثانى من يناير ١٥٧٠ انقضت على المدينة قوة عسكرية قوية يقودها الأوبرشنيكى ، وأعملت النهب والسلب فى الأديرة ، وقبضت على ٥٠٠ من الرهبان والكهنة . وفى ٦ يناير وصل القيصر إلى هناك ، وأمر أن يجلد بالسياط حتى الموت كل من لم يستطع من رجال الدين هؤلاء أن يدفع فدية قدرها ٥٠ روبلا ، كما جرد رئيس الأساقفة من ثوبه وسجن . وجاء فى « سجل أحداث نفجرد الثالث » أنه قد أعقب هذا مذبحة الأهالى التى دامت خمسة أسابيع . وفى بعض الأحيان كان خمسمائة فرد يذبحون فى اليوم الواحد ، وتقول البيانات الرسمية أن عدد القتلى بلغ ٢٧٧٠ ، واحتج إيفان بأنهم ١٥٠٥ فقط . ولما استقر فى الأذهان أن التجار ، وهم متلهفون

على إعادة فتح باب التجارة مع الغرب ، قد شاركوا فى المؤامرة ، فقد أحرق جنود القيصر كل حوانيت المدينة ، ودمرت بيوت التجار فى الضواحى ، وحتى البيوت فى المزارع المجاورة للمدينة لحقها التدمير . وما لم يكن رواة الأحداث فى الأديار قد بالغوا فى وصف المذبحة ، فإنه يجدر بنا أن نعود بالذاكرة إلى عقاب شارل الجرىء لثوار لييج ١٤٦٨ ، وأعمال السلب والنهب فى رومه على يد جنود شارل الخامس ١٥٢٧ لنجد أمثلة شبيهة بانتقام إيفان الوحشى . ولم تستعد نفجرد قط تفوقها القديم فى الحياة التجارية فى روسيا . واتجه إيفان بعد ذلك إلى بسكوف حيث حظر على جنوده السلب والنهب ، ثم عاد أدراجه إلى موسكو حيث احتفل فى حفلة تذكارية ملكية بإفلاته من مؤامرة خطيرة .

إن حكماً مثل هذا ممتلئاً بالفتن والشغب لا يكاد يساعد على التقدم الاقتصادى أو إنجاز الأعمال الثقافية . لقد انتعشت التجارة وقت السلم وانتكست زمن الحرب . وفى الأراضى المخصصة لطبقة الأوبرشنيكى ، وفى سائر الأراضى فيما بعد ، كان الفلاح مربوطاً قانوناً بالأرض ، على أساس أنه وسيلة للنهوض بالزراعة المستمرة فيها (١٥٨١) على أن نظام الرق الذى كان نادراً فى روسيا قبل ١٥٠٠ ، صار فى ١٦٠٠ قانوناً من قوانين الأرض . وكانت الضرائب باهظة فاحشة ، واندفع التضخم المالى بشدة ، فكان الروبل فى ١٥٠٠ يساوى ٩٤ ، وفى ١٦٠٠ يساوى ٢٤ من الروبلات فى ١٩١٠[١٤] . وليس بنا من حاجة إلى تتبع الهبوط إلى أبعد من ذلك ، إلا لنعلم ، كدرس من دروس التاريخ ، أن النقود هى آخر شىء يجدر بالإنسان أن يدخره .

وأرغم إسراف الأسر القصير النظر فى الإنجاب وإرهاق التربة ، الناس على هجرة متواصلة لا تهدأ إلى أراض بكر . فلما اجتاز المهاجرون جبال الأورال وجدوا أمامهم مملكة للتتار سكانها من قبائل البشكير المسلمة

Bashkirs وقبائل أوستياك (قبائل من الفنلنديين والماجيار فى غرب سيبيريا) ، تعرف عاصمتها باسم سيبير Sibir (وهى من ألفاظ القوزاق) . وفى ١٥٨١ جند سيمين ستروجانوف ٦٠٠ من القوزاق وأرسلهم تحت قيادة إرماك تيموفيفتش لغزو هذه القبائل ، وقد تم له ذلك ، وأصبحت سيبيريا الغربية جزءاً من المملكة الروسية المتضخمة . أما إرماك الذى كان من زعماء قطاع الطرق فقد مجدته الكنيسة الأرثوذكسية ، وضمته إلى قائمة القديسين .

وكانت الكنيسة هى الحاكم الحقيقى لروسيا ، لأن خشية الله كانت سائدة فى كل مكان ، على حين كان سلطان إيفان محدوداً . وكانت قواعد الطقوس الدينية ، إن لم تكن قواعد الفضيلة والأخلاق ، تقيد الجميع ، حتى القيصر نفسه ، وكان الكهنة يراقبون هل غسل يديه بعد مقابلته لسفراء الدول من خارج نطاق الأرثوذكسية . وكانت الصـــلاة وفق الطقوس الرومانية الكاثوليكية غير مرخص بها ، أما البروتستانتية فقد تسامحوا معها على أساس المشاركة فى العداء للبابا فى رومة . وكان إيفان الرابع — مثل هنرى الثامن — يزهو بعلمه فى اللاهوت ، وانغمس مرة فى مناقشة عامة فى الكرملين مع كاهن لوثرى من بوهيميا ، ويجب أن نسلم بأنه ، وهو أعنف القياصرة ، أدار المناقشة فى كياســـة أكثر مما بدا فى المنازعات الدينية فى ألمانيا لمعاصرة(١٥) . ولكن إيفان لم يتصرف بمثل هذه الكياسة مع رجل لاهوتى آخر ، ذلك أنه ذات يوم أحد فى ســـنة ١٥٦٨ أثناء الصلاة فى كنيسة الصعود ، رفض فيليب مطران موسكو أن يمنح إيفان البركة التى توسل إليه فيها ، وطلب القيصر ذلك ثلاث مرات ولكن دون جدوى ، ولما سأل أتباعه عن سبب لهذا الرفض ، بدأ فيليب يعدد جرائم إيفان وفسوقه ، فصاح القيصر : « هدئ من روعك وامنحنى البركة » فأجاب المطران : « إن سكوتى يوقعك فى الخطيئة ويستوجب هلاكك » . وغادر إيفان المكان دون أن يمنح البركة . وظل فيليب شهرا تعروه الدهشة والعجب والقلق ،

ولكن لم يمس فيه بسوء . وبعده دخل أحد خدم القيصر الكاتدرائية وقبض على المطران وساقه إلى أحد السجون فى تفر . ولا يعلم مصيره علم اليقين ، ولكن الكنيسة الروسية تؤيد القول بأنه أحرق حياً . وفى ١٦٥٢ ضم إلى قائمة القديسين ، وبقيت رفاته حتى ١٩١٧ موضع إجلال وتبجيل فى كنيسة صعود العذراء .

وظلت الكنيسة تنتج معظم الأدب والفن فى روسيا . ودخلت الطباعة فى سنة ١٤٩١ ، ولكن اقتصر المطبوع طوال هذا العهد على كتب الصلوات وكان زعيم العلماء آنذاك هو المطران مكاريوس ، الذى شرع فى ١٥٢٩ ، بمعونة بعض السكرتيرين فى جمع ما تبقى من آداب بلده فى اثنى عشر مجلدا ضخماً ، ومرة أخرى نرى أن معظمها كان دينياً تماماً . وفى الكثير الغالب يتعلق بالأديار ووقائع التاريخ حسب ترتيب حدوثها . والف سلفستر معلم الاعتراف لإيفان كتاباً مشهورا هو « كتاب الأسرة » ، بمثابة دليل للاقتصاد المنزلى والسلوك ، والخلاص الأبدى ، وإنا لنلحظ فيه حث الزوج على أن يضرب زوجته برفق ، وتعليمات دقيقة لآداب البصق والمخاط[١٦] . ولم يكن إيفان نفسه ، كما تدل رســـائله ، أقل كتاب هذا العصر براعة وقوة .

وكان أروع إنتاج فنى روسى فى عهد إيفان هو كنيسة « بازل المبارك » التى لا تزال قائمة بعيدا عن الكرملين فى أحد أطراف الميدان الأحمر . ولدى عودة القيصر من حملاته الظافرة ضد كازان وأستراخان (١٥٥٤) شرع فى بناء ما أسماه كاتدرائية « شفاعة العذراء » وهى التى نسب إليها انتصاراته بحكمة . وحول هذا المقام المتوسط من الحجر ، شيدت فيما بعد سبعة معابد من الخشب خصصت لقديسين كان إيفان قد تغلب على أعدائه فى أيام أعيادهم . وتوج كل معبد منها بقبة رشيقة مزدانة بالرسوم ، وكانت القباب كلها بصلية الشكل ، وإن اختلفت زخرفة كل منها . وأضفى آخرها وهو

الذى أقيم للقديس بازل فى ١٥٨٨ : أضفى اسمه فى وقت لاحق ، على هذه المجموعة الرشيقة الفاتنة . وتنسب أسطورة لا يمكن التغاضى عنها هذه العمارة إلى أحد الإيطاليين . وتروى كيف أن إيفان فقأ عينيه لئلا ينافس هذه التحفة الفنية الرائعة . ولكن اثنين من الروس : بارما وبوستنيكوف هما اللذان وضعا التصميم ، ولكنهما اقتبسا بعض حركات عصر النهضة فى زخرفتها فحسب(١٧) . ويوم أحد السعف من كل سنة ، كجزء من حكمة الدولة ، سار سادة موسكو ورجال الدين فيها فى موكب رهيب إلى هذه الكاتدرائية ، على حين امتطى المطران صهوة جواد مزود بآذان صناعية ، ليقلد الحمار الذى قيل إن السيد المسيح كان يركبه عند دخوله أورشليم ، وسار القيصر على قدميه يقود حصان المطران فى تواضع وخشوع ممسكاً بلجامه ، وكانت تحف بالموكب الأعلام والصلبان والأيقونات وحملة المباخر ، على حين ردد الأطفال عبارات الشكر والثناء تضرعا إلى السماء لتبارك الحياة فى روسيا .

وما أن وافى عام ١٥٨٠ حتى بدا أن إيفان قد انتصر على كل أعدائه . وكان قد بقى على قيد الحياة بعد وفاة عدد من الزوجات ، وبنى بزوجة سادسة . وفكر فى اتخاذ زوجة أخرى عن طريق المضارة الودية(١٨) (الزواج باثنتين فى وقت واحد) . وكان له أربعة أولاد ، مات أولهم فى طفولته ، وكان الثالث فيودور يعانى من تخلف عقلى . أما الرابع ديمترى ، فزعموا أنه كان بنوبات صرع . وفى أحد أيام شهر نوفمبر ١٥٨٠ أنب القيصر زوجة ابنه الثانى « إيفان » وضربها ، لمـا بدا له من أنها ترتدى ثوبا ينافى الحشمة والوقار ، فأجهضت ، فما كان من ابن القيصر إلا أن وجه اللوم إلى أبيه . فضرب القيصر ابنه فى سورة الغضب دون ترو بالعصا الملكية على رأسه فمات الابن لتوه من أثر الضربة . فجن جنون القيصر ندما على فعلته ، وقضى أيامه ولياليه يصرخ صراخاً عالياً من الحزن والأسى . وكان يقدم

تنحيه عن العرش صباح كل يوم ، ولكن حتى أعضاء المجلس أنفسهم أصبحوا الآن يؤثرونه على أبنائه . وعاش إيفان ثلاث سنين بعد ذلك ، ثم أصابه مرض غريب ، جعل جسمه يتورم وتنبعث منه رائحة منتنة . وفى ١٨ مارس ١٥٨٤ قضى نحبه وهو يلعب الشطرنج مع بوريس جودونوف ، وتناثرت الإشاعات تتهم بوريس بأنه دس له السم ، وأعد المسرح لأوبرا عظيمة فى تاريخ القياصرة .

ويجدر بنا ألا نظن أن إيفان الرابع كان مجرد غول متوحش . ونظراً لطول قامته وقوته كان يمكن أن يكون وسيما ، لولا أنفه العريض المسطح الذى كان يعلو شارباً منتشراً ولحية كثة حمراء . لقد ترجمت خطأ لفظة Groznyi بلفظة الرهيب Terrible والأرجح أنهـا تعنى « المرعب » Awesome ، مثل لفظة أغسطس التى أطلقت على القياصرة (الرومان) . وقد أطلق على إيفان الثالث نفس اللقب كذلك . وفى نظرنا ، وحتى فى نظر معاصريه القساة ، كان إيفان الرابع قاسياً تواقاً إلى الانتقام بشكل يدعو إلى الاشمئزاز ، وقاضياً لا يستشعر الرحمة . لقد عاصر محاكم التفتيش فى أسبانيا ، وإحراق سرفيتس(*) ، وعادة هنرى الثامن فى ضرب العنق ، واضطهاد الملكة مارى ، ومذبحة سانت برثلميو . ويقال إنه عندما سمع بهذه المذبحة أنكر همجية الغر [١٩] (ولو أن أحد الباباوات رحب بالمذبحة وامتدحها) . لقد كان ثمة أشياء تثير غيظه وحنقه ، وتذكى النار فى مزاج سريع الانفعال أكسبته الوراثة والبيئة عنفاً . ويقول شاهد عيان إنه كان فى بعض الأحيان « يرغى من فمه — كما يفعل الحصان »[٢٠] لنتيجة مضايقة صغيرة أو الزعاج يسـير . ولقد اعترف القيصر بخطاياه وجرائمه بل بالغ فيها أحياناً ولم يكن على أعدائه إلا أن ينتحـلوا منها اتهاماتهم له .

(*) Servetus ١٥١١ ، ١٥٥٣ طبيب وعالم لاهوت أسبانى أحرق وهو مشدود إلى خازوق فى جنيف لاتهامه بالزندقة .

وأكب على الدرس والتحصيل فى حماسة ؛ وجعل من نفسه أحسن متعلم من غير رجال الدين فى بلده وفى زمانه . وكان يتميز بروح المرح والدعابة ، ويضحك ضحكات عالية بملء شدقيه ، ولكن غالباً ما كانت ابتسامته تنم على الدهاء المخيف . غطى شروره بالنيات والمقاصد الرائعة ، فكان يريد أن يحمى الفقير والضعيف من الغنى والقوى ، ويحابى التجار والطبقات الوسطى كبحاً لجماح الأرستقراطية الإقطاعية المشاكسة ، كما كان يرغب فى فتح باب للتجارة والأفكار على الغرب ، ويزود روسيا بطبقة جديدة من الإداريين الذين لا يتقيدون – كما تقيد أعضاء المجلس من أبناء الطبقة العليا – بالأساليب العتيقة الجامدة ، ويحرر روسيا من ربقة التتار ، وينتشلها من وهدة الفوضى إلى الوحدة . وكان القيصر همجياً يناضل نضالا وحشياً ليرقى سلم الحضارة .

وأخفق إيفان لأنه لم ينضج قط إلى حد السيطرة على النفس . وكادت أن تنسى فى غمرة الانقلاب تلك الإصلاحات التى كان قد خططها . وترك الفلاحين خاضعين لملاك الأرض خضوعاً أشد وأنكى من ذى قبل . وأوصد بالحروب أبواب التجارة ، وساق الرجال القادرين إلى أسلحة العدو ، وشطر روسيا إلى قسمين متناحرين ، وسار بها إلى الفوضى . وضرب لشعبه مثلا مفسداً للقسوة المتسمة بالورع وللأهواء الجامحة . وقتل أحسن أبنائه مقدرة وكفاية . وأسلم عرشه إلى شخصية ضعيفة أدى عجزها إلى الحرب الأهلية . لقد كان إيفان واحداً من كثيرين من رجال عصره ، الذين يمكن أن يقال عنهم إنه كان من الخير لبلادهم وللإنسانية جمعاء ألا يولدوا قط .

الفصل الثلاثون

عبقرية الإسلام

١٢٥٨ – ١٥٢٠

صمد العالم الإسلامى من ١٠٩٥ إلى ١٢٩١ أمام سلسلة من الحملات الدينية العنيفة ، مثل تلك الحملات الدينية العنيفة التى أخضع بها فيما بعد البلقان ، وحول ألفاً من الكنائس إلى مساجد . ودفعت سبع حملات صليبية حث عليها اثنا عشر من البابوات ، نقول دفعت بملوك أوربا وفرسانها ورعاعها ضد قلاع المسلمين فى آسيا الصغرى وسـوريا وفلسطين ومصر وتونس . وعلى الرغم من إخفاق هذه الهجمات آخر الأمر ، فإنها أضعفت نظام هذه الدول الإسلامية ومواردها إضعافاً خطيراً . وكان الصليبيون قد نجحوا فى أسبانيا حيث هزم المسلمون وأخرجوا ، ولكن بقاياهم تجمعوا فى غرناطة التى تأخر قدرها المحتوم بعض الوقت ، وكان النورمانديون الأشداء قد أخذوا صقلية من المسلمين . ولكن أين هذه الجراح والتمزيق من انقضاض المغول الوحشى المدمر (١٢١٩ – ١٢٥٨) على بلاد ما وراء النهر وفارس والعراق ؟ وتعرضت مراكز إشعاع الحضارة الإسلامية ، المدينة تلو الأخرى ، للسلب والنهب والمذابح والحريق – بخارى ، سمرقند ، بلخ ، نيسابور ، الرى ، هراة ، بغداد . وأسقطت الحكومات الإقليمية والمحلية ، وأهملت القنوات وتركت للرمال التى تذروها الرياح ، وأكرهت التجارة على الفرار ، ودمرت المدارس والمكتبات ، وتشتت الدارسون ورجال العلم أو ذبحوا أو استعبدوا . وتحطمت روح الإسـلام لنحو قرن من الزمان

ثم انبعثت من جديد فى بطء ، ثم اكتسح تتار بتمورلنك غربى آسيا بدمار جديد ، وشق الأتراك العثمانيون طريقهم عبر آسيا الصغرى إلى البسفور ، ولم تعرف حضارة أخرى فى التاريخ مثل هــذه الكوارث عدداً وانتشاراً وشمولا .

على أن المغول والتتار والأتراك أتوا بدمهم الجديد ليحل محل أنهار الدماء البشرية التى كانوا قد سفكوها . وكان الإسلام صار مترفاً فاتر الهمة ، وكانت بغداد — مثل القسطنطينية — فقد فقدت إرادتها فى امتشاق الحسام للدفاع عن النفس ؛ وأغرم الناس هناك بالحياة اللينة الهينة الرخية إلى حد الإشراف على الموت ؛ إن تلك الحضارة الرائعة — مثل الحضارة البيزنطية ، أينعت لتذوى وتذبل . ولكنها كانت غنية — مثل اليونان القديمة وإيطاليا النهضة — إلى حد القدرة على تمدين غزاتها ، بفضل ما أنقذ من شتاتها وذكرياتها ، وأنشأت فارس تحت حكم خانات المغول حكومة مستنيرة وأنتجت أدباً جيداً وفناً عظيماً ؛ وشرفت التاريخ بعالم جليل هو رشيد الدين . وفيما وراء النهر ، بنى تيمورلنك وعمر ، بشكل مؤثر ، قدر ما كان قد خرب ودمر . ووسط حملات السلب والنهب التى كان يشنها ، توقف ليكرم حافظ الشيرازى ؛ وفى الأناضول كان الأتراك فعلا متحضرين . وكان الشعراء بينهم من الكثرة قدر كثرة المخليات أو الحليلات . وفى مصر استمر المماليك فى إقامة الأبنية بناء العمالقة الجبابرة . وفى غرب إفريقية أنجب الإسلام فيلسوفاً مؤرخاً ، كان يبدو إلى جانبه أعظم علماء المسيحية المعاصرة بمثابة حشرات صغيرة تقع فى الشرك وتموت جوعاً وسط عناكب الفلسفة النصرانية فى العصور الوسطى . وفى نفس الوقت كان الإسلام ينتشر فى الهند إلى أقصى الشرق .

١ — الأيلخانات فى فارس

١٢٦٥ — ١٣٣٧

عندما سار ماركوبولو فى ١٢٧١ عبر فارس ليرى الصين على عهد قبلاى خان ، وجد نفسه وسط إمبراطورية المغول . ولم يكن التاريخ قد سجل من قبل قط مملكة مترامية الأطراف مثلها . ففى الغرب لامست شواطئ نهر الدنيبر فى روسيا ، وفى الجنوب شملت القرم والعراق وفارس والتبت والهند حتى ضفاف نهر الكنج . وفى الشرق طوقت الهند الصينية والصين وكوريا ، وفى الشمال كان يقع موطنهم الأصلى منغوليا . وفى كل هذه البلاد تعهد حكام المغول الطرق ، ونهضوا بالتجارة ، وقاموا على حماية السائحين والمسافرين ، وأطلقوا حرية العبادة لمختلف العقائد .

لقد أسس هولا كو حفيد جنكيزخان ، بعد تدمير بغداد ١٢٥٨ ، عاصمة جديدة اسمها المراغة شمال غربى فارس . ولما مات ١٢٦٥ أصبح ابنه « أباقا » خان أو أمير فارس ، وخضع خضوعاً غير ثابت لقبلاى خان ، على بعد الشقة بينهما . ومن هنا بدأت أسرة الأيلخانية التى حكمت فارس والعراق حتى ١٣٣٧ . وكان أعظم أفراد هذه الأسرة هو غازان خان ، الذى كاد أن يكون أقصر رجال جيشه قامة ، ولكن إرادته كانت أقوى من أسلحتهم . وطرح غازان ولاءه للخان الأكبر فى منغوليا أو الصين وجعل من دولته مملكة مستقلة ، واتخذ من تبريز عاصمة لها ، وقدم إليه الرسل من الصين والهند ومصر وإنجلترا وأسبانيا : وقد أصلح الإدارة ، وثبت العملة ، وحمى الفلاحين من ملاك الأرض ومن اللصوص ، وساد الرخاء بدرجة تذكر ببغداد فى أزهى أيامها : وشيد فى تبريز مسجداً ومدرستين وأكاديمية للفلسفة ومرصداً ومكتبة ومستشفى . ووقف دخول أراض معينة ، وقفاً دائماً للإنفاق على هذه المنشآت ، ووفر لها أعظم العلماء والأطباء ورجال

العلم فى داك العصر . وكان هو نفسه واسع الثقافة . وكان يعرف عدة لغات ، واضح أن من بينها اللاتينية(١) . وشيد لنفسه مقبرة بلغت من الفخامة والضخامة مبلغاً ظن معه أن موته (١٣٠٤) كان بمثابة دخوله ظافراً منتصرا إلى مقر أشرف وأعظم .

ووصف ماركو بولو تبريز بأنها « مدينة عظيمة متألقة » . وقال عنها فرا أودريك Fra Oderic (١٣٢٠) « إنها أجمل مدينة فى العالم للتجارة ، فهنا توجد أية سلعة بكميات وفيرة . . . » ويقول المسيحيون هنا « إن الدخل الذى كانت تدفعه المدينة لحاكمها يفوق ما تدفعه فرنسا كلها لمليكها »(٢) هذا بالإضافة إلى « المبانى الأنيقة والمساجد الفخمة » ، « وأروع الحمامات فى العالم »(٣) . وقدر أودريك أن عدد سكانها يبلغ مليوناً من الأنفس .

وتابع أولجايتو السياسة المستنيرة التى انتهجها أخوه غازان . وشهد عصره بعضاً من أروع العمارة والزخرفة فى تاريخ فارس ، وان سيرة قاضى قضاته رشيد الدين فضل الله لتوضح ازدهار التعليم والثقافة والآداب فى هذا العصر . وولد رشيد الدين سنة ١٢٤٧ فى همذان ، وربما كان أبواه من اليهود ، كما قال أعداؤه ، مستشهدين بسعة اطلاعه وعلمه بالشريعة الموسوية . ولقد خدم رشيد الدين الخان أباقا كطبيب له ، وغازان بوصفه كبيرا للوزراء ، وأولجايتو بوصفه صاحب بيت المال . وشيد فى إحدى الضواحى شرق تبريز حياً جديداً أسماه « ربع الرشيد » ، وهو مركز جامعى فسيح . وفى رسالة له محفوظة فى مكتبة جامعة كمبردج يصف هذا المركز فيقول :

« لقد شيدنا نزلا شاهقاً يناطح السحاب ، و ١٥٠٠ حانوت تفوق الأهرام فى رسوخها ، و ٣٠,٠٠٠ منزل فاتن » كما

شيدت فيها الحمامات الصحية والحدائق الغناء والمخازن والمطاحن ومصانع النسيج والورق . ونزح الناس من كل حدب وصوب إلى هذا الربع ، وكان من بينهم مائتان من قراء القرآن . وزودنا بالمساكن ٤٠٠ آخرين من العلماء ورجال اللاهوت ورجال القانون وعلماء الحديث ، فى شارع سمى « شارع العلماء » . وأجرينا على هؤلاء جميعاً رواتب يومية وأرزاقاً ومخصصات سنوية للملابس ، ومبالغ من المال لشراء الصابون والحلوى . وأتينا كذلك بألف طالب ، وأصدرنا الأوامر بصرف الأرزاق والمخصصات اليومية لهم ، حتى يتفرغوا فى راحة وأمان ، لطلب العلم ونفع الناس به . كما حددنا كذلك ، من من الطلبة ، وكم منهم يدرسون مع كل أستاذ أو معلم . وبعد التحقق من صلاحية كل طالب وقدرته على فرع الدراسة الذى يريد التخصص فيه ، أمرناه بأن يتعلمه .

وأولينا عنايتنا ورعايتنا بصفة خاصة وبطرق شتى ، لخمسين طبيباً ماهرا جاءوا من الهند والصين ومصر وسوريا . فأمرنا بأن يترددوا على دار الشفاء كل يوم ، وأن يتعهد كل منهم عشرة طلاب صالحين لدراسة الطب ، ويدربهم على ممارسة هـذا الفن الجليل . كما أمرنا بأن يعهد إلى أطباء النظارات والجراحين وأطباء العظام الذين يعملون بدار الشفاء ، بخمسة من أبناء موظفينا وحاشيتنا ليتعلموا طب العيون والجراحة وطب العظام . ولكل هؤلاء الرجال شيدنا حيا خلف دار الشفاء . . . سمى « شارع الأطباء » . كذلك استقرت كل جماعة من أرباب الحرف ورجال الصناعة الذين أتينا بهم من مختلف البلاد ، فى شارع سمى باسمها »(٤) .

وخليق بنا أن يتولانا أشد العجب والدهشة لرجل وجد، مع إسهامه النشيط إدارة شئون المملكة ، من الوقت والمعرفة ما استطاع معه تدوين خمسة كتب فى اللاهوت ، وأربعة فى الطب وفى نظم الحكومة ، وكتاباً من عدة مجلدات فى تاريخ العالم . وفوق ذلك يؤكد لنا أحد المسلمين المعجبين أن رشيد الدين استطاع أن يخصص لتأليفه فترة ما بين صلاة الفجر وشروق الشمس . ومهما يكن من أمر فإن هناك أياماً تتلبد فيها السماء بالغيوم حتى فى أذربيجان . وقضى رشيد الدين سبع سنين فى كتاب « جامع التواريخ » ونشره فى مجلدين ضخمين ، ويقتضى نشره بالإنجليزية سبع مجلدات . وضمنه بيانات جوهرية عن المغول من جنكيزخان إلى غازان ، وعن مختلف الدول والأسرات الإسلامية فى شرق العالم الإسلامى وغربيه ، وعن فارس واليهود قبل بعثة الرسول وبعدها ، وعن الصين والهند ، مع دراسة مستفيضة لبوذا والبوذية ، مع موجز مبسط لأعمال وأفكار ملوك أوربا وباباواتها وفلاسفتها . ويشهد كل الذين قرأوا هذه المجلدات — ولو أنها لم تترجم بعد إلى أية لغة أوربية — بأنها أقيم عمل فى النثر الأدبى فى فارس . ولم يستفد رشيد الدين من محفوظات حكومته فحسب ، ولكنه استخدم كذلك علماء من الصين ليؤمنوا له المعاهدات الصينية وغيرها من الوثائق ، ويبدو أنه قرأها مع غيرها من المراجع العربية والعبرية والتركية والمغولية ، كل فى لغته الأصلية[٥] .

ورغبة فى نقل هذه المجموعة الوافية من التواريخ إلى الأعقاب رغم الزمن والحرب ، أرسل رشيد الدين نسخاً من هذا الكتاب إلى المكتبات هنا وهناك ، وترجم إلى العربية ووزع ، وخصص أموالا لكتابة نسخة بالعربية وأخرى بالفارسية فى كل عام ، لإهدائها إلى إحدى المدن فى العالم الإسلامى . على أن كثيراً من هذا الكتاب مع مؤلفاته الأخرى قد ضاع ، وربما يرجع هذا إلى الكارثة السياسية التى حلت به . ذلك أنه فى سنة ١٣١٢ أشرك الأمير أولجايتو على شاه مع رشيد الدين فى الإشراف على بيت المال ، وفى زمن « أبى سعيد »

الذى خلف أولجابتو ، نشر على شاه مختلف الاتهامات ضد زميله رشيد الدين ، وأغرى الخان بأن رشيد الدين وابنه إبراهيم كانا قد دسا السم لأولجابتو . فعزل المؤرخ (رشيد الدين) وسرعان ما أعدم (١٣١٨) وهو فى سن السبعين ، مع أحد أبنائه ، وصودرت ممتلكاته ، وحرمت مؤسساته من العطايا والمنح ، ونهبت ضاحية « ربع رشيد » ودمرت .

وقام أبو سعيد بترضية متأخرة ، ذلك أنه عين ابنا آخر من أبناء المؤرخ وزيراً له ، ونهج غياث الدين سبيل الحكمة والعدالة فى إدارة دفة الحكومة . وأعقب موت أبى سعيد فترة من الفوضى ، ووضعت نهاية لحكم أسرة الأيلخانيـــة ، وانقسمت مملكتهم إلى ولايات صغيرة دمرتها الحرب ، وخلصها الشعر .

٢ ـ حافظ الشيرازى

١٣٢٠ — ١٣٨٩

ما كان أكثر من ينظم القصيد فى فارس . وكان الملوك يكرمون الشعراء الذين لم يتقدم عليهم فى الحظوة بهذا التكريم والتبجيل إلا الحظايا والحظاظون والقواد . وفى زمن حافظ طبقت الآفاق شهرة عشرين من الشعراء ، وذاع صيتهم من البحر المتوسط إلى نهر الكنج ، ومن اليمن إلى سمرقند ، ولكنهم جميعاً ، على أية حال ، أحنوا رءوسهم إجلالا لشمس الدين محمد — المشهور باسم حافظ الشيرازى — وأكدوا له أنه بز « الشيخ سعدى » الشاعر الرخيم نفسه . وارتضى حافظ هذا التقدير ، وأخذ يحدث نفسه فى احترام قائلا :

« قسما بالقرآن الذى تعيه فى صـــدرك يا حافظ ، لم أر قط أجمل من شعرك »[٦] .

« وحافظ » لفظة معناها « المذكور » الذى يحفظ ويتذكر ، وهو لقب

أطلق على كل من حفظ القرآن كله — مثل شاعرنا — ولم يعرف تاريخ ميلاده ، وأبواه غير معروفين . وسرعان ما أقبل على الشعر : وكان أول من رعى الشاعر واحتضنه هو « أبو إسحق » الذى عينه غازان خان حاكماً على جنوب إيران . وأولع أبو إسحق بالشعر أيما ولع ، وأهمل شئون الحكومة . ولما جاءه النذير بأن بعض القوات المعادية تعد العدة لمهاجمة عاصمته « شيراز » ، قال إنه لسفيه ذلك الرجل الذى يضيع مثل هذا الربيع الجميل فى الحرب . ولكن قائداً متبلد الشعور هو « مبارز الدين محمد بن المظفر » استولى على شيراز وقتل أبا إسحق (١٣٥٢) ، وحرم شرب الخمر وأغلق كل حانة فى المدينة . وفى هذا كتب حافظ مرثية حزينة قال فيها :

« ولو أن الخمر تبعث السرور ، والريح تنشر أريج الورود ،
لا تشربوا الخمر على أنغام القيثارة لأن المحتسب يقظ .
وخبئوا الطاس فى أكمام عباءاتكم المرقعة ،
لأن الزمن يسفك الدماء ، كما ينسكب الخمر من عين الإبريق الدامعة ،
واغسلوا بدموعكم ما تلطخ بالخمر من أرديتكم
لأن هذا موسم الورع وزمن التقشف والتعفف »[٧] .

ولما وجد خليفة ابن المظفر أن تحريم الخمر أمر غير عملى ، أو تبين أن شاربى الخمر أسلس قياداً وأيسر حكماً من المتطهرين المتزمتين ، أعاد فتح أبواب الحانات ، وخلد حافظ اسمه .

وسار شاعرنا على تقاليد الفرس فى نظم كثير من القصائد فى الخمر ، واعتبر فى بعض الأحيان أن زجاجة من الخمر « تسمو على تقبيل العذارى »[٨] . ولكن حتى الكروم تجف وتذوى بعد ألف مقطع من الشعر ، وسرعان ما تبين حافظ أن الحب ، عذرياً كان أو عملياً ، لا يستغنى عنه الشعر .

« هل تعرف ما هو الحظ السعيد ؟ إنه الظفر بنظرة إلى غادة هيفاء ، إنه التماس صدقة منها فى زقاقها ، وازدراء أبهة الملك »[٩].

وبدا له الآن أن الحرية ليست حلوة مثل حلاوة العبودية فى الحب .

« إن عمرنا قصير ، ولكن طالما أننا قد نفوز
بالمجد وهو الحب ، فلا تحتقر
الإصغاء إلى توسلات القلب ،
فإن سر الحياة سوف يبقى فيما وراء العقل .
فاهجر عملك إذن وقبل حبيبتك الآن .
إنى لأمنح العالم كله هذه النصيحة الغالية ،
عندما تتفتح أزهار الربيع ، وتهجر الريح الطاحون
وتنزلق برفق لتقبل الغصن المورق .
أى حسناء شيراز ، امنحينى أمنية الحب ،
ومن أجل شامتك — تلك الحبة من الرمل العالقة
بصفحة خد من اللؤلؤ — سوف يمنحك حافظ
كل بخارى ، وكل سمرقند .
آه لو دخلت مع القدر فى رهان مرة ،
لحاولت برمية واحدة ، مهما كان الثمن ،
لألتقط أنفاسى ، أيها الحب اجمع بيننا ،
فما حاجتى بعد ذلك إلى الجنة .
إن الذى خلق غدائر شعرك من ذهب وفضة ،
وجمع بين الوردة الحمراء والوردة البيضاء
وأسلم إليهما خدك فى شهر العسل
أليس بقادر على أن يمنحنى الصبر ، وأنا ابنه[١٠] » .

ويبدو أنه آخر الأمر ، قد هدأت نفسه بالزواج ، فلو فسرنا قصائده الرقيقة تفسيراً صحيحاً ، فإنه وجد زوجة وأنجب عدة أطفال ، قبل أن يحزم أمره بين النساء والخمر . ويبدو أنه فى بعض أشعاره يرثيها ويتألم لفراقها :

« سيدتى ، يا من حولت بيتى
إلى فردوس حين حللت به ،
من أخمص القدم إلى قمة الرأس كان ثمة ملاك
من عند الله أحاطها بعنايته ، كانت طاهرة ، مبرأة من الإثم ،
جميلة المحيا مثل القمر ، عاقلة ،
وعيناها ذواتى النظرة العطوفة الناعمة
كانتا تشعان فتنة لا حدود لها
ثم حدثنى قلبى : هنا سوف يستقر بى المقام !
فإن هذه المدينة تتنفس بحبها فى كل ركن منها .
ولكنها نقلت إلى عالم بعيد قصى ،
للأسف لم يعرفه قلبى ، وا أسفاه أيها القلب المسكين !
إن نجماً خبيثاً شريراً أعمل أثره
فأرخى قبضة يدى التى كانت تمسك بها ، ووحدها بعيداً
رحلت من كانت تسكن فى صدرى »(١١) .

ومهما يكن من أمر فقد ألف المقام ، وركن إلى العزلة الهادئة ، وقلما ارتحل إلى خارج شيراز ، وقال إنه يترك لقصائده أن تجوب الأرض بدلا من شخصه ، وكم دعى إلى بلاط كثير من الملوك والأمراء . وأقنع لحظة وجيزة بقبول دعوة من السلطان أحمد بالإقامة فى القصر الملكى فى بغداد(١٢) ،

ولكن حبه لشيراز أبقاه حبيساً بها ، وكان يشك فى أن بالجنة نفسها مثل هذه الأنهار الفاتنة أو مثل هذه الورود الحمراء فى شيراز . وكان بين الحين والحين يوجه قصائد المديح إلى أمراء الفرس فى عصره أملا فى عطايا أو جوائز تخفف من ألم الفقر الذى كان يعانى منه ، لأنه لم يكن فى فارس ناشرون لينقلوا نفثات اليراع عبر البحار ، وكان على الفنان (أى الشاعر) أن ينتظر على أبواب النبلاء والملوك . والحق أن شاعرنا « حافظ » كاد أن يرحل يوماً إلى الخارج ، ذلك أن أحد أمراء الهند لم يبعث إليه بالدعوة فحسب ، بل زوده كذلك بالمال اللازم لنفقات الرحلة ، فأقلع حافظ ووصل إلى هرمز على الخليج الفارسى ، وكان على وشك الركوب فى السفينة فهبت عاصفة هوجاء حولته عن عزمه ، وحببت إليه الاستقرار . فعاد أدراجه إلى شيراز ، وبعث إلى الأمير الهندى بقصيدة بدلا من شخصه .

ويضم ديوان حافظ ٦٩٣ قصيدة معظمها غنائية ، وبعضها رباعيات ، وبعضها الآخر شذرات غير واضحة المعنى . وهى أصعب فى ترجمتها من أشعار دانتي ، زاخرة بقواف كثيرة مما يجعل منها فى الإنجليزية شعراً غير مصقول محطم الوزن ، كما تعج بالإشارات والتلميحات المبهمة التى كانت تبهج عقول الناس فى ذاك الزمان ، ولكنها الآن ثقيلة على السمع فى الغناء ، والأفضل أن توضع نثراً فى الغالب :

« كاد الليل أن ينصرم ، حين جذبنى أريج الورود ، فدلفت إلى الحديقة ، مثل العندليب ، أفتش عن بلسم للحمى التى انتابتنى .
وهناك فى الظل تألقت وردة ، وردة حمراء كأنها مصباح محجب ، فحدقت النظر فى محياها ،
إن الوردة فاتنة لمجرد أن وجه محبوبتى فاتن . . . وماذا يكون عبير المروج ، والنسيم الذى يهب فى الحديقة ، إذا لم يكونا

لخد محبوبتى الذى يشبه الخزامى (التيوليب) ؟
وفى ظلمة الليل حاولت أن أطلق قلبى من رباط غدائر شعرك
ولكنى أحسست بلمسات خدك ورشفت رحيق شفتيك ، وضممتك
إلى صدرى . ولفنى شعرك وكأنه لهب . وألصقت شفتى
بشفتيك ، وأسلمت قلبى ونفسى لك كأنهما فدية[١٣] .

وكان حافظ إحدى النفوس الموهوبة الصادية المنهوكة ، التى تستجيب وتتأثر — عن طريق الفن والشعر والمحاكاة والرغبة شبه اللاواعية ، تستجيب وتتأثر بالجمال إلى حد الرغبة فى عبادته ، فترغب بالعينين وبالألفاظ وبأطراف الأنامل ، أن تعبد أى شكل جميل ، سواء كان نحتاً على حجر أو رسماً أو آدمياً أو زهرة ، وتعانى فى صمت مكبوت كلما ألم بها الجمال . ولكن هذه النفوس أيضاً تجد فيما تفاجأ به كل يوم من فتنة أو سمو أو جمال جديد ، بعض المغفرة لقصر عمر الجمال ولسلطان الموت . ولذلك خلط حافظ التجديف بالعبادة ، وانساق فى هرطقة غاضبة حتى فى الوقت الذى كان فيه يثنى على « الواحد الأحد الخالد » وهو المصدر الذى يفيض منه كل جمال على الأرض .

والتمس كثير من الناس أن يضفوا عليه احتراماً ووقاراً ، بتفسير خمره بأنها نشوة روحية ، وحاناته بأنها أديار ، ولهبه بأنها « النار المقدسة » . صحيح أنه أصبح متصوفاً وشيخاً ، وارتدى ملابس الدراويش ، ونظم قصائد صوفية غامضة ، ولكن معبوداته الحقيقية كانت الخمر والنساء والغناء ، وبدأت حركة لمحاكمته بوصفه زنديقاً كافراً ، ولكن أفلت منها بالتوسل بأن قصائد الهرطقة كان يقصد بها أن يعبر عن آراء أحد المسيحيين ، لا عن آرائه هو . ومع ذلك كتب يقول :

« أيها المتحمس ، لا تظن أنك بمنجاة من خطيئة الكبرياء ؛
فليس الفرق بين المسجد وكنيسة الكفار سوى الغرور[١٤] »

والكافر هنا بطبيعة الحال هو المسيحي : وبدا في بعض الأحيان لحافظ أن « الإله » ما هو إلا شيء اختلقته آمال الإنسان :

« وهذا الذي يسوقنا في هذه الأيام التي تمر كوميض البرق ،
هذا الذي نعبده رغم معرفتنا بمن يفنيه أو يذبحه ،
أنه هو نفسه قد يتولاه الحزن والأسى ، لأننا حين نف‍
سيختنق هو أيضاً في هذا اللهيب نفسه »[١٥] .

ولما مات حافظ كانت عقيدته مشكوكاً فيها ، وكان مذهب المتعة عنده لاصقاً به إلى حد الاعتراض على تشييع جنازته في احتفال ديني ، ولكن أصدقاءه أنقذوا الموقف بتفسير أشعاره بالمجاز والاستعارة . وجاء بعد ذلك جيل دفن رفاته في حديقة أطلقوا عليها « الحافظية » تزدان بورود شيراز ، وتحققت نبوءة الشاعر بأن قبره سيكون « مزاراً يحج إليه عشاق الحرية من جميع أنحاء العالم » : وعلى لوح مقبرة حافظ المصنوع من المرمر نقشت إحدى قصائده ، وهي عامرة بالروح الدينية العميقة أخيراً . وفيها :

« أين أنباء الوحــــدة ؟ حتى أنهض
من التراب ، سوف أصحو لأرحب بك !
إن نفسي مثل الطائر الزاجل ، حنيناً منها إلى الجنة ،
سوف تصحو وتتوجع من شرور العالم التي أطلقت من عقالها .
وعند ما يهتف بي صوت حبك لأكون عبداً لك
سوف أصحو إلى ما هو أعظم كثيراً من السيادة
على الحياة والعيش ، والزمن والعمر الفاني .
صب يا إلهي من سحب نعمتك الهادية
شآبيب الرحمة التي تسرع إلى قبري ،

قبل أن أنهض ، مثل التراب الذي تذروه الرياح من مكان إلى مكان ،
إلى ما وراء علم الإنسان .

وعند ما تعرج بقدميك المباركتين إلى قبرى ،
سوف تحضر بيدك الخمر والإغراء إلىّ ،
ولسوف يرن صوتك فى طيات ملاءتى الملفوفة ،
ولسوف أنهض وأرقص على غناء قيثارتك .
ورغم شيخوختى ، ضمنى ليلة إلى صدرك ،
لأنى ، عند ما ينبثق الفجر ليوقظنى ،
بنضارة الشباب فى خدى ، من بين أحضانك سوف أنهض .
انهض ! دع عينى تسرح وتمرح فى نعمتك العظيمة !
أنت الهدف الذى حاول كل الناس الوصول إليه ،
أنت المحبوب الذى يعبده حافظ ، ووجهك
سوف يأمره أن ينبعث من الدنيا ومن الحياة ويصحو(١٦)

٣ — تيمــــور

١٣٣٦ — ١٤٠٥

عرفنا أول ما عرفنا عن التتار أنهم قوم رحل من آسيا الوسطى ، وأنهم أنسباء وأقرباء ، وجيران للمغول ، وشاركوهم فى الحملات على أوربا . ووصف كاتب صينى من القرن الثالث عشر تحدرهم ، وصفاً كثير الشبه بما صور به المؤرخ جوردانيز أمة الهون قبل ذلك بألف سنة ، فالتتار قصار القامة ، كريهو الطلعة والمحيا للغرباء عنهم ، يجهلون القراءة والكتابة ، مهرة فى الحرب ، يسددون سهامهم دون أن تطيش من فوق ظهر جواد مسرع ، ويحافظون على استمرار جنسهم أو عرقهم بالمواظبة على تعـــدد الزوجات . وكانوا فى هجراتهم وحملاتهم ينقلون معهم كل متاعهم وأمراتهم — الزوجات والأولاد والجمال والخيول والغنم والكلاب ، ويرعون الحيوانات

فيما بين المعارك ، ويتغذون بلحومها وألبانها ، ويتخذون الملابس من جلودها . وكانوا يأكلون بنهم وشراهة عند توافر المؤن ، ولكن كانوا يحتملون الجوع والعطش والقيظ والقر ، « بصبر أكثر من أى شعب آخر فى العالم »(١٧) . وكانوا يتسلحون بالسهام المكسوة أطرافها أحياناً بالنفط الملتهب ، وبالمدافع ، وبكل معدات العصور الوسطى للحصار ، ومن ثم كانوا أداة صالحة مستعدة لكل من كان يحلم بتأسيس إمبراطورية منذ كان فى المهد صبياً .

وعند ما مات جنكيز خان (١٢٢٧) وزع ملكه على أبنائه الأربعة . فأعطى جغتاى الإقليم المحيط بسمرقند ، وحدث أن أطلق اسم هذا الابن على قبائل المغول أو التتار التى حكمها . وولد تيمور (أى الحديد) ، فى مدينة « كش Kes h » فى بلاد ما وراء النهر ، لأمير إحدى هذه القبائل . وطبقاً لما رواه كلافيجو Clavijo أدى « سوط الله » الجديد هذه المهمة منذ نعومة أظفاره : فنظم عصابات من صغار اللصوص لسرقة الغنم والماشية من المراعى المجاورة(١٨). وفقد فى إحدى هذه المغامرات أصبعيه الوسطى والسبابة من يده اليمنى ، وفى مغامرة أخرى أصيب بجرح فى عقبه ، ومن ثم عرج بقية أيام حياته(١٩) فلقبه أعداؤه Timur-i-Lang أى تيمور الأعرج ، ولكن الغربيين غير المدققين ، مثل مارلو حرفوا هذا الاسم إلى Tamburlane أو Tamer ane . وقد وجد تيمور فسحة من الوقت لتلقى قليل من التعليم ، وقرأ الشعر ، وعرف الفرق بين المبادئ والانحلال . ولما بلغ سن السادسة عشرة ولاه أبوه زعامة القبيلة . وآوى إلى أحد الأديار ، لأن هذا الرجل العجوز (الوالد) قال عن الدنيا إنها ليست « أفضل من زهرية من الذهب مليئة بالثعابين والعقارب » (*) وقيل إن الوالد نصح ابنه أن يرعى الديانة دوماً ،

(*) هذا ، على أية حال ، منقول من مذكرات تيمور (٥ ، ١) المظنون أنه أملاها فى أعوامه الأخيرة ، ولكن يشك فى صحتها .

واتبع تيمور هذه الوصية إلى حد تحويل الرجال إلى مآذن (تكديس بعضهم فوق بعض للتنكيل بهم) .

وفى سنة ١٣٦١ عين خان المغول « خوجه الياس » حاكماً على بلاد ما وراء النهر ، وعين تيمور مستشاراً له ، ولكن الشاب النشيط لم يكن قد نضج بعد لممارسة فن الحكم ، وتشاجر بعنف مع سائر موظفى خوجه الياس . وأجبر على الهروب من سمرقند إلى الصحراء . . . فجمع حوله عدداً من المحاربين الشبان ، وضم عصبته إلى عصبة أخيه الأمير حسين الذى كان فى مثل ظروفه . وتجولوا من مكمن إلى مكمن ، حتى تحجرت أجسامهم ونفوسهم بسبب الأخطار والتشرد والفقر ، إلى أن واتاهم بعض الحظ حين استخدموا لقمع فتنة فى سيستان Sistan ، وما أن اشتد عود الأخوين حتى أعلنا الحرب على خوجه الياس وخلعاه وذبحاه . وأصبحا حاكمين فى سمرقند على قبائل جغتاى (١٣٦٥) ، وبعد ذلك بخمس سنوات تآمر تيمور على ذبح الأمير حسين ، وأصبح السلطان الوحيد .

وتروى سيرة حياته المشكوك فيها ، عن عام ٧٦٩ هـ (١٣٦٧ م) : « دخلت عامى الثالث والثلاثين ، ولما كنت دوماً قلق البال لا يقر لى قرار ، فقد كنت تواقاً إلى غزو بعض البلاد المجاورة »[٢٠] . وكان يقضى أيام الشتاء فى سمرقند ، وقل أن انقضى ربيع دون أن يخرج فيه إلى حملة جديدة . وقد لقن المدن والقبائل فى بلاد ما وراء النهر أن تتقبل حكمه طواعية أو سلماً لا حرباً . وفتح خراسان وسيستان ، وأخضع المدينتين الغنيتين هراة وكابول ، وأحبط المقاومة والتمرد بما كان ينزل من عقاب وحشى . ولما استسلمت مدينة سبزاوار Sabzawar بعد حصار كلفه كثيراً ، أسر ألفين من رجالها ، « وكدسهم أحياء ، الواحد فوق الآخر ، وضرب عليهم بنطاق من الآجر والطين ، وأقام منهم مئذنة ، حتى إذا استيقن الرجال جبروت غضبه ، لا يعود يغويهم شيطان الصلف والكبرياء » . وهكذا روى القصة مادح

معاصر(٢١) . وغفلت مدينة زيريه Zirih عن هذه الحقيقة وأبدت مقاومة ، فأقام الغازى من رؤس أبنائها عدداً أكبر من المآذن . واجتاح تيمور أذربيجان واستولى على لورستان وتبريز ، وأرسل فنانيهما إلى سمرقند . واستسلمت أصفهان فى ١٣٨٧ وارتضت بقاء حامية من التتار بها ، فلما غادر تيمور المدينة انقض السكان على الحامية وذبحوا رجالها . فعاد تيمور بجيشه وانقض على المدينة وأمر كل فرد فى جيشه أن يأتيه برأس واحد من الفرس . وقيل إن سبعين ألفاً من رءوس الأصفهانيين علقت على أسوار المدينة أو أقيمت منها أبراج تزين الشوارع(٢٢) . فلما سكن روع تيمور وهدأت نفسه خفض الضرائب التى كانت المدينة تدفعها لحاكمها ، ودفعت سائر مدن فارس الفدية دون ضجة .

وتقول أسطورة أطرف من أن تصدق ، إنه فى شيراز فى ١٣٨٧ ، دعا تيمور أشهر مواطنى المدينة إلى المثول بين يديه ، وقرأ عليه غاضباً سطوراً (من الشعر) كانت قد قدمت فيها مدينتا بخارى وسمرقند من أجل الخال فى خد سيدة ، وقيل إن تيمور شكا غاضباً وهو يقول : « إنى بضربات سيفى اللامع الصقيل أخضعت معظم الأرض المعمورة لأزين بخارى ، وسمرقند ، مقر حكومتى ، وأنت أيها التعس الحقير تريد أن تبيعهما من أجل شامة سوداء فى خد سيدة تركية فى شيراز ! » وتؤكد الرواية أن حافظ انحنى أمام الأمير وقال : « وا أسفاه أيها الأمير ، أن هذا التبذير هو سبب البؤس الذى ترانى فيه » . واستساغ تيمور هذا الجواب فأبقى على حياة الشاعر ومنحه هدية سنية . ومما يؤسف له أن أحداً من كتاب سيرة تيمور المتقدمين لم يورد ذكر هذه الحادثة الطريفة(٢٣) .

وعند ما كان تيمور فى جنوبى فارس جاءته الأنباء بأن طقطميش خان القبيلة الذهبية انتهز فرصة غيابه ليغزو بلاد ما وراء النهر ، بل حتى ليعمل السلب والنهب فى المدينة الجميلة بخارى التى قدرها حافظ بنصف خال على

خد سيدة ، فسار تيمور ألف ميل إلى الشمال (تصور مشاكل التموين فى مثل هذه المسيرة) ، ورد طقطميش إلى الفولجا ؛ وسار جنوباً وغرباً ، وأغار على العراق وجورجيا وأرمينية ، وهو يذبح فى طريقه كل السادة الذين دمغهم بأنهم « شيوعيون مضللون »(٢٤) . واستولى فى ١٣٩٣ على بغداد بناء على طلب سكانها الذين لم يعودوا يحتملون جور سلطانهم أحمد بن أويس . ولما رأى تدهور العاصمة أمر معاونيه بإعادة بنائها ، وفى نفس الوقت أضاف إلى حريمه نخبة من الزوجات ، وإلى حاشيته واحداً من أشهر الموسيقيين ، ولجأ السلطان أحمد إلى بايزيد الأول سلطان العثمانيين فى بروسه . وطلب تيمور تسليم السلطان أحمد ، فرد بايزيد بأن هذا أمر يخدش تقاليد الضيافة عند الأتراك .

وكان من الممكن أن يتقدم تيمور إلى بروسه ، لولا أن طقطميش عاود غزو بلاد ما وراء النهر . فاكتسح التترى المهتاج جنوبى روسيا ، وبينما كان طقطميش مختبئاً فى البرية ، اجتاح مدينتى القبيلة الذهبية : سراى واستراخان . ولما لم يجد تيمور أية مقاومة ، تقدم بجيشه غرباً من الفلجا إلى الدون ، وربما كان من خطته أن يضم روسيا كلها إلى مملكته . وأقسام الروس فى البلاد الصلوات فى حرارة وحمية ، وحملت « عذراء فلاديمير » إلى موسكو ، بين صفوف الضارعين الراكعين وهم يصيحون : « يا أم الإله ، خلصى روسيا » . وساعد فقر السهوب على إنقاذها . ولما وجد تيمور أنه لا غناء فى هذه السهول الجرداء ولا شىء فيها يمكن سلبه ، ارتد إلى الدون وقاد جنوده المنهوكين الجياع إلى سمرقند (١٣٩٥ — ١٣٩٦) .

وتجمع كل الروايات على أنه كان فى الهند ثروات تشترى مائة روسيا ، وأعلن تيمور أن حكام المسلمين فى شمال الهند شديدو التسامح مع الهندوس الوثنيين الذين يجب عليهم اعتناق الإسلام أو تحويلهم إليه . وسار تيمور ، وهو فى الثالثة والستين من العمر على رأس جيش قوامه ٩٢,٠٠٠ رجل

(١٣٩٨) . وعلى مقربة من دلهى التقى بجيش سلطانها محمود ، فهزمه ، وذبح مائة ألف (؟) سجين ، ونهب العاصمة ، وجلب معه إلى سمرقند كل ما استطاعت جنوده ودوابه أن تحمل من ثروات الهند الأسطورية :

وفى ١٣٩٩ ، ولم تكن قد محيت من ذاكرته قصـــة أحمد وبايزيد الأول ، تقدم مرة ثانية ، وعبر فارس إلى أذربيجان ، وخلع ابنه المبذر المضيع الذى كان حاكماً عليها ، وشنق الشعراء والوزراء الذين كانوا قد أغروا الشاب بالانغماس فى اللهو ، واجتاح جورجيا . ولما دخل آسيا الصغرى حاصر سيواس ، واغتاظ لطول مقاومتها ، فدفن أربعة آلاف جندى مسيحى أحياء — أو أن مثل هذه القصص من دعاية الحرب ؟ ورغبة منه فى حماية جناح جيشه عند مهاجمة العثمانيين ، أرسل رسولا إلى مصر مقترحاً ميثاق عدم اعتداء ، ولكن سلطان المماليك أودع الرسول السجن ، واستأجر سفاحاً لقتل تيمور . وباء المشروع بالإخفاق . وبعد إخضاع حمص وحلب وبعلبك ودمشق ، سار التترى إلى بغداد التى طردت كل الموظفين الذين عينهم هو . واستولى عليها بثمن باهظ ، وأمر جنوده البالغ عددهم عشرين ألفاً بأن يحضر إليه كل منهم رأس واحد من الأهالى ، وتم له ما أراد — أو هكذا قيل : أغنياء وفقراء ، رجالا ونساء ، شيباً وشباناً ، فكلهم دفعوا ضريبة الرأس هذه ، وكدست رءوسهم على شكل أهرام مروعة أمام أبواب المدينة (١٤٠١) . وأبقى الغزاة على مساجد المسلمين وعلى أديار الرهبان والراهبات ، وسلبوا ودمروا ما عداها تدميراً تاماً ، حتى العاصمة التى كانت يوماً مدينة زاهرة باهرة لم تعد سيرتها الأولى إلا فى أيامنا هذه بفضل زيت البترول .

وإذ أيقن آنذاك تيمور أنه يمكنه أن يطمئن على ملكه عن اليمين وعن الشمال ، أرسل إلى بايزيد إنذاراً نهائياً للتسليم . ولكن سلطان الأتراك الذى زادت ثقته بنفسه بفضل انتصاره فى معركة نيقوبوليس ١٣٩٦ ،

أجاب بأنه سوف يسحق جيش التتار ويتخذ من زوجة تيمور الأثيرة جارية له[٢٥] والتحم أقدر قائدين فى زمانهما فى أنقرة ١٤٠١، وأرغمت استراتيجية تيمور أعداءه الأتراك على القتال بعد أن أرهقهم وأنهك قواهم طول السير . وهزم الأتراك هزيمة منكرة وأخذ بايزيد أسيراً . وابتهجت القسطنطينية ، وظل العالم المسيحى بمنجاة من الأتراك لمدة نصف قرن بفضل التتار . وواصل تيمور سيره فى اتجاه أوربا إلى بروسه وأحرقها ، وحمل معه من المدينة المكتبة البيزنطية والأبواب الفضية . وتقدم نحو البحر المتوسط ، وانتزع أزمير من أيدى فرسان رودس ، وذبح السكان ، وأقام فى إفسوس . وارتعد العالم المسيحى فرقاً مرة أخرى ، وقدمت جنوه التى كانت لا تزال تحتفظ بخيوس وفوشيا وميتلين خضوعها ودفعت الجزية . وأفرج سلطان مصر عن رسول ملك التتار ، وانخرط فى الزمرة الممتازة ، زمرة التابعين الخاضعين لسلطان تيمور . وعاد تيمور أدراجه إلى سمرقند ، وهو أقوى حكام عصره ، حيث امتد ملكه من أواسط آسيا إلى النيل ومن البسفور إلى الهند . وبعث إليه هنرى الرابع ملك إنجلترا بالتهنئة ، كما أوفدت إليه فرنسا أسقفاً يحمل الهدايا . وأوفد إليه هنرى الثالث ملك قشتالة بعثة شهيرة برياسة روى جونزاليز كلافيجو .

وإنا لمدينون لمذكرات كلافيجو بمعظم ما نعلمه عن بلاط تيمور . فقد غادر قادس فى ١٣ مايو ١٤٠٣ ، ومر بالقسطنطينية وطرابزون وأرضروم ، وتبريز وطهران (التى وردت الآن لأول مرة على لسان أحد الأوربيين) ونيسابور ، ومشهد ، حتى وصل سمرقند فى ٣١ أغسطس ١٤٠٤ . وكان قد توقع لسبب ما ، أن هناك قوماً من السفاكين الكريهى الطلعة . وما كان أشد دهشته لكبر عاصمة تيمور وازدهارها ، وفخامة المساجد والقصور ، وسلوك ساداتها وعاداتهم الحميدة ، وثراء البلاط وترفه ، واحتشاد للفنانين والشعراء حول تيمور احتفاء به وتكريماً له .

وكانت المدينة آنذاك قد مضى على بنائها أكثر من ألفى عام ، وكانت تضم نحو مائة وخمسين ألف نسمة مع « مجموعة من أعظم الدور وأجملها » ، مع كثير من القصور « التى تظللها الأشجار » ، بهذا كله رجح كلافيجو أن سمرقند « أكبر من أشبيلية » ، هذا بخلاف الضواحى المترامية . وكان الماء يرفع إلى البيوت من نهر يجرى بالقرب من المدينة ، وكست مياه الرى المنطقة الخلفية بالخضرة . وتضوع الهواء بعبير البساتين والكروم . وتوافرت المراعى للأغنام والماشية ، ونمت المحاصيل الكثيرة . وكان فى المدينة مصانع للمدافع والدروع والأقواس والسهام والزجاج والخزف ، والمنسوجات المتناهية فى اللمعان بما فيها « القرمزى » وهو الصباغة الحمراء ، ومنه اشتقت اللفظة الإنجليزية Crimson . وكانت المدينة تضم التتار والأتراك والعرب والفرس والعراقيين والأفغانيين والكرجيين واليونان والأرمن والكاثوليك والنساطرة والهندوس ، ممن يعملون فى الحوانيت أو فى الحقول ، ويسكنون فى بيوت من الطوب أو من الطين أو الخشب ، أو يسرحون ويمرحون فى المدينة على ضفة النهر ، كل يمارس شعائره الدينية فى حرية تامة ، ويدعو لعقيدته المتعارضة مع سائر العقائد . وكانت تحف على جوانب الشوارع الرئيسية الأشجار والحوانيت والمساجد والمدارس والمكتبات ، وكان هناك مرصد ، وكان ثمة جادة رئيسية عريضة تقطع ، فى خط مستقيم ، المدينة من أحد طرفيها إلى الطرف الآخر ، وكان القطاع الرئيسى من هذا الطريق العام مغطى بالزجاج[٢٦] .

وفى ٨ سبتمبر استقبل إمبراطور التتار كلافيجو ، الذى مر بساحة فسيحة « نصبت فيها خيام كثيرة من الحرير » ، وسرادقات مطرزة بالحرير ، وكانت الخيمة هى المسكن المألوف لدى التتار ، وكان لتيمور نفسه فى هذه الساحة خيمة يبلغ محيطها ٣٠٠ قدم ، كما كان هناك أيضاً قصور ذوات أرضية من الرخام أو القرميد ، مزودة بأثاث متين مرصع بالأحجار

الكريمة ، وكله مصنوع أحياناً من الفضة أو الذهب . ووجد كلافيجو ملك التتار جالساً القرفصاء على وسائد من الحرير « تحت مدخل أجمل قصر » قبالة نافورة يندفع منها عامود من الماء الذى انصب فى حوض يتحرك فيه التفاح بلا انقطاع . وكان تيمور يرتدى عباءة من الحرير ويلبس قبعة عالية واسعة مرصعة بالياقوت واللآلىء . وكان هذا العاهل طويل القامة نشيطاً يقظاً ، أما الآن وهو فى سن الثامنة والستين ، فقد كان منحنياً ضعيفاً متوجعاً ، وكاد أن يكون كفيفاً . وكان يستطيع بشق النفس أن يرفع جفنيه ليرى السفير .

وحصل تيمور من الثقافة على ما يمكن أن يحتمله رجل عمل ، فقرأ التاريخ ؛ وجمع الفن والفنانين ، وصادق الشعراء والعلماء ، واستطاع عند الاقتضاء أن يتحلى بأجمل العادات . واستوى غروره مع قدرته ، مما لم يتفوق فيه أحد عليه فى زمانه . وقدر تيمور على العكس من قيصر ، أن القسوة جزء ضرورى من الاستراتيجية ، ولكنه ، إذا صدقنا ضحاياه ، غالباً ما يبدو آثماً متهماً بالقسوة لمجرد الانتقام . فإنه حتى فى إدارته المدنية كان يسرف فى الحكم بالإعدام ، حتى على محافظ اتبع سياسة الظلم فى المدينة ، أو على جزار تقاضى للحم ثمناً أكثر مما ينبغى[٢٧] . إنه نفذ سياسة القسوة والعنف بوصفها ضرورية لحكم شعب لم يألف القانون بعد . وبرر مذابحه على أنها وسيلة لإرغام القبائل المخالفة للقانون والنظام على اتبـــاع النظام ومتطلبات الأمن فى دولة موحدة قوية . ولكنه مثل سائر الغزاة والفاتحين أحب القوة لذاتها ، وأحب الغنائم والأسلاب من أجل العظمة التى يمكن أن تغطى الغنائم تكاليفها .

وفى ١٤٠٥ شرع فى فتح منغوليا والصين ، يراوده حلم إنشاء دولة تضم نصف العالم ، وتربط بين البحر المتوسط وبحر الصين . وكان جيشه يتألف من مائتى ألف من الرجال الأشداء . ولكنه قضى نحبه فى أتار

على الحدود الشمالية من مملكته ، وكانت آخر أوامره أن يتابع جيشه Ottar سيره ، ولبرهة بسيطة تقدم جواده الأشهب المسرج ، دون أن يمتطيه صاحبه ، وهو يسير الهوينا فى خطى متزنة — تقدم الحشد . ولكن جنوده كانوا على يقين من أن عقل قائدهم وإرادته كانتا تشكلان نصف فوتهم . فعادوا على عجل إلى أوطانهم وهم فى حداد على موت القائد ، وقد كتب لم الخلاص من هذه المهمة . وشيد له بنوه فى سمرقند مقبرة فخمة هى « مقبرة الأمير » ، وهى عبارة عن برج تعلوه قبة ضخمة بصلية الشكل ، مكسوة واجهتها بالآجر ذى الطـــلاء الأزرق الجميل الفيروزى المائل للخضرة .

وتحطمت إمبراطورية تيمور بموته ، وكادت الأقاليم الغربية أن تنهار فى الحال . وكان لزاماً أن يقنع أولاده بالشرق الأوسط . وكان أعقل أفراد أسرة تيمور هو شاه رخ الذى رخص لابنه أولوج فى أن يحكم بلاد ما وراء النهر من سمرقند ، على حين حكم الوالد نفسه خراسان من هراة ، وتحت حكم خليفتى تيمور هذين أصبحت العاصمتان مركزين متنافسين على ازدهار التتار وثقافتهم ، ازدهاراً وثقافة تعدلان أياً من مثيلاتهما فى أوربا فى ذات العصر (١٤٠٥ — ١٤٤٩) . وكان شاه رخ قائداً قديراً يحب السلام ، وقد شجع الفنون والآداب ، وأسس فى هراة مكتبه ذائعة الصيت . وقال أحد أمراء أسرة تيمور « إن هراة هى جنة الدنيا »[٢٨] . أما أولوح بك فقد رعى رجال العلم ، وشيد فى سمرقند أعظم مرصد فى ذاك العصر . وقال أحد كتاب السير المنمقين من المسلمين :

« كان عالماً ، عادلا ، بارعاً ، نشيطاً ، على درجة كبيرة من المعرفة بعلم الفلك ، على حين أنه فى علوم البلاغة كان شديد التدقيق . وسمت مكانة رجال العلم فى عصره إل ذروتها . وفى الهندسة فسر أدق المسائل . أما فى علم الظواهر الكونيـــة

(الكوزموجرافيا) فقد شرح كتاب بطلمبوس . ولم يجلس على العرش ملك مثله قط حتى اليوم . و سجل ملاحظات عن النجوم بالتعاون مع العلماء الأولين . وأسس فى سمرقند كلية لا يمكن أن يوجد لها فى الأقاليم المتاخمة السبعة مثيل من حيث جمالها ومكانتها وقيمتها »(٢٩) .

ولكن هذا النموذج الفريد للرعاية قتل فى ١٤٤٩ بيد ابن غير شرعى له . واستمرت هذه الثقافة العالية التى تميزت بها أسرة تيمور على عهد السلطان « أبو سعيد » والسلطان « حسين بن بيقره » فى هراة حتى نهاية القرن الخامس عشر . وفى ١٥٠١ استولى مغول الأوزبك على سمرقند وبخارى ، وفى ١٥١٠ انتزع الشاه الصفوى هراة وبابور ، وفر آخر حكام أسرة تيمور إلى الهند وأسس هناك أسرة مغولية جعلت من دلهى الإسلامية عاصمة رائعة فى مثل روعة رومه على عهد أسرة مديتشى .

٤ — المماليك

١٣٤٠ — ١٥١٧

بينما كان الإسلام فى آسيا يعانى الغزو المتكرر والثورات ، استغل سلاطين المماليك (١٢٥٠ — ١٥١٧) مصر التى سادها استقرار نسبى إذ ذاك . وقضى الموت الأسود على ازدهار البلاد لفترة من الزمن ، ولكن فى أثناء هذه القلبات استمر المماليك يوفقون بين الإدارة القادرة والمصالح الفنية من جهة والاختلاسات والفظائع من جهة أخرى . ومهما يكن من أمر ، فإنه فى ١٣٨١ بدأت بالسلطان الملك الناصر بن برقوق أسرة المماليك البرجية التى ساد عهدها الترف والدسائس والعنف والانحلال الاجتماعى ، وخفضوا قيمة النقد ، حتى على غير عادة الحكومات ، وفرضوا الضرائب الباهظة على ضروريات المعيشة ، وأساءوا استغلال احتكار الدولة

للسكر والفلفل . وفرضوا فى الإسكندرية رسوماً باهظة على تجارة أوربا مع الهند ، مما دعا تجار الغرب إلى البحث عن طريق إلى الهند حول أفريقية . وخسرت مصر على مدى جيل بعد رحلة فاسكوداجاما (١٤٩٨) كثيراً من نصيبها الذى كان يوماً هائلا ، من التجارة بين الشرق والغرب ، وأوقعت هذه الكارثة الاقتصادية البلاد فى حالة من الفقر المدقع إلى درجة أن السلطان سليم الأول لم يلق إلا مقاومة ضعيفة ، حين أنهى حكم المماليك ، وجعل من مصر ولاية عثمانية .

وظلت القاهرة من ١٢٥٨ حتى ١٤٥٣ أجل وأزهى مدن العالم الإسلامى وأكثرها ازدحاماً بالسكان . ووصفها ابن بطوطة وصفاً رائعاً فى ١٣٢٦ ، وقال عنها ابن خلدون الذى زارها ١٣٨٣ إنها « عاصمة الكون ، جنة الدنيا ، مكتظة بجميع أجناس البشر ، عرش الملكية ، مدينة ازدانت بالقصور والدور الفخمة والرهبنات والأديار والكليات ، مضيئة بنجوم العلم والمعرفة ، جنة يرويها النيل حتى ليبدو أن الأرض تقدم ثمارها إلى الناس على سبيل الهدية والتحية »[٣٠] — وربما كان الفلاحون المنهوكون يعترضون على هذا .

وعكست مساجد مصر فى ذاك العصر قساوة الحكم أكثر مما عكست ألوان السماء . فلم يكن هنا إيوانات أو بوابات من الطوب المصقول أو القرميد الملون ، كما كان الحال فى آسيا الإسلامية ، بل كانت هناك جدران حجرية ضخمة جعلت من المسجد قلعة أكثر منه بيتاً للعبادة . وكان مسجد السلطان حسن (١٣٥٦ — ١٣٦٣) عجيبة عصره ، ولا يزال أفخم آثار الفن المملوكى . وذهب المقريزى المؤرخ إلى أنه « فاق كل ما بنى من مساجد[٣١] » ولكنه كان قاهرياً محباً لوطنه . وتروى أسطورة غير مؤكدة كيف أن السلطان جمع مشاهير المهندسين من بلاد كثيرة ، وطلب إليهم أن يذكروا له أعلى صرح على البسيطة ، وأمرهم بأن يشيدوا صرحاً أعلى منه ، فذكروا له قصر خسرو الأول فى مدينة طيسفون (مدينة بابلية على نهر دجلة) الذى يرتفع الجزء الباقى من مدخله ١٠٥ من الأقدام فوق سطح الأرض . فبنى العمال

جدران المسجد الجديد ، بعد أن سرقوا حجارة الأهرام المتهدمة ، على ارتفاع مائة قدم ، وزادوا فوقها إفريزاً (كورنيش) بارتفاع ١٣ قدماً وشيدوا فى أحد الأركان مئذنة بارتفاع ٢٨٠ قدماً . وإن هذا المبنى الشاهق ليترك انطباعاً فى نفوس الغربيين ، ولكنه قل أن يسر الناظرين منهم . ومهما يكن من شيء فإن أهل القاهرة كانوا فخورين به ، إلى حد أنهم ابتدعوا أو استعاروا خرافة تقول بأن السلطان قطع يد المهندس حتى لا يصمم تحفة رائعة تضارع هذه ، وكأن المهندس يصمم بيده ! وكانت مساجد المقابر أكثر فتنة وجذباً للأنظار ، رغم الغرض الذى بنيت من أجله ، وقد بناها سلاطين المماليك خارج أسوار القاهرة لتضم رفاتهم . من ذلك أن السلطان الظاهر برقوق الذى بدأ حياته عبداً شركسياً ، انتهى أمره فى مجد صامت ، راقداً فى مقبرة من أفخم هذه المقابر .

وكان قايتباى أعظم البناة بين المماليك البرجية ، فالبرغم من أن الحرب مع الأتراك أنهكته ، فقد دبر الأموال لتشييد المبانى النفيسة فى مكة والمدينة والقدس ، وجدد فى القاهرة قلعة صلاح الدين والجامع الأزهر ، وشيد نزلا مشهوراً بزخارفه العربية المصنوعة من الحجر ، وبنى داخل العاصمة مسجداً ذا زخارف منسقة . وتوج قايتباى أعماله فى أخريات أيامه ، بمسجد تذكارى من الجرانيت والرخام ، ذى زخرفة رائعة ومئذنة عالية ذات شرفات : وقبة مزينة بنقوش هندسية ، مما جعل هذا المسجد مأثرة من المآثر الأقل قيمة للفن الإسلامى .

وانتشرت الفنون الصغيرة فى عهد المماليك . وصنع النقاشون على العاج والعظام والخشب ألفاً من المنتجات الجميلة ، من صناديق الأقلام إلى المنابر ، وهى منتجات كان يتخيلها الذوق ، ويقوم على تنفيذها العمل المتواصل والمهارة . وحسبك فى هذا أن تلقى نظرة على منبر مسجد قايتباى خارج أسوار المدينة فى متحف فكتوريا وألبرت . وبلغ التطعيم بالذهب والفضة

ذروته أيام هذه الأسرات الدموية . أما مصانع الخزف المصرى التى كانت قد ابتدعت ألفاً من البدع والأشياء الغريبة فى آلاف السنين للسحيقة فى القدم ، فإنها أخرجت الآن للعالم الزجاج المطلى بالمينا ومصابيح المساجد والكؤوس والزهريات المزدانة بالطيور أو الزخرفة التشكيلية من المينا الملونة ، والمرصعة بالذهب أحياناً . وبمثل هذه الطرق وبكثير غيرها لا يحصيها العد ، خلع الفنانون المسلمون على الجمال شكلا خالداً ، وبذلك عوضوا عن وحشية ملوكهم أو كفروا عنها .

٥ — العثمانيون

١٢٨٨ — ١٥١٧

يبدأ التاريخ بعد اختفاء الأصول . فلا أحد يعرف أين نشأ الأتراك . « فذهب بعض الناس إلى أنهم كانوا قبيلة فنلندية أوجرية Finno-Ugric (شعب أسيوى شرقى الأورال) من الهون ، وأن اسمهم يعنى « خوذة » وهى فى إحدى اللهجات التركية Durko . وقد شكلوا لغاتهم من اللغتين المغولية والصينية ، وأدخلوا بعد ذلك ألفاظاً فارسية أو عربية ، وهــذه اللهجات التركية هى الوسيلة الوحيدة لتصنيف المتكلمين منهم بوصفهم أتراكاً . واتخذت واحدة من هذه العشائر اسمها من اسم زعيمها سلجوق . ونمت بالنصر تلو النصر ، وتكاثرت سلالتها ، وحكموا فى القرن الثالث عشر فارس والعراق وسوريا وآسيا الصغرى وفرت عشيرة أخرى من أقرباء العشيرة الأولى ، بقيادة زعيمها طغرل ، أر، من خراسان فى نفس القرن ، حتى لا يكتسحها طوفان المغول . واستخدمها سلجوق أمير قونيه بآسيا الصغرى ، فى الأعمال الحربية ، وأقطعها جزءاً من الأرض لرعى ماشيتها .

وفى ١٢٨٨ (؟) مات أرطغرل ، فاختير ابنه عثمان ، وهو إذ ذاك فى الثلاثين من عمره ، ليخلف أباه ، ومنه اشتق اسم « العثمانيين » . ولم

يطلقوا على أنفسهم اسم الأتراك قبل القرن التاسع عشر ، بل أطلقوه على الشعوب شبه الهمجية فى تركستان وخراسان . وفى ١٢٩٠ رأى عثمان أن السلجوقيين أضعف من أن يقفوا فى طريقه ، فأعلن نفسه أميراً مستقلا على ولاية صغيرة فى الشمال الغربى من آسيا الصغرى ، وفى ١٢٩٩ تقدم بقواته غرباً إلى ينى شير . ولم يكن عثمان قائداً عظيماً ، ولكنه كان مثابراً صبوراً ، وكان جيشه صغيراً ، ولكنه مكون من رجال ألفوا فى ديارهم ركوب الخيل أكثر مما ألفوا السير على الأقدام ، رجال آرادوا أن يغامروا بحياتهم الشاقة من أجل الأرض أو الذهب أو النساء أو السلطان ، وكانت تقع بينهم وبين بحر مرمرة مدن بيزنطية ناعسة سيئة الحكم هزيلة الدفاع . فحاصر عثمان واحدة منها وهى بروسه ، وأخفق أول الأمر فى الاستيلاء عليها ، ولكنه عاود الكرة بعد الكرة ، حتى استسلمت المدينة أخيراً لابنه أورخان ، فى الوقت الذى كان يرقد فيه عثمان على فراش الموت فى ينى شير (١٣٢٦) :

واتخذ أورخان من بروسه ، التى تقدست برفات أبيه ، عاصمة جديدة للعثمانيين . وساقته الرغبة فى المزيد من السلطان إلى البحر المتوسط ، المركز العتيق للتجارة والثروة والمدنية . وفى نفس العام الذى سقطت فيه بروسه ، انتزع نيقوميديا التى صارت فيما بعد أزميد ، وفى ١٣٣٠ استولى على نيقيه التى أصبحت أزنيق ، وفى ١٣٣٦ استولى على برجاموم التى أصبحت برجامه . وكانت تلك المدن العريقة فى القدم والتى تفوح منها رائحة التاريخ ، مراكز للحرف والتجارة ، وقد اعتمدت فى المواد الغذائية والأسواق اللازمة لها على الجماعات الزراعية المحيطة بها والتى كان العثمانيون قد استولوا عليها فى ذالك الحين ، وكان على هذه المدن أن تعيش على هذه البقاع الداخلية أو أن تموت جوعاً . فلم تقاوم طويلا ، لأنها كانت قد عانت من ظلم حكامها البيزنطيين ، كما سمعت بأن أورخان لم يثقل الكواهل بالضرائب ، وأنه رخص فى حرية العقيدة — وكان كثير من هؤلاء المسيحيين فى الشرق الأدنى هراطقة مرهقين :

نساطرة أو من القائلين بأن للمسيح طبيعة واحدة . وسرعان ما ارتضى العقيدة الإسلامية جزء كبير من الأراضى المفتوحة ، وهكذا تحل الحرب المشاكل اللاهوتية ، على حين كانت هذه المشاكل قبل الحرب تقف عاجزة محيرة . ومذ وسع أورخان ملكه على هذا الشكل ، فقد اتخذ لنفسه لقب سلطان العثمانيين . وعقد أباطرة بيزنطة أواصر السلام معه ، واستأجروا جنوده ، وسمحوا لابنه سليمان فى بناء معاقل على أرض أوربا . وقضى أورخان نحبه وهو فى الواحدة والسبعين من عمره ، بعد أن خلد ذكراه بين جوانح شعبه .

وكون خلفاؤه من بعده أسرة قل أن يوجد لها فى التاريخ مثيل ، فى هذا المزيج من القوة الحربية والمهارة والمقدرة الإدارية والقسوة الوحشية ، والإخلاص الرفيع للآداب والعلوم والفنون . وكان مراد الأول أقل أفراد هذه الأسرة جاذبية ، ولما كان أمياً فإنه كان يبصم بأصابعه المغموسة فى المداد على الوثائق ، على غرار القتلة المغمورين . ولما قاد ابنه صاوندجى ثورة إجرامية فاشلة ضده ، فقأ مراد عينيه وقطع رأسه ، وأرغم آباء الثوار على قطع رءوس أبنائهم(٣٢) . ودرب مراد جيشاً لا يكاد يقهر ، وفتح معظم أراضى البلقان ، ويسر خضوعهم له بأن أقام لهم حكومة أقدر من تلك التى عرفوها على عهد السيطرة المسيحية .

وورث بايزيد الأول عرش أبيه فى ميدان القتال فى قوصوه (١٣٨٩) . ذلك أنه بعد أن قاد الجيش إلى النصر أمر بإعدام أخيه يعقوب الذى كان قد قاتل ببسالة فى ذاك اليوم العصيب . وأصبح قتل الإخوة على هذا النحو قاعدة منتظمة عند سلاطين آل عثمان بعد الجلوس على العرش ، طبقاً للمبدأ القائل بأن التمرد على الحكومة يؤدى إلى التمزق ، إلى حد أنه يجدر التخلص فى أول فرصة ممكنة ممن يحتمل أن يطالبوا بالعرش . وأحرز بايزيد لقب

« بلدرم أى الصاعقة » ، لسرعته فى خططه الحربية ، ولكن أعوزه فن الحكم الذى تميز به أبوه ، وأضاع بعض طاقته الجبارة فى المغامرات النسائية ، وقدم ستيفن لازارفتش ، حاكم الصرب من قبل السلطان ، أخته لتنضم إلى حريم السلطان ، وأصبحت هذه السيدة دسبوانا زوجته الأثيرة لديه ، وغرست فيه الولع بشرب الخمر وإقامة المآدب السخية ، وربما أضعفت عن غير عمد حيويته كرجل . وتألق غروره وكبرياؤه حتى سقوطه . وبعد أن هزم بايزيد فرسان أوربا فى نيقوبوليس ، أطلق سراح كونت نفرز Nevers مع دعوة ممتازة للمبارزة ، رواها أو عدل فيها فروسار Froissor ، قال :

« أى جون ، إنى أعلم جيداً أنك سيد عظيم فى بلدك ، وأنك ابن سيد عظيم . أنت شاب يافع ، وربما تلاقى بعض اللوم أو العار لأنك وقعت فى هذه المغامرة فى بداية عهدك بالفروسية ، وأنك تخلصاً من اللوم وإنقاذاً لشرفك ، ربما تحشد قوة من الرجال لمحاربتى ؛ ولو ساورنى الشك أو الخوف قبل رحيلك ، لأجبرتك على أن تقسم بشريعتك وعقيدتك ، أنك لا أنت ولا أحد من زمرتك ، سوف تشهر السلاح ضدى ولكنى لن ألزمك أو ألزم أحداً من أتباعك بمثل هذا القسم أو الوعد . ولكنى سأفعل ذلك عندما تعود إلى وطنك وإلى مسراتك ، لتجمع من القوة ما تشاء ، ولا تدخر وسعاً ، واخرج إلى قتالى ، ولسوف تجدنى دوماً على أهبة الاستعداد لاستقبالك واستقبال عصبتك . . . وأطلع من تشاء على هذا الذى أقول لك ، فإنى قادر على القتال ، ومستعد على الدوام للتوغل فى العالم المسيحى »(٣٣) .

ولما أسر تيمورلنك السلطان بايزيد عامله بكل إجلال واحترام ؛

على الرغم من الرسائل المهينة التى كانا قد تبادلاها على مدى عام ، وأمر تيمور بفك أغلال السلطان وأجلسه إلى جانبه ، وأكد له أنه سيبقى على حياته ، وأصدر تعليماته بأن تنصب ثلاث خيام فخمة لحاشيته ، ولكن عندما حاول بايزيد الهرب ، احتجز فى غرفة ذات نوافذ مسدودة بالحواجز ، وقد بالغت الأساطير فقالت إنها قفص من حديد . ومرض بايزيد ، فدعا تيمورلنك أحسن الأطباء لمعالجته ، وأرسل السيادة دسبوانا لتسهر على رعايته ومواساته . ولم تجد هذه المساعدات شيئاً لبعث القوى الحيوية فى السلطان المحطم ، ومات بايزيد بعد عام من هزيمته .

وأعاد ابنه محمد الأول تنظيم حكومة العثمانيين وقوتهم ، وعلى الرغم من أنه فقأ عينى أحد المطالبين بالعرش وقتل آخر ، فإنه اكتسب لقب السيد المهذب ، بفضل سلوكه الكيس اللطيف وحكمه العادل ، وسنوات السلم العشر التى منحها للعالم المسيحى . وكان لمراد الثانى مثل هذه المشارب ، فآثر الشعر على الحرب ، ولكن عندما نصبت القسطنطينية مزاحماً له ليخلعه ، ونقضت المجر عهد السلم ، أثبت مراد الثانى فى وارنه (١٤٤٤) أنه قائد كأحسن ما يكون القواد ، ثم عاد إلى مغنيسيا فى آسيا الصغرى ، حيث عقد مرتين فى كل أسبوع اجتماعاً للشعراء والعلماء ، وقرأ الشعر وتحدث فى العلوم والفلسفة . واقتضت ثورة فى أدرنه عودته إلى أوربا ، فأخمدها ، وقهر هونياد فى قوصوه . وعنـــدما مات فى ١٤٥١ ، بعد أن قضى فى الحكم ثلاثين عاماً ، وضعه المؤرخون المسيحيون فى مصاف أعظم حكام عصره ، وقد أمر فى وصيته بأن يدفن فى بروسه فى مصلى متواضع غير مسقوف ، « حتى تنزل عليه رحمة الله وبركاته مع شروق الشمس والقمر ، وسقوط المطر والندى على جدثه »[٣٤] .

وتساوى محمد الثانى مع أبيه فى الثقافة والفتوحات والفطنة السياسية وطول الحكم ، وليس فى العدل ولا فى النبل . فنقض المعاهدات الوثيقة ،

ولطخ انتصاراته بالمذابح غير الضرورية . وكان يتسم فى مفاوضاته واستراتيجيته بدهاء الشرق . وسئل يوماً عن خططه فأجاب : « لو أن شعرة من لحيتى عرفت لانتزعتها »(٣٥) . وتحدث السلطان بخمس لغات ، وكان واسع الاطلاع فى عديد من الآداب ، بارعا فى الرياضيات والهندسة ورعى الفنون ، وأجرى معاشات على ثلاثين شاعراً عثمانياً ، وبعث بالهدايا الملكية إلى شعراء فى فارس والهند . وجاء بعده فى المرتبة الثانية كنصير للأدب والفن وزيره الأكبر محمود باشا ، فأعان هو وسيده كثيراً من الكليات والمؤسسات الدينية ، حتى أطلق على السلطان « أبو الأعمال الخيرية » . وكان محمد أيضاً « أبا الانتصارات » ، فقد خرت القسطنطينية له ولمدافعه ، وبفضل مدافعه أصبح البحر الأسود بحيرة عثمانية ، وأمام جيوشه ودبلوماسيته وقعت دول البلقان فى أسر العبودية . ولكن هذا الفاتح الذى لا يقاوم ، لم يتغلب على نفسه أو يكبح جماحها : فما أن بلغ الخمسين حتى كان قد أنهك قواه بكل ألوان الإفراط الجنسى ، ولم تجد العقاقير نفعاً فى تجديد حيويته ، حتى أدرجه حريمه آخر الأمر فى عداد الأغوات . وقضى نحبه فى سن الواحدة والخمسين فى اللحظة التى بدا فيها أن جيشه على وشك غزو إيطاليا وضمها إلى العالم الإسلامى .

وأدى النزاع بين أبنائه إلى تولى بايزيد الثانى العرش . ولم يكن بالسلطان الجديد نزوع إلى الحرب ، ولكن عندما استولت البندقية على قبرص وتحدت سيطرة الأتراك على شرقى البحر المتوسط ، أفاق السلطان وضلل مخادعيه بميثاق للسلام ، حتى بنى أسطولا من ٢٧٠ سفينة ودمر أسطول البندقية بعيداً عن شواطئ اليونان . وأغار جيش تركى على شمال إيطاليا حتى وصل غرباً إلى فيشنزا (١٥٠٢) . فتوسلت البندقية لعقد الصلح ومنحها بايزيد شروطاً سخية ، ثم ركن إلى الشعر والفلسفة من

جديد . وخلعه ابنه سليم وجلس على العرش (١٥١٢) ولم يلبث بايزيد أن مات ، وقيل إنه مات مسموماً .

إن التاريخ ، من بعض الوجوه ، ليس إلا تعاقباً لموضوعات متعارضة ؛ فإن الطباع والأشكال السائدة فى عصر ينكرها ويبرأ منها العصر الذى يليه ، والذى يضيق ذرعاً بالتقاليد ، ويتحرق لهفاً إلى التجديد : فالكلاسيكية تنجب الرومانتيكية ، وهذه تلد الواقعية ، وهذه تأتى بالتأثرية ، كما تدعو فترة الحرب إلى عقد (عشر سنوات) من السلم كما أن السلم الذى يطول أمده يدعو إلى الحرب العدوانية . فقد ازدرى سليم الأول بسياسة السلم التى انتهجها والده . وكان سليم قوى الجسم قوى الإرادة ، عزوفاً عن المسرات وأسباب المتعة ، ولوعا بالصيد والقنص وحياة المعسكر ، واستحق لقب « العبوس » لأنه شنق تسعة من ذوى قرباه منعاً لأية فتنة أو تمرد ، وشن الحرب تلو الحرب من أجل الفتح والغزو . ولم تزعجه إغارة اسماعيل الصفوى شاه فارس على الحدود التركية . فقطع سليم على نفسه عهداً بأن يشيد ثلاثة مساجد ضخمة فى القدس ، وبودا وروما ، إذا من الله عليه بالنصر على الفرس[٣٦] . وإذ أثار النعرة الدينية فى شعبه إلى حد القتال . فإنه تقدم نحو اسماعيل ، واستولى على تبريز ، وجعل من شمالى أرض الجزيرة ولاية عثمانية . وفى ١٥١٥ حول مدافعه ورجاله الانكشارية إلى المماليك ، وضم سوريا وبلاد العرب ومصر إلى مملكته (١٥١٧) ، وحمل من القاهرة إلى القسطنطينية أسيراً مكرماً هو « خليفة المسلمين » وهو أكبر مقام دينى عند المسلمين . وأصبح سلاطين العثمانيين بعد ذلك — مثل هنرى الثامن — أصحاب السلطة الدينية كما كانوا أصحاب السلطة الزمنية (سادة الدين والدولة) .

وفى أوج مجد قواته وعظمتها ، جهز سليم لغزو رودس والعالم المسيحى . فلما تمت كل الاستعدادات ، أصيب بالطاعون فقضى عليه (١٥٢٠) . وأمر ليو العاشر الذى كان قد ارتعد فرقاً لتقدم سليم أكثر مما ارتعد لظهور مارتن لوثر — أمر الكنائس المسيحية بإقامة الصلوات شكراً لله .

٦ ـ الأدب الإسلامى

١٤٠٠ ـ ١٥٢٠

نظم سليم العبوس نفسه قصائد من الشعر المقفى ، وورّث ابنه سليمان القانونى ديواناً ملكياً ضم قصائده المجموعة ، مثل ما ورثه إمبراطورية تمتد من الفرات إلى الدانوب والنيل ، وإنك لترى اثنى عشر من السلاطين وكثيراً من الأمراء ، من بينهم الأمير جم الذى أجزل أخوه [illegible] الثانى العطاء للوك المسيحية وبابواتها ليحتجزوا الأمير فى معتقل لائق ، نقول إنك لترى هؤلاء السلاطين والأمراء بين ٢٢٠٠ شاعر عثمانى طبقت شهرتهم الآفاق فى القرون الستة الأخيرة(٣٧) . واقتبس معظم هؤلاء الشعراء من الفرس أشكال شعرهم وأفكاره ، وفى بعض الأحيان لغته ، وواصلوا ، فى معين من القصيد لا ينضب ، تمجيد عظمة الله ، وحكمة الشاه أو السلطان ، وارتعاد شجرة السرو حسداً عند ما يقع نظرها على السيقان النحيلة الناصعة البياض للحبيبة . وقد ألفنا الآن نحن فى الغرب هذه المفاتن إلى حد أننا لم نعد نهتز لهذه التشبيهات الهائلة . ولكن « الأتراك الفظعاء » الذين كانت نساؤهم متدثرات من الأنف إلى أخمص القدم بشكل كله إغراء ، اهتزوا إلى الأعماق بهذه الإيحاءات الشعرية ، وهذا الشعر الذى غيرت ترجمته من طبيعته ، والذى لا يؤثر فينا ولا يحرك فينا شعرة ، كان يحفزهم إلى التقى والورع وإلى تعدد الزوجات وإلى الحرب .

وإنا لنختار فى خيال ساذج ، من بين ألف من الموتى الخالدين ، ثلاثة أسماء لا تزال غريبة غير مألوفة لدى المجتمعات المحلية فى الغرب . من هؤلاء أحمدى ، وهو من سيواس (المتوفى ١٤١٣) الذى نهل أول ما نهل من الأستاذ الفارسى النظامى ، وقد كتب أحمدى « اسكندرنامه » أى كتاب الإسكندر ، وهو ملحمة ضخمة فى أسلوب قوى غير مصقول ، لم تتناول

قصة غزو الفرس للإسكندر فحسب ، ولكن تضمنت كذلك تاريخ الشرق الأدنى ودياناته وعلومه وفلسفته من أقدم العصور إلى عهد بايزيد الأول . ويجدر بنا أن نكف عن الاقتباس لأن الترجمة الإنجليزية أشبه شيء بكابوس يجثم على الصدر . أما شعر أحمد باشا (المتوفى ١٤٩٦) فقد ابتهج به السلطان محمد الثانى إلى حد أنه عين الشاعر وزيراً له . ولكن الشاعر وقع فى غرام خادم جميل من حاشية الإمبراطور الذى كان به مثل هذا الميل ، فما كان منه إلا أن أمر بإعدام الشاعر . وأرسل أحمد إلى مولاه قصيدة غنائية تفيض رقة ، حتى أن محمداً وهبه الغلام ، ولكنه نفى الاثنين إلى بروسه[٣٨] . وهناك آوى أحمد إلى داره شاعراً شاباً قدر له فى الحال أن يبزه ، ونظم نجاتى (المتوفى ١٥٠٨) ، وكان اسمه الحقيقى عيسى — نظم قصيدة غنائية مدح محمد الثانى ، وربطها فى عمامة صفى السلطان وزميله فى لعبة الشطرنج ، ودفع فضول محمد الثانى به إلى الوقوع فى الشرك ، وفض اللفيفة وقرأ القصيدة ، واستدعى ناظمها وعينه موظفاً فى القصر الملكى . وأبقاه بايزيد الثانى ناعماً بالحظوة والثراء . وكتب نجاتى الذى انتصر بشكل بطولى على الازدهار والنجاح ، بعض القصائد الغنائية التى تستحق أعظم الثناء والتقدير فى الأدب العثمانى .

ومهما يكن من أمر ، فإن فطاحل الشعر الإسلامى كانوا لا يزالون من الفرس . وكان بلاط حسين بيقرة فى هراة يعج بالعنادل المغردة ، حتى أن وزيره مير على شير نواى شكا قائلا : « لو أنك مددت قدميك لرفست بهما ظهر شاعر » : فرد عليه شاعر آخر بقوله : « وكذلك تفعل أنت لو سحبتهما[٣٩] » . وكان مير على شير (المتوفى ١٥٠١) ، إلى جانب معاونته فى حكم خراسان ، ورعايته للأدب والفن ، وذيوع صيته فى رسم المنمنمات والتلاحين — نقول كان شاعراً فحلا ، فكان ميسيناس وهوراس زمانه فى وقت معاً . ومن فيض رعايته المستنيرة استمد العون والسلوى المصوران بهزاد

وشاه مظفر ، والموسيقيون قول محمود وشائقى نائى وحسين يودى ، والشاعر الإسلامى الكبير فى القرن الخامس عشر ملا نور الدين عبد الرحمن جامى (المتوفى ١٤٩٢) .

ووجد جامى فى حياته الطويلة الهادئة فسحة من الوقت ليكتسب شهرته عالماً ومتصوفاً وشاعراً . فشرح باعتباره من رجال الصوفية ، فى نثر رقيق ، الفكرة الصوفية القديمة ، وهى أن الاتحاد البهيج بين النفس البشرية وبين الحبيب ، وهو الله سبحانه وتعالى ، لا يتأتى إلا إذا أيقنت النفس أن الإنسان ليس إلا وهماً وسراباً ، وأن كل الأشياء فى الدنيا هى مجموع من الأشباح العابرة التى تتلاشى فى ضباب الفناء . ومعظم قصائد جامى عبارة عن تصوف منظوم شعراً ، ممزوج بشىء من الحسية الجذابة . ويقص علينا سلامان وأبسال حكاية طريفة تشير إلى أن الحب الإلهى يسمو على الحب الدنيوى . وسلمان هو ابن شاه يون (أيونيا) وقد ولد من غير أم (وهذا شىء أصعب بكثير من التوالد العذرى) وقد تولت تربيته الأميرة الجميلة أبسال التى افتتنت به حين بلغ الرابعة عشرة من العمر ، وقد غزت قلبه وأسرته بما اصطنعت من أسباب التجميل والتطرية .

« أحاطت سواد عينيها بسواد الإثمد
حتى تحوله إلى ليل وهو فى وضح النهار ،
وزينت وزججت الحواجب فوقهما .
لتصيبه إذا ضل هناك ، وشعرها الذى يتضوع منه المسك
صففته فى لفائف أفعوانية كثيرة
كمن فيها « الإغراء » فوق خدها
الذى أضاءت ورده بندى قرمزى
ووضعت هناك حبة دقيقة من المسك
لتوقع فى الشرك طائر هذا القلب الحبيب

وقد تمر أحياناً فتطلق ضحكة تكسر بها
ياقوتة شفتيها اللتين تحفظان بينهما اللآلى
أو تنهض وكأنها على عجل ، فتقعقع خلاخيلها الذهبية ،
وعلى نداءاتها المفاجئة : تأتى
تحت قدميها الفضيتين بالتاج الذهبى »[٤٠] .

وهو تاج الأمير وريث العرش بلا منازع ، ويستسلم الأمير دون عناء لهذه المغريات ، ولبعض الوقت ينعم الاثنان — الولد والسيدة فى حب مشبوب . فيؤنب الملك هذا الشاب على مثل هذا العبث ، ويأمره أن ينجو بنفسه إلى الحرب والحكم . ولكن سلمان بدلا من ذلك يهرب مع أبسال على ظهر جمل ، « وكأنهما لوزتان حلوتان فى قشرة واحدة » ، حتى إذا وصلا إلى البحر صنعا قارباً وسارا به « شهراً » وأتيا إلى جزيرة مكسوة بالخضرة ، مليئة بالأزهار العطرة والطيور المغردة ، والثمار والفاكهة التى تتساقط تحت قدميهما بكثرة . ولكن فى جنة عدن هذه يتحرك ضمير الأمير فيؤنبه ، ويفكر فى مهام الملك التى أغفلها ، ويحث الأمير محبوبته أبسال على العودة معه إلى يون ، ويحاول أن يدرب نفسه على الاضطلاع بأعباء الملك ، ولكنه موزع بين الواجب والجمال ، إلى حد أنه كاد آخر الأمر أن يجن ، وانضم إلى أبسال فى محاولة للانتحار ، فبنيا محرقة ، وقفزا إليها ، ويد كل منهما فى يد الآخر ، وأتت النيران على أبسال ، ولكن سلمان يخرج سالماً ولم يحترق . والآن وقد تطهرت نفسه ، فإنه يرث العرش ويشرفه . وكل هذا مجاز يفسره جامى بأن الملك هو الله ، وسلمان هو النفس البشرية ، وأبسال هى نشوة الشهوة ، والجزيرة السعيدة هى جنة الشيطان التى تضل فيها النفس عن مصيرها الإلهى ، أما المحرقة فهى نار تجربة الحياة ، التى تتلاشى فيها الرغبات الشهوانية ، أما العرش الذى ترقى إليه النفس المطهرة فهو عرش الله . ومن العسير أن نعتقد أن شاعراً استطاع أن يصور مفاتن

المرأة بهذا الشكل الحساس ، يمكن أن يطالب إلينا اجتنابها اللهم إلا بين الفينة والفينة .

وفي جرأة عوض عنها ما تخضت عنه تجاسر جامي فعالج ، شعراً ، من جديد ، الموضوعات الأثيرة لدى اثنى عشر من الشعراء قبله : يوسف وزليخة ، ليلى والمجنون . وفي تصدير فصيح يعيد تقرير النظرية الصوفية : نظرية الجمال الإلهي والجمال الدنيوي :

في « القفر البدائي » ، حيث لم تعط الحياة أية علامة على وجودها ، ورقد الكون مختبئاً منكراً نفسه ، كان ثمة شيء . إنه الجمال المطلق يظهر نفسه لنفسه فقط ، وبنوره هو وحده . مثل أجمل النساء في غرفة زفافها المحفوفة بالأسرار ، كان ثوبها نقياً لا تشوبه أية شائبة ، ولم تعكس أية مرآة وجهها ، ولم يمر المشط قط بخصلات شعرها ، أو لم يحرك النسيم العطر قط شعرة واحدة منها ، ولم يأو قط أي عندليب على صفحة خدها الوردي . . . ولكن الجمال لا يطيق أن يبقى مجهولا . انظر إلى زهرة التوليب فوق قمة الجبل ، وهي تنفذ في الصخر فرعها الغض لأول بسمة من بسمات الربيع . . . كذلك الجمال الأبدى أتى من الأماكن المقدسة للأسرار ليشع في كل الآفاق وفي كل النفوس ، وثمة شعاع واحد انطلق من هذا الجمال الأبدي ، واخترق الأرض والسموات ، ومن ثم تكشف وظهر في مرآة المخلوقات . وأصبحت كل ذرات الكون بمثابة مرايا تعكس كل منها ناحية من نواحي العظمة الأبدية . وسقط شيء من تألقها على الوردة والعندليب ، فأصابهما شيء من جنون الحب البائس واتقدت حماستهما ناراً ، وجاء ألف من الفراشات لتهلك في اللهب . وهي التي أضفت على قمر كنعان لمعانه الساطع الذي أصاب زليخة بالجنون [41] .

إن جامى يهبط من علياء سمائه ليصف جمال الأميرة زليخة فى تكرار وإسهاب يتقدان حماسة ، حتى إلى حد وصف « حصن العفة والملمس الحرام فيها » .

> وكان نهداها بمثابة كرتين من نور بالغ النقاوة أو فقاعتين تقفزان حديثاً من نافورة كافور ، أو رمانتين صغيرتين تنموان على غصن واحد ، لا يستطيع أى طامع جرىء أن يمسهما بأصبعه(٤٢) .

إن زليخة ترى يوسف فى المنام ، فتقع فى غرامه لأول ظهوره . ولكن أباها يزوجها من وزيره بوتيفار . ثم ترى يوسف بشخصه رأى العين معروضاً للبيع فى سوق الرقيق فتشتريه وتغريه ، ولكنه يرفض صداقتها والتفاهم معها ، فيصيبها الهزال ، ويموت الوزير ، ويحل يوسف محله ، ويتزوج زليخة ، وسرعان ما ينتاب الهزال الاثنين ، إلى حد الموت آخر الأمر . إن حب الله فقط هو الحقيقة وهو الحياة ، إنها قصة قديمة ، ولكن من ذا الذى يستطيع أن يركن إلى هذه المواعظ ؟

٧ — الفن فى آسيا الإسلامية

فى كل البقاع التى وصل إليها الإسلام من غرناطه إلى دلهى وسمرقند ، استخدم الملوك والنبلاء العباقرة والعبيد لبناء المساجد والمقابر ، والرسم على الآجر وإحراقه ، ونسج الحرائر والسجاجيد وصبغها ، وطرق المعادن . والحفر على الخشب والعاج ، وزخرفة المخطوطات بالألوان المائية والخط . واستمسك الخانات والتيموريون والعثمانيون والمماليك ، وحتى الأسرات الصغيرة التى حكمت الأجزاء الضعيفة من العالم الإسلامى ، استمسكوا جميعاً بالتقليد الشرقى ، وهو تلطيف السلب بالشعر ، وتلطيف القتل بالفن .

وفى قرى الريف وفى قصـــور المدن أخرجت الثروة جمالا ، ونعمت قلة محظوظة بقرب أشياء تغرى اليد بلمسها ، وتغرى العين بالنظر إليها .

وكان المسجد لا يزال مجمع الفن الإسلامى . فالطوب والقرميد أكسبا المئذنة جمالا شاعرياً ، وأبواب الخزف المزخرف جعلت من ضوء الشمس ألواناً براقة ، وأبرز المنـــبر الأشكال المتعرجة المحفورة أو التطعيم المعقد فى الخشب ، ووجهت فخامة المحراب قلوب المصلين إلى مكة . وقدمت المصبعات والثريات مشبكاتها المعدنية إجلالا وولاء لله . وجعل السجاد من الأرض البلاط مكاناً ليناً وهيأ لركبتى المصلى سجوداً وثيراً . وغلفت المصاحف المذهبة بالحرير الثمين . وعجب كلافيجو « من المساجد الجميلة المزدانة بالآجر الأزرق والذهبى[٤٣] » ، وفى أصفهان أقام أحد وزراء أولجايتو فى مسجد الجمعة محراباً بات فيه الجص العادى من مفاتن الزخرفة العربية والنقش . وشيد أولجايتو نفسه فى « سلطانية » ضريحا فخما (١٣١٣) أراد أن ينقل إليه رفات على والحسين (كان الخان أولجايتو شيعيا) . ولكن خطته أخفقت إخفاقاً محموداً ، فإن عظام الخان ووريت الترب فى هذا الضريح المهيب . وتتسم أطلال المسجد فى فارامين (١٣٢٦) بالضخامة والجلال .

وأولع تيمور بالبناء ، وسرق أفكار العمارة ، كما سرق الفضة والذهب من ضحايا أسلحته . وآثر الضخامة بوصفه فاتحاً ، وكأنما هى ترمز إلى إمبراطوريته وإلى إرادته ، ومثل محدثى الثراء أغرم باللون وأسرف فى الزخرفة . وافتتن بالآجر الأزرق المطلى فى هراة ، فاستقدم خزافين من فارس إلى سمرقند ليكسوا بالطوب اللامع واجهات المساجد والقصور فى عاصمته ، وسرعان ما أشرقت المدينة وتألقت بالخزف الفخم . ولحظ فى دمشق قبة بصلية الشكل تنبعج فوق القاعدة ثم يستدق طرفها إلى أعلى حتى يصبح مدببا ، فأمر مهندسيه أن يأخذوا تصميمها وأبعادها قبل أن

تسقط فى الحريق العام ، وتوج سمرقند بمثل هذه القباب ، ونشر هذا الطراز بين الهند وروسيا ، حتى إنك لتراه سائداً من تاج محل إلى الميدان الأحمر . ولما عاد من الهند أحضر معه الفنانين والصناع المهرة : فأقاموا له فى ثلاثة أشهر مسجداً ضخماً هو « مسجد الملك » له بوابة ارتفاعها مائة قدم ، وسقف مرفوع على ٤٨٠ عموداً من الحجر . وشيد لأخته « تشو شوك بيكا » ضريحاً لتدفن فيه ، أصبح تحفة العمارة فى عصره[٤٤] . وعندما أمر ببناء مسجد تخليداً لذكرى زوجته الأثيرة لديه ، بيبى خانون ، أشرف على البناء بنفسه ، وألقى باللحوم إلى العمال فى الحفائر ، ونفح الصناع المهرة المجتهدين بالنقود ، وحثهم أو أجبرهم على العمل ليل نهار ، حتى أقبل الشتاء وتوقف البناء ، وأخمدت حماسته .

وأنجز خلفاؤه فنا أكثر نضجا . ففى « مشهد » على الطريق بين طهران وسمرقند استخدمت « جوهر شاد » زوجة « شاه رخ » المغامرة ، المهندس المعمارى قوام الدين فى بناء المسجد الذى يحمل اسمها (١٤١٨) ، وهو أروع نتاج الهندسة الإسلامية الفارسية وأغناه بالألوان[٤٥] . وفيه تحيط المآذن المزودة بالفوانيس الرائعة بالضريح وكأنها تحرسه ، وتؤدى أربعة مداخل فخمة إلى فناء رئيسى ، كسيت واجهة كل منها بآجر من الخزف المزخرف ، « لا مثيل لها من قبل ومن بعد »[٤٦] — تحفة الزمان — تتحدى اللون فى مائة شكل من الزخرفة العربية « الأرابسك » والرسوم الهندسية والحركات الزهرية والخط الكوفى الفخم ، وأضفت شمس فارس على هذا مزيداً من البريق والتألق . وفوق الجزء الجنوبى الغربى من الرواق ذى الأعمدة المؤدى إلى حرم المسجد ارتفعت مئذنة من الآجر الأزرق تناطح السماء ، وعلى الباب بحروف بيضاء على أرضية زرقاء نقش إهداء الملكة ، وهو إهداء يفيض فخراً وتقى :

« إن عظمتها العريقة فى المجد ، شمس سماء الطهارة والعفة ...

جوهر شاد ، خلد الله عظمتها وأدام طهارتها ! من مالها الخاص ، ولخير آخرتها ، ومن أجل اليوم الذى يحاسب فيه المرء على ما قدمت يداه ، تقرباً إلى الله وشكراً له سبحانه ... شيدت هذا المسجد الجامع العظيم ، هذا البيت المقدس ، فى عهد السلطان المعظم ، سيد الحكام ، والد نائب الملك ، شاه رخ ، أدام الله ملكه وإمبراطوريته ! وزاد على أهل الأرض صلاحه وعدله وكرمه !(٤٧) .

ولم يكن مسجد جوهر شاد إلا واحداً من جملة مبان جعلت من مشهد رومة « المذهب الشيعى » ، وهناك على مدى ثلاثين جيلا ، شيد أتباع الإمام الرضا مجموعة كبيرة من العمائر تأخذ فخامتها بالألباب ، ذوات مآذن جميلة وقباب فاخرة ، ومداخل كسيت واجهاتها بالآجر اللامع أو بصفائح الفضة أو الذهب ، وساحات تعكس فسيفساؤها الزرقاء والبيضاء أو خزفها المزخرف أشعة الشمس . وهنا فى ها المنظر العريض الخلاب بأشكاله وألوانه ، استخدم الفن الفارسى كل سحره ليمجد أحد أولياء الله الصالحين ويرهب الحاج الزائر حتى يعمر قلبه بالتقوى والإيمان .

ومن أذربيجان إلى أفغانستان ارتفع فى هذا العصر فى أرض الإسلام ألف مسجد : ذلك أن بيوت العبادة لها من القيمة الكبيرة لدى الإنسان ما لفاكهة الأرض ، ولكن عندنا نحن أهل الغرب، المحصورين فى خلايا العقل ، لا تعنى هذه الأضرحة إلا أسماء جوفاء ، بل قد يزعجنا أن نحييها ونكرمها بتلك الانحناءات الجافة المقتضبة . وماذا يعنينا أن جوهر شاد قد حصلت لرفاتها الطاهرة على مقبرة جميلة فى هراه ، وأن شيراز جددت عمارة مسجدها الجامع فى القرن الرابع عشر ، وأن يزد واصفهان قد أضافتا محرابين فاخرين إلى مسجدى الجمعة فيهما ؟ الحق أننا بعيدون جداً ، من حيث الزمان والمكان والتفكير ، إلى حد لا نشعر معه بهذه العظمة والجلال ،

كما أن هؤلاء الذين يقيمون الصلاة فى تلك المساجد لا يستهويهم كثيراً اجتراءاتنا القوطية أوالصور الحسية فى عصر النهضة ، على أنه جدير بنا مع ذلك أن نتأثر ونحن وقوف على أطلال الجامع الأزرق فى تبريز (١٤٣٧ — ١٤٦٧) ونستعيد فى الذاكرة الفخامة التى اشتهر بها يوماً خزفه الأزرق المزخرف وزخرفته العربية الذهبية ، كما لا يغيب عن أذهاننا أن محمد الثانى وبايزيد الثانى شيدا فى القسطنطينية (١٤٦٣ — ١٤٩٧) مساجد تكاد تنافس عظمة كنيسة أياصوفيا . وقد اقتبس العثمانيون التصميمات البيزنطية والأبواب الفارسية والقباب الأرمينية وأفكار الزخرفة الصينية ، ليشكلوا مساجدهم فى بروسه ونيقيا ونيقوميديا وقونيه . لقد كان الفن الإسلامى لا يزال فى أوجه فى هندسة العمارة على الأقل .

وثمة فن واحد فحسب استطاع أن ينهض ويصمد أمام فن العمارة فى الإسلام : (كما صمد داود أمام جوليات — التوراة ، صموئيل الأول ، الإصحاح ١٧ : ٤ ، ٤٩) . فربما حظى الخطاطون ورسامو المنمنمات الصابرون الذين زخرفوا الكتب بأصغر وأدق زخارف وصور وخطوط رمزية بالفرشاة أو القلم — ربما حظى هؤلاء بنصيب من التكريم والإجلال أكثر مما حظى به بناة المساجد . وقد رسمت الصور الحائطية ، ولكن لم يبق من نتاج هذه الفترة شىء منها . ورسمت صور الأشخاص ، ولم يبق منها إلا القليل . وامتثل العثمانيون علانية لتعاليم الكتاب المقدس والقرآن فى تحريم نحت الصور الشخصية ، ولكن محمد الثانى استقدم جنتيل بللينى من البندقية إلى القسطنطينية (١٤٨٠) ليرسم صورته ، وهى المعلقة الآن فى المتحف الوطنى فى لندن . كما توجد نسخ من صورة زعموا أنها لتيمور . على أن المغول الذين اعتنقوا الإسلام ، بصفة عامة ، آثروا تقاليد الفن الصينى على المحظورات التى جاءت بها الشريعة الإسلامية . فأدخلوا من

الصين على الزخرفة الفارسية التنين والعنقاء وأشـكال السحاب وهالات القداسة والوجوه الشبيهة بالأقمار ، وزاوجوا بينها . بطريقة خلاقة ، وبين الأساليب الفارسية فى اللون الشفاف والخط الخالص . وكانت الأساليب المختلطة متماثلة إلى حد بعيد ، فإن رسامى المنمنمات الصينيين والفرس ، على حد سواء ، رسموا لطبقة الأرستقراطيين الذين يحتمل أن ذوقهم كان رفيعاً جداً ، والأرجح أنهم حاولوا إرضاء الخيال والهواجس أكثر من تمثيل الأشكال الموضوعية .

وكانت المراكز العظمى للزخرفة الإسلامية فى هذا العصر هى تبريز وشيراز ، هراة . ويحتمل أنه قد جاء من تبريز فى عهد الأيلخانات ، الورقات الخمس والخمسون من كتاب « شاه نامه » ، (كتاب الملوك للفردوسى) — وهى من عمل رسامين مختلفين فى القرن الرابع عشر . ولكن رسم المنمنمات الفارسية بلغ الذروة فى هراة على عهد التيموريين ، وقد استخدم شاه رخ طائفة كبيرة من الفنانين ، وأسس ابنه بيسنقر ميرزا كلية خاصة بالخط والمنمنمات . ومن مدرسة هراة هذه جاءت الشاهنامة (١٤٢٩) وهى معجزة اللون البراق والجمال الدافق ، وهى الآن محفوظة بعناية فى مكتبة قصر جلستان فى طهران ، وتكاد لا يمسها أحد إلا إجلالا وتعظيماً . إن رؤيتها لأول مرة أشبه شىء باكتشاف قصائد كيتس (الشاعر الإنجليزى Keats) .

وكان كمال الدين بهزاد ، هو كيتس الزخرفة الحقيقى أو رافائيل الشرق ؟ لقد عركته تجارب الحياة ، وويلات الحرب وتقلباتها ، فعكس هذا كله بالفن ، ولد بهزاد فى هراة حوالى سنة ١٤٤٠ ، ودرس فى تبريز ، ثم عاد إلى هراة ليرسم للسلطان حسين بن بيقره ، ووزيره المتعدد الجوانب (شاعر وموسيقى ومصور) مير على شير نوائى . وعندما أصبحت هراة مركزاً للأوزبك ولحملات الصفويين ، قصد بهزاد ثانية إلى تبريز . وكان من بين أوائل المصورين الفرس الذين وقعوا على أعمالهم ، ولكن بقايا فنه قليلة فعلا

ومتباعدة . وثمة منمنمتان فى دار الكتب المصرية بالقاهرة تمثلان « بستان سعدى » وتعرضان حلقة لبعض رجال الدين يتدارسون فيها أسراره . وتحمل المخطوطة تاريخ سنة ١٤٨٩ ، أما العبارة المكتوبة فى نهايتها فتقول « رسمها العبد المذنب بهزاد » . ويضم متحف فرير فى واشنجطن صورة « شاب يرسم » ، وهى نسخة منقولة عن جنتيل بلليني وقعها بهزاد ، وفيها تكشف الأنامل الرقيقة عن الفنانين الرسام والمرسوم كليهما . وليس من المحقق كثيراً أنه هو الذى رسم المنمنمات الموجودة فى المتحف البريطانى ؛ وهى نسخة مخطوطة « المنظومات الخمس » للشاعر نظامى ، وفى نفس الخزانة توجد مخطوطة « ظفر نامه » أى سجل انتصارات تيمور .

ومن العسير أن تفسر هذه البقايا شهرة بهزاد المنقطعة النظير . إنها تنم على إدراك حسى للأشخاص والأشياء ، وعلى حرارة اللون ومداه ، وعلى حيوية فى التنفيذ تشملها جميعاً دقة رقيقة فى التخطيط . ولكنها لا تكاد توازن بالمنمنمات التى رسمت لدوق برى Berry ، قبل ذلك بقرن من الزمان تقريباً ، ومع ذلك فإن معاصرى بهزاد أحسوا بأنه كان قد أحدث انقلاباً فى الزخرفة بنماذجه الأصيلة فى التأليف ، ومناظره الطبيعية الزاهية وصور شخوصه المفصلة بعناية والتى تكاد تقفز إلى الحياة . وعنه قال المؤرخ الفارسى خواندمير الذى كان يقارب الخمسين من العمر حين مات بهزاد (حوالى ١٥٢٣) ، ربما بدافع التحيز لصداقته له : « إن براعته فى التصوير والتصميم قد طمست ذكرى غيره من مصورى العالم . إن أنامله الموهوبة بمزايا خارقة محت صور سائر الفنانين من بنى آدم »(٤٨) . وجدير بنا أن يهذب من ثقتنا أن نفكر ملياً فى أن هذا قد كتب قبل أن يرسم ليوناردو دافنسى « العشاء الأخير » ويرسم ميكلأنجلو « سقف كنيسة سستين » ، وقبل أن يرسم رافائيل « غرف الفاتيكان » . ومن المحتمل أن خواندمير لم يكن قد سمع بأسمائهم قط .

وانحط فن الخزف فى هذه الحقبة عما كان عليه فى عهد سلاجقة الرى وكاشان . أما مدينة الرى فقد تركتها الزلازل وغارات المغول أثراً بعد عين ، وأما كاشان فقد خصصت معظم أفرانها لصناعة الطوب : على أن مراكز جديدة للخزف قامت فى سلطانية ويزد وتبريز وهراة وأصفهان وشيراز وسمرقند ، وكان الخزف المزخرف الفسيفسائى آنذاك هو الإنتاج المفضل : فصنعت بلاطات صغيرة من الخزف ، رسمت كل منها بلون معدنى واحد ، وطليت فأصبحت ذات بريق يتطلب أشد العناية لبقائه . وحين كان حماة الفن فى يسر وثراء استخدم البناءون الفرس هذا الخزف المزخرف ، لا للمحاريب والزخرفة فحسب ، بل استخدموه كذلك فى تغطية سطوح كبيرة من أبواب المساجد أو جدرانها ، وثمة نموذج أخاذ فى محراب مسجد بابا قاسم (حوالى ١٣٥٤) فى متحف متروبوليتان للفن فى نيويورك .

واحتفظ صناع المعادن فى الإسلام بمهارتهم ، فصنعوا الأبواب والثريات البرونزية للمساجد من بخارى إلى المغرب (مراكش) ، ولو أن شيئاً منها لم يضـــارع تماماً « أبواب الجنة » التى صنعها جيبرتى Ghiberti (١٤٠١ — ١٤٥٢) فى بيت المعمودية بفلورنسه ، وقد صنعوا أحسن أسلحة العصر — الخوذات المخروطية الشكل لكى تجعل الضربات الهاوية تنحرف ، والدروع من الحديد البراق مطعمة بالفضة والذهب والسيوف المرصعة بالنقوش الذهبية أو الأزهار المصنوعة من الذهب . كما صنعوا النقود الجميلة ، كما صنعوا الرسوم النافرة أو الميداليات الكبيرة مثل تلك التى عليها صورة جانبية لمحمد الفاتح البدين القصير ، وشمعدانات برونزية كبيرة حفر عليها الخط الكوفى الفاخر أو الأشكال الزهرية ، كما صبر وزينوا المباخر ومحفظة الكتابةوالمرايا وعلب الجواهر والمجمرات والقوارير والأباريق والطشوت والصوانى ، بل حتى المقص والفرجار كانوا يزينونها بالنقوش بطريقة فنية . ومثل هذا التفوق مشهود به للفنانين والصنا المهرة

المسلمين الذين اشتغلوا بقطع الجواهر أو المعادن النفيسة ، أو الذين اشتغلوا بقطع الجواهر أو المعادن النفيسة ؛ أو الذين حفروا العاج أو الخشب أو رصعوه . والنسيج الباقى للآن عبارة عن قطع أو أجزاء صغيرة . ولكن المنمنمات تصور لنا تشكيلة واسعة من المنتجات الجميلة من الكتان الرفيع فى القاهرة إلى الخيام الحريرية فى سمرقند . والحق أن الذى أثار بسرعة حسد أوربا ، هم أولئك المزخرفون الذين صمموا الأنماط والطرز المعقدة ولكنها مع ذلك منطقية : القماش المقصب (البروكار) والقطيفة والحرائر ، للمغول والتيموريين ، بل حتى البسط التركية . وفيما يسمونه الفنون الصغرى قاد الإسلام العالم .

٨ ـــ الفكر الإسلامى

أفلت شمس العلم والفلسفة وضاع مجدهما ، لأن الدين كان قد كسب معركته ضدهما ، فى الوقت الذى كان فيه يتراجع ويستسلم فى الغرب المراهق . وكان الذين يحظون بالشرف الرفيع هم رجال الدين والدراويش والنساك والأولياء ، أما العلماء فقد قصدوا إلى استيعاب نتائج أبحاث أسلافهم ، أكثر مما قصدوا إلى إمعان النظر فى الطبيعة من جديد . وكان آخر تقدم أو محاولة نشيطة فى الفلك الإسلامى فى سمرقند حين صاغ راصد النجوم فى مرصد أولوج بك فى سنة ١٤٣٧ الجداول الفلكية التى حظيت بأعظم التقدير فى أوربا حتى القرن الثامن عشر . وقاد ملاح عربى مزود بجداول وخريطة عربية ، فاسكودا جاما من أفريقية إلى الهند فى المرحلة التاريخية التى وضعت نهاية لسيطرة الإسلام الاقتصادية[٤٩] .

وفى الجغرافيا أنجب المسلمون شخصية عظيمة فذة فى هذا العصر . ففى سنة ١٣٠٤ ولد فى طنجة محمد أبو عبد الله بن بطوطة الذى طاف بدار الإسلام ــ العالم الإسلامى ــ لمدة أربع وعشرين سنة ثم عاد إلى المغرب

ليقضى نحبه فى فاس . وإن يوميات هذا الرحالة لتوحى بمدى انتشار الإسلام الواسع ، فهو يذهب إلى أنه قطع فى رحلاته ٧٥٫٠٠٠ ميل (أكثر من أى إنسان آخر قبل عصر البخار) . كما زعم أنه رأى غرناطة وشمال أفريقية وتمبكتو ومصر والشرقين الأدنى والأوسط وروسيا والهند وسيلان والصين . وأنه زار كل حاكم مسلم فى هذا العصر . وفى كل مدينة كان يقدم احتراماته أولا إلى العلماء ورجال الدين ثم بعد ذلك إلى الملوك والحكام : وإنا لنرى النزعة الإقليمية عندنا منعكسة عليه حين يعدد « الملوك السبعة العظام فى العالم » . وكلهم مسلمون فيما عدا واحدا صينيا(٥٠) . إنه لا يصف الأشخاص والأماكن فحسب ، بل يصف كذلك حيوان كل منطقة ونباتها والمعادن والأطعمة والأشربة والأسعار فى مختلف البلاد . وكذلك المناخ ومظاهر الطبيعة والعادات . والأخلاق والطقوس الدينية والمعتقدات ، وهو يتحدث بكل إجلال عن السيد المسيح والسيدة العذراء : ولكنه يشعر ببعض الارتياح والرضا حين يشير إلى أن « كل حاج يزور كنيسة القيامة فى القدس يدفع رسوماً للمسلمين »(٥١) . وعندما عاد إلى فارس روى كل تجاربه ومشاهداته ، فأنزلة سامعوه منزلة القصاص . ولكن الوزير أمر أحد سكرتيريه بتدوين ما أملاه ابن بطوطه من مذكرات . وضاع الكتاب وكاد أن ينسى . حتى وجد أخيرا أثناء الاحتلال الفرنسى الحديث للجزائر .

وفيما بين سنتى ١٢٥٠ ، ١٣٥٠ كان أعظم الكتاب إنتاجاً فى التاريخ الطبيعى من المسلمين . فكتب محمد الدميرى بالقاهرة كتاباً فى علم الحيوان يقع فى ١٥٠٠ صفحة وكان الطب لا يزال قلعة سامية ، (أى عاماً برز فيه الجنس السامى) . فكانت المستشفيات كثيرة فى العالم الإسلامى . وشرح طبيب من دمشق هو علاء الدين بن النفيس الدورة الدموية الرئوية (١٢٦٠) قبل سرفيتس (طبيب أسبانى : القرن ١٦) بنحو ٢٧٠ سنة ،

ونسب طبيب من غرناطة هو ابن الخطيب « الموت الأسود » إلى مرض معد ، وأشار بالحجر الصحى للمصابين — معارضاً بذلك قول رجال الدين بأنه انتقام إلهى من خطايا الإنسان وآثامه . واشتمل بحثه « فى الطاعون » (حوالى ١٣٦٠ على هرطقة مشهورة : « يجب أن يكون من القواعد المقررة لدينا أن أى برهان مأخوذ من تقاليد « أتباع محمد » ينبغى أن يخضع للتعديل إذا تعارض تعارضاً واضحاً صريحاً مع الدليل الذى تأتى به الحواس[٥٣] » .

وكان العلماء والمؤرخون كثيرين مثل الشعراء . وكانوا يكتبون باللغة العربية وهى لغة الاسبرانتو فى العالم الإسلامى ، كما جمعوا فى كثير من الأحوال بين الدرس والتأليف وبين النشاط السياسى والإدارى . ومثال ذلك أبو الفداء الدمشقى ، فقد اشترك فى اثنتى عشرة حملة حربية ؛ وكان وزيرا للملك الناصر فى القاهرة ، ثم عاد إلى سوريا حاكماً على حماه ، وجمع مكتبة ضخمة ، وألف مجموعة من الكتب تعتبر قمة مثيلاتها فى هاتيك الأيام . وفاق بحثه فى الجغرافيا « تقويم البلدان » فى اتساع مداه ، أى مؤلف أوربى من نوعه فى عصره ؛ وقد قدر فيه أن الماء يغطى ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ، وأشار إلى أن السائح حول العالم يكسب أو يفقد يوماً فى مسيره غرباً أو شرقاً ؛ وكان كتابه « المختصر فى أخبار البشر » هو التاريخ الإسلامى الأساسى المعروف لدى الغرب .

ولكن الاسم اللامع فى كتابة التاريخ فى القرن الرابع عشر هو عبد الرحمن ابن خلدون ؛ فهنا نجد رجلا ذا وزن وقيمة حتى فى أعين أهل الغرب رجلا عركته التجارب والسياحة وفن الحكم الذى مارسه عملياً ، وهو مع ذلك حسن الاطلاع على الفن والأدب والعلوم والفلسفة فى عصره ، يكاد يحيط بالجوانب الإسلامية فى هذا كله فى « تاريخ للعالم » . وإن مولد مثل هذا الرجل فى تونس (١٣٣٢) وارتفاع مكانته هناك ، ليوحيان إلينا

بأن ثقافة شمالى أفريقية لم تكن مجرد صدى للإسلام فى آسيا ، بل كان لها طابع وحيوية خاصتان بها ، وتقول سيرة حياة ابن خلدون : « لم أزل منذ نشأت وناهزت مكباً على تحصيل العلم ، حريصاً على اقتناء الفضائل ، متنقلا بين دروس العلم وحلقاته ... » .

وقضى الموت الأسود على أبويه وعلى كثير من المعلمين ، ولكنه تابع دراسته « إلى أن شددت بعض الشىء »(٥٤) ، وهذا ضرب من الوهم يتميز به الشباب . وعين فى العشرين من عمره سكرتيراً لسلطان تونس ، ثم لسلطان فاس فى الرابعة والعشرين ، وفى سن الخامسة والعشرين دخل السجن . ثم انتقل إلى غرناطة وأرسل سفيراً إلها لدى بطرس القاسى فى أشبيلية . وعندما عاد إلى أفريقية أصبح الوزير الأول للأمير أبى عبد الله فى « بجاية » ولكن كان لزماً عليه أن يفر لينجو بنفسه عندما خلع سيده وقتل ، وأرسلته مدينة تلمسان فى سنة ١٣٧٠ مبعوثاً لها إلى غرناطة ، ولكن اعتقله فى الطريق إليها أحد أمراء المغرب العربى ، وبقى ابن خلدون أربع سنوات فى خدمة هذا الأمير ثم لجأ إلى حصن بالقرب من وهران ، وهناك (١٣٧٧) كتب « مقدمة تاريخه » وهى مقدمة « لتاريخ العمران » . ولما كان فى حاجة إلى كتب أكثر مما استطاعت وهران أن تمده بها فإنه عاد إلى تونس ، ولكن هناك تألب عليه أعداء من ذوى النفوذ فيها ، فانتقل إلى القاهرة (١٣٨٤) ، وكانت شهرته كعالم قد طبقت الآفاق ، وازدحم حوله الطلاب حين كان يحاضر فى الجامع الأزهر ، وأجرى عليه السلطان برقوق راتباً « كما كانت عادته مع العلماء »(٥٥) . وعين قاضياً للمالكية ، فطبق القوانين بصرامة شديدة وأغلق الملاهى مما أدى إلى هجوه وعزله من منصبه ، فاعتزل الحياة العامة ثانية . ثم أعيد إلى منصب قاضى القضاة ، وصحب السلطان ناصر الدين فرج فى حملة ضد تيمور ، وهزمت القوات المصرية ، فالتمس ابن خلدون ملجأ له فى دمشـــق ، وحاصرها تيمور ،

وكان مؤرخنا آنذاك فى سن الشيخوخة ، فرأس وفداً يلتمس من التترى المنتصر شروطاً لينة رفيقة وأحضر — مثل أى مؤرخ آخر ، مخطوطة تاريخه معه ، وقرأ على تيمور الجزء الخاص به وسأله أن يصحح له معلوماته . وربما كان قد تعمد مراجعة الصفحات قبل ذلك لهذا الغرض نفســه . ونجحت الخطــة . وأطاق تيمور سراحه ، وما لبث أن عاد ابن خلدون مرة أخرى قاضياً للقضاة فى القاهرة ، ومات وهو فى هذا المنصب ، فى سن الرابعة والسبعين (١٤٠٦) .

وألف ابن خلدون وسط هذه الحياة القلقة موجزاً عن فلسفة ابن رشد . وأبحاثاً فى المنطق والرياضيات ، ومقدمة ابن خلدون ، وتاريخ البربر ، وشعوب الشرق ، والكتب الثلاثة الأخيرة فقط هى الباقية . وهى تشكل فى مجموعها « تاريخ العالم » (كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر) . والمقدمة واحدة من الروائع فى الأدب الإسلامى وفى فلسفة التاريخ . فهى إنتاج « حديث » إلى درجة مذهلة لعقلية عاشت فى العصور الوسطى . ويرى ابن خلدون أن التاريخ « فرع هام من الفلسفة »(٥٦) ، وينظر نظرة عريضة واسعة إلى مهمة المؤرخ :

« اعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنسانى الذى هو عمران العــالم ، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال : مثل التوحش والتأنس والعصبيات ، وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض ، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها ، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع ، وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال »(٥٧) . (ص ٣٣ من مقدمة ابن خلدون طبعة كتاب الشعب — القاهرة ١٩٦٩) .

واعتقاداً منه بأنه أول من كتب التاريخ بهذه الطريقة ، فإنه يسأل القارئ الصفح عن أية أخطاء لم يكن فى الإمكان تجنبها فيقول :

« وأنا من بعدها موقن بالقصور بين أهل العصور ، معترف بالعجز عن المضاء فى هذا القضاء ، راغب من أهل اليد البيضاء ، والمعارف المتسعة الفضاء ، فى النظر بعين الانتقاد ، لا بعين الارتضاء ، والتغمد لما يعثرون عليه بالإصلاح والإغضاء . فالبضاعة بين أهل العلم مزجاة والاعتراف من اللوم منجاة ، والحسنى من الإخوان مرتجاة . والله أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم ، وهو حسبى ونعم الوكيل »(٥٨) . (المصدر السابق ، ص ١٠) .

ثم هو يأمل فى أن يكون كتابه هذا عوناً على الأيام الحالكة التى تنبأ بها :

« وإذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله ، وتحول العالم بأسره . وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة ، وعالم محدث . فاحتاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليقة والآفاق وأجيالها ، والعوائد والنحل لأهلها ، ويقفو مسلك المسعودى لعصره ، ليكون أصلا يقتدى به من يأتى من المؤرخين من بعده(٥٩) » . (المصدر السابق ، ص ٣١) .

ويخصص ابن خلدون بعض صفحات يملؤها الزهو والفخر ، يشير فيها إلى أخطاء بعض المؤرخين . ويحس بأنهم ضلوا فى مجرد ترتيب الأحداث ترتيباً زمنياً ، وقل أن ارتفعوا إلى مستوى إيضاح الأسباب والنتائج . وتقبلوا الخرافة بمثل الارتياح الذى تقبلوا به الحقيقة تقريباً ، وقدموا إحصاءات مبالغ فيها ، وفسروا أشياء كثيرة جداً بقوى خارقة

للطبيعة ، أما بالنسبة له ، فهو يعتزم أن يعول كلية على العوامل الطبيعية فى تفسير الحوادث . ولسوف يحكم على ما يكتبه المؤرخون فى ضوء التجارب الراهنة للجنس البشرى ، ويرفض أى حدث مزعوم يعتبر الآن مستحيل الوقوع . فإن التجربة يجب أن تفصل فى صحة التقاليد أو فسادها(٦٠) . وكان منهجه فى « المقدمة » هو أن يعالج أولاً فلسفة التاريخ ، ثم يتناول أشغال الناس ومهنهم وبراعاتهم ، وأخيراً يعرض لتاريخ العلوم والفنون ، وهو يدون فى مجلدات متعاقبة التاريخ السياسى لمختلف الأمم ، الواحدة تلو الأخرى ، متعمداً التضحية بوحدة الزمان فى سبيل وحدة المكان . ويقول ابن خلدون إن الموضــوع الحقيقى للتاريخ هو الحضارة ، كيف تنشأ ، وكيف يحتفظ بها وكيف تنمّى الآداب والعلوم والفنون ، ولماذا تبلى(٦١) ، فالإمبراطوريات — مثل الأفراد — لها حياة ولها مسارات خاصة بها . إنها تنشأ وتنضج وتضمحل(٦٢) فما هى أسباب هذا التعاقب ؟

والأحول الأساسية فى هــذا التعاقب هى أحوال جغرافية . ذلك أن للمناخ تأثيراً عاماً ولكنه أساسى . فالشمال البارد ينتج آخر الأمر ، حتى فى أناس أصلهم من الجنوب ، جلداً أبيض اللون وشعرا خفيفاً ، وعيوناً زرقاء وميلا إلى الجدية . أما الأقاليم المدارية فتنتهى بمرور الزمن إلى الجلد الأسمر والشعر الأسود ، « وتغلب الروح الحيوانية » ، وخفة فى العقل والمرح وسرعة التنقل بين المسرات مما يؤدى إلى الغناء والرقص(٦٣) . ويؤثر الطعام فى الخلق . فالغذاء الثقيل المكون من اللحوم والتوابل والحبوب يسبب بلادة الجسم والعقل ، والاستسلام السريع للقحط أو العدوى . أما الغذاء الخفيف ، مثل هذا الذى تتناوله شعوب الصحراء ، فإنه يساعد على رشاقة الأجسام وصحتها ، وعلى سلامة العقول . وعلى مقاومة المرض(٦٤) . وليس ثمة تفاوت فطرى فى القدرة الكامنة بين شعوب الأرض : فإن تقدمهم

أو تأخرهم تحدده الأحوال الجغرافية ، ويمكن تغييره بتغيير هذه الأحوال ، أو بالهجرة إلى مكان آخر(٦٥) .

أما الأحوال الاقتصادية فهي أقل قوة فقط من الجغرافية . ويقسم ابن خلدون المجتمعات إلى رحل ومقيمة أو مستقرة تبعاً لوسائل الحصول على القوت ، ويعزو معظم الحروب إلى الرغبة فى الحصول على مصادر للغذاء أكثر وفرة . فالقبائل الرحـــل لابد أن تغزو إن عاجـــلا أو آجلا ، الجماعات المستقرة المتوطنة ، لأن هؤلاء الرحل مرغمون بحكم ظروف حياتهم على التمسك بالصفات الحربية مثل الشجاعة وقوة الاحتمال والجلد والتماسك . وقد يدمر الرحل حضارة ، ولكنهم لا يستطيعون إقامة حضارة قط . فإن الشعب المقهور يمتص دماء الرحل وثقافتهم . ولا يستثنى من ذلك العرب الرحل . والحرب أمر طبيعى طالما أن الشعب غير قانع أبدا لأمد طويل بما لديه من غذاء . إن الحرب هى التى تنشئ السلطان السياسى وتجدده ، ومن ثم كانت الملكية هى الشكل المألوف للحكومة . وقد سادت فى كل حقب التاريخ تقريباً(٦٦) . وقد تنشئ السياسة المالية مجتمعاً أو تهدمه ، فإن فرض الضرائب الباهظة أو دخول الحكومة إلى مجـــال الإنتاج والتوزيع ، يمكن أن يخمد أو يقضى على الحوافز والمغامرة والمنافسة ، ويقتل البقرة الحلوب التى تدر الدخل(٦٧) . ومن جهة أخرى فإن الإفراط فى تركيز الثروة قد يمزق المجتمع إرباً بإذكاء نار الثورة(٦٨) .

وثمة قوى معنوية فى التاريخ : وفى تماسك الناس تدعيم للإمبراطوريات ، وأفضل وسيلة لتأمين هذا هو غرس عقيدة واحدة وممارستها . ويتفق ابن خلدون مع البابوات ومحاكم التفتيش والمصلحين الدينيين البروتستانت على عقيدة واحدة .

وذلك لأن الملك إنما يحصل بالتغلب . والتغلب إنما يكون

بالعصبية ، واتفاق الأهواء على المطالبة ، وجمع القلوب وتأليفها إنما يكون بمعونة من الله فى إقامة دينه . قال تعالى : لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم . وسره أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا ، حصل التنافس وفشا الخلاف . وإذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله اتحدت وجهتها ، فذهب التنافس وقل الخلاف ، وحسن التعاون والتعاضد ، واتسع نطاق الكلمة لذلك ، فعظمت الدولة ، كما نبين لك بعد إن شاء الله سبحانه وتعالى وبالله التوفيق ، لا رب سواه[٦٩] . (المصدر السابق ص ١٤٢) .

وليس الدين عوناً فى الحرب فحسب ، بل إنه كذلك خير عون على النظام فى المجتمع ، وعلى اطمئنان النفس وهدوء البال عند الناس فرادى ؛ ولا يتأتى هذا إلا بعقيدة دينية تتقرر بلا مساءلة ولا جدال . إن الفلاسفة ليبتدعون مئات الأساليب ، ولكن واحداً منهم لم يقع على بديل للدين ، كمرشد ومصدر إلهام للبشر فى حياتهم « وما دام أن الإنسان لا يستطيع فهم الدنيا ، فإن من الخير له أن يتقبل العقيدة التى ينقلها إليه مشرع ملهم تلقى الوحى ، يعرف ما فيه خيرنا ونفعنا أكثر مما نعرف نحن ، ويشرع لنا ما ينبغى علينا أن نؤمن به وما ينبغى علينا أن نفعل[٧٠] ، وبعد هذه المقدمة الرشيدة ينتقل مؤرخنا الفيلسوف إلى تفسير للتاريخ قائم على المذهب الطبيعى .

إن كل إمبراطورية تمر بأطوار متعاقبة :

١ — تحط قبيلة متنقلة منتصرة رحالها لتنعم بما أفاء الله به عليها من فتح رقعة من الأرض أو ولاية . « إن أقل الأقوام حضارة أعظمها فتوحاً »[٧١] .

٢ — وكلما ازدادت العلاقات الاجتماعية تعقيداً ، اقتضى الأمر سلطة أكثر تركيزاً بغية المحافظة على النظام ، فيصبح الرئيس القبلى ملكاً .

٣ — وفى هذا النظام المستتب ، تنمو الثروة ، وتتصاعد المدن ، ويرتقى التعليم والآداب ، وتجد الفنون من يرعاها ، وتبزغ شمس العلوم والفلسفة . ويؤذن التوسع فى سكنى المدن والحياة الناعمة بفضل الثراء ، ببداية الاضمحلال .

٤ — إن المجتمع الذى أثرى يبدأ فى إيثار المسرة والترف والدعة على العمل أو المغامرة أو الحرب ، ويفقد الدين سيطرته على خيال الإنسان وعقيدته ، وتنحط الأخلاق والسلوك ، وينتشر الشذوذ الجنسى ، كما تنحط الفضائل والأعمال الحربية ، ومن ثم يكون الاتجاه إلى استخدام الجنود المرتزقة للدفاع عن المجتمع ، ومثل هؤلاء تعوزهم حماسة الروح الوطنية والعقيدة الدينية ، وكأن الثروة التى لا يحسن الدفاع عنها تغرى بمهاجمتها ملايين الجياع المضطربين فيما وراء الحدود .

٥ — إن الحملات الخارجية أو الدسائس الداخلية ، أو كلتيهما معاً ، تسقط الدولة(٧٢) . تلك كانت دورة الزمن بالنسبة لروما ، والمرابطين والموحدين فى أسبانيا ، والإسلام فى مصر وسوريا والعراق وفارس ، وهى تجرى دائماً على هذا المنوال(٧٣) .

تلك هى قلة قليلة من آلاف الأفكار التى جعلت من « مقدمة ابن خلدون » أشهر نتاج فلسفى فى القرن الذى عاش فيه . وكان لابن خلدون أفكاره الخاصة به فى كل شىء تقريباً ، فيما عدا الدين الذى يرى أنه ليس من الحكمة أن يكون فيه مبتكراً . وعلى حين أنجز عملا ضخماً من أمهات الكتب فى الفلسفة يصرح بأن الفلسفة خطيرة ، وينصح قراءه بأن يتركوها وشأنها(٧٤) ، ويحتمل أنه قصد ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) واللاهوت ، أكثر مما قصد

الفلسفة بمعناها الأوسع ، كمحاولة لرؤية أحوال الإنسان من وجهة نظر أكثر شمولا . إنه يتحدث فى بعض الأحيان كما تتحدث أبسط امرأة عجوز فى السوق ، فيسلم بالمعجزات والسحر ، و « العين الشريرة » ، والخواص الغامضة لحروف الهجاء ، ونبوءات الأحلام ، والأمعاء ، أو طيران الطيور(٧٥) . وهو مع ذلك يعجب بالعلوم ، ويقر بتفوق اليونان على المسلمين فى هذا المضمار ، ويرثى لتدهور الدراسات العلمية فى الإسلام(٧٦) . ويستنكر الكيمياء القديمة — ويعترف بشيء من الإيمان بالفلك(٧٧) .

وثمة سقطات معينة أخرى يجدر إيرادها . ذلك أنه على الرغم من ابن خلدون كان رحب الأفق ، قدر رحابة الإسلام ، إلا أنه شاطر الإسلام كثيراً من تحديداته ، فلم يجد فى مجلدات مقدمته الثلاثة إلا سبع صفحات للكلام عن المسيحية . ولم يورد ذكر اليونان والرومان وأوربا فى العصور الوسطى إلا عرضاً . وعندما دون تاريخ شمال أفريقية ومصر الإسلامية والشرقين الأدنى والأوسط ، اعتقد بذلك أنه قد روى « تاريخ الشعوب(٧٨) . وهو فى بعض الأحيان جاهل جهلا معيباً يؤاخذ عليه ، فيذهب إلى أن أرسطو كان يعلم من رواق وسقراط من دن(٧٩) . إن كتابته الفعلية فى التاريخ تتخلف كثيراً عن مقدمته النظرية ، ومجلداته عن البربر والشرق عبارة عن سجل جاف موحش لأنساب الأسرات وتسلسلها ، ودسائس القصر ، والحروب الصغيرة . ومن الواضح أنه قصد أن تكون هذه المجلدات تاريخاً سياسياً فحسب ، وكتب المقدمة بوصفها تاريخاً للثقافة ، ولو أنها على الأرجح نظرة عامة فى الثقافة .

ولكى نستعيد تقديرنا وإجلالنا لابن خلدون ، حرى بنا أن نتساءل فقط عن أى عمل مسيحى فلسفى فى القرن الرابع عشر يمكن أن يضارع « المقدمة » . وربما كان بعض المؤلفين القدامى قد تناولوا جانباً من هذا الميدان الذى طرقه ابن خلدون . وكان أحد أبناء جلدته ، وهو المسعودى (المتوفى ٩٥٦) قد

عالج فى كتاب مفقود الآن ، تأثير الدين والاقتصاد والسلوك والبيئة على شخصية الشعب وقوانينه ، كما تناول أسباب الاضمحلال السياسى[٨٠] .
ومهما يكن من أمر فقد أحس ابن خلدون ، وله بعض الحق ، أنه خالق علم الاجتماع . إننا لا نستطيع ، فى أى أدب كان قبل القرن الثامن عشر ، العثور على فلسفة للتاريخ ، أو على منهج لعلم الاجتماع ، يمكن أن يبارى فى قوته ومداه ودقة تحليله منهج ابن خلدون . إن رائد فلسفة التاريخ فى عصرنا قد حكم على مقدمة ابن خلدون بأنها أعظم تأليف من نوعه أنتجه عقل بعد فى أى زمان أو مكان[٨١] . وقد يقارن به كتاب هربرت سبنسر « مبادىء علم الاجتماع » ١٨٧٦ — ١٨٩٦ ، ولكن كان لسبنسر معاونون كثيرون . إننا على أية حال قد نتفق مع مؤلف ممتاز مشهور فى تاريخ العلوم « على أن أهم مؤلف تاريخى فى العصور الوسطى »[٨٢] هو مقدمة ابن خلدون .

الفصل الحادي والثلاثون

سليمان القانونى

١٥٢٠ — ١٥٦٦

١ — الإسلام فى أفريقية : ١٢٠٠ — ١٥٦٦

إنه من العسير علينا ، نحن المحصورين فى العالم المسيحى ، أن ندرك أنه منذ القرن الثامن إلى القرن الثالث عشر ، كان الإسلام متفوقاً على أوربا من النواحى الثقافية والسياسية والعسكرية . وحتى فى أيام اضمحلاله فى القرن السادس عشر ، ساد من دلهى وما وراءها حتى كازابلانكا ، ومن أدرنه إلى عدن ، ومن تونس إلى تمبكتو . ويحدثنا ابن بطوطة الذى زار السودان ١٣٥٣ أنه وجد هناك حضارة مشرقة تحت راية الإسلام ، وكتب بعد ذلك مؤرخ من السود هو عبد الرحمن السعدى (١٦٥٠) ، تاريخاً كشافاً بارعاً ، يصف مكتبات خاصة تضم ١٦٠٠ مجلد فى تمبكتو ، ويصف المساجد الضخمة التى تشهد أطلالها بمجد غابر .

وحققت أسرة المارينى (١١٩٥ — ١٢٧٠) الاستقلال لبلاد المغرب ونهضت بفاس ومراكش إلى مصاف المدن الكبرى ، وكان فى كل منهما مداخل جليلة ومساجد مهيبة ومكتبات عامرة بذخائر العلم والمعرفة ، ومدارس قائمة وسط أعمدة ظليلة ، وأسواق صاخبة يمكن أن يشترى المرء منها أى شىء بنصف الثمن . وكان يقطن فاس فى القرن الثالث عشر نحو ١٢٥,٠٠٠ نسمة ، وربما كان هذا أكبر من سكان أية مدينة فى أوربا ، باستثناء القسطنطينية وروما وباريس . وفى مسجد القيروان وهو مقر أقدم جامعة فى المغرب درس الدين والعلوم جنباً إلى جنب ، وقد جذبت هذه الجامعة إليها الطلبة المتعطشين من كل بقاع الإسلام فى أفريقية ، والمعلمين

والمحامين ورجال الدين ورجال الحكم ، ليدرسوا مناهج شاقة لمدة تتراوح بين ثلاث سنين واثنتى عشرة سنة . وكان الأمير يعقوب الثانى الذى حكم بين ١٢٦٩ — ١٢٨٦ من فاس أو من مراكش ، من أكثر الأمراء استنارة فى قرن تقدمى . وكان حاكماً عادلا ومحسناً خيراً حكيماً ، لطف الدين بالفلسفة ، ونأى بنفسه عن التعصب الأعمى ، وشجع الاتصال الودى بالأوربيين . واستقبلت هاتان المدينتان كثيراً من اللاجئين من أسبانيا ، وأحضر هؤلاء معهم حوافز جديدة للاستزادة من العلوم والفنون والصناعة . وإن ابن بطوطة الذى كان قد رأى معظم العالم الإسلامى المترامى الأطراف ليسمى مراكش « جنة الدنيا » .

ويدهش السائح الحديث فى طريقه من فاس إلى وهران ، عندما يجد فى تلمسان بقايا متواضعة لما كان فى القرن الثالث عشر مدينـــة تضم ١٢٥٫٠٠٠ نسمة . وكان بها ٦٤ مسجدا بقى منها ثلاثة فقط : الجامع الكبير (١١٣٦) ، ومسجد أبى الحسن (١٢٩٨) ومسجد الحـــلاوى (١٣٥٣) وهى من أجمل المساجد فى العالم الإسلامى ، فيها أعمدة الرخام والفسيفساء المعقدة ، والمحاريب الرائعة ، الساحات ذوات العقود والخشب المحفور والمآذن السامقة ، وهى باقية لتكون شاهدا على العظمة الغابرة التى كادت أن تنسى . وهنا احتفظت أسرة عبد الواحد لمدة ثلاثة قرون (١٢٤٨ — ١٣٣٧ ، ١٣٥٩ — ١٥٥٣) بحكم كفل للمسيحيين واليهود الحرية الدينية ، كما رعت الآداب والفنون ، وبعد أن استولى الأتراك على المدينة ، فقدت أهميتها كمركز للتجارة ، واضمحلت وانزوت فى ظلال التاريخ .

وإلى الشرق من المغرب ، ازدهرت الجزائر بفضل مزيج من التجارة والقرصنة . وقام ثغر الجزائر الجميل ، نصف مختبئ فى خليج نصف دائرى تحف به الصخور ، المؤلف من طبقات بعضها فوق بعض من شقق

وقصور تمتد من البحر المتوسط إلى كسبه ، نقول هيأ هذا الثغر للقرصان ومراكبهم مخبأ آمناً مفضلا لديهم ، وحتى منذ أيام بومبى كان قرصان هذا الشاطئ يغيرون على المراكب العزل . ومنذ ١٤٩٢ أصبحت الجزائر ملجأ للمغاربة المسلمين الفارين من أسبانيا . وقد التحق كثير منهم بسفن القراصنة ، وانقضوا بسورة الانتقام على أية سفن مسيحية يتربصون لها . وتضاعف عدد القرصان واشتدت جرأتهم ، فكونوا أساطيل قوية فى مثل قوة الأساطيل الوطنية وأغاروا على الشواطئ الشمالية للبحر المتوسط ، فردت أسبانيا على ذلك بحملات وقائية استولت على وهران والجزائر وطرابلس (١٥٠٩ — ١٥١٠) .

ودخل الميدان فى ١٥١٦ قرصان جبار نشيط ، أطلق عليه الإيطاليون لقب بربروسه ، بسبب لحيته الحمراء ، واسمه الحقيقى خير الدين خضر . وكان يونانياً من لسبوس حضر مع أخيه هورش Horash لينخرط فى سلك القرصان . وعلى حين وصل بنفسه إلى مرتبة القيادة فى الأسطول ، قاد هورش جيشاً ضد الجزائر ، وطرد الحامية الأسبانية ونصب نفسه حاكماً على المدينة ، ومات أثناء القتال (١٥١٨) ، فاحتل خير الدين مكان أخيه ، وأدار شئون الحكم بقوة ومهارة . وقصد خير الدين ، رغبة منه فى تثبيت مركزه ، إلى القسطنطينية حيث عرض على السلطان سليم الأول السيادة على طرابلس وتونس والجزائر فى مقابل قوة تركية كافية للاحتفاظ بسلطانه بوصفه حاكماً من قبل السلطان على هذه الأقاليم . ووافق سليم ، وأكد سليمان هذه الاتفاقية . وفى ١٥٣٣ أصبح خير الدين بطل الإسلام فى الغرب بأن هيأ لسبعين ألفاً من المغاربة العبور إلى أفريقية من أسبانيا القاسية غير المضيافة . ولما عين بربروسه أول قائد عام للأسطول التركى برمته ، أغار بأربع وثمانين سفينة تحت إمرته على المدينة تلو المدينة على شواطئ صقلية وإيطاليا ، وأسر آلافاً من المسيحيين بيعوا بيع الرقيق . ورسا بربروسه قرب نابلى ،

وكاد ينجح فى أسر جيوليا جنزوجا كواونا التى اشتهرت بأنها أجمل سيدة فى إيطاليا ، إلا أنها فرت شبه عارية ممتطية جواداً ، وبمعيتها فارس واحد بوصفه حارساً لها ، فلما وصلت إلى المكان المقصـــود أمرت بإعدامه لأسباب أغفلت ذكرها ويمكن استنتاجها .

ولكن بربروسه كان يهدف إلى غنيمة أبقى على الأيام من سيدة جميلة ، فأنزل إلى البر جنوده الانكشارية ، وتقدم نحو تونس (١٥٣٤) . وكانت أسرة بنى النفيس قد حكمت تلك المدينة حكماً صالحاً منذ ١٣٣٦ ، وازدهرت الآداب والفنون تحت رعايتهم ، ولكن مولى حسن الذى كان أميراً آنذاك ، كان قد باعد بينه وبين الأهالى بوحشيته وقساوته ، وما أن اقترب بربروسه حتى لاذ الأمير بالفرار فسقطت تونس دون إراقة الدماء . وضمت إلى ملك آل عثمان ، وأصبح بربروسه سيد البحر المتوسط .

ووقع العالم المسيحى فى محنة ثانية ، لأن الأسطول التركى كان يستطيع فى أية لحظة أن يهيئ للإسلام الدخول إلى جنوب إيطاليا . ومن الغريب حقاً أن فرانسوا الأول (ملك فرنسا) كان متحالفاً إذ ذاك مع تركيا ، كما كان البابا كليمنت السابع حليفاً لفرنسا . ومن حسن الحظ أن كليمنت قضى نحبه (٢٥ سبتمبر ١٥٣٤) فخلفه البابا بول الثالث الذى تعهد لشارل الخامس بالمال اللازم لمهاجمة بربروسه ، وعرض أندريه دوريا تعـــاون أسطول جنوه تعاوناً كاملا فى هذه الحملة . وفى ربيع ١٥٣٥ جمع شارل الخامس فى كاجلياري فى سردينيا ٤٠٠ سفينة وقوة قوامها ثلاثون ألف رجل . وعبر البحر المتوسط ، وحاصر لاجولتا ، وهو حصن يسيطر على خليج تونس ، وسقط الحصن بعد قتال دام شهراً ، وتقدم الجيش الإمبراطورى نحو تونس . وحاول بربروسه وقف تقدمه ، ولكنه هزم ولاذ بالفرار . وحطم الأرقاء المسيحيون فى تونس أغلالهم وفتحوا الأبواب ، ودخل شارل المدينة دون مقاومة ، وأباح لجنـــوده السلب

والنهب لمدة يومين ، حتى لا يتمردوا . فلقى آلاف من المسلمين حتفهم . ودمرت حصيلة قرون من الفنون فى يوم أو يومين ، وحرر الأرقاء المسيحيون وسط مظاهر الابتهاج ، ووقع براثن العبودية من بقى من السكان المسلمين . وأعاد شارل الأمير مولى حسن كحاكم تابع يؤدى له الجزية ، وأبقى حامية فى كل من بونا ولاجولتا ، وعاد هو إلى أوربا .

فر بربروسه إلى القسطنطينية ، وبنى بأموال من سليمان أسطولا جديدا مكوناً من مائتى سفينة . وفى يولية ١٥٣٧ ألقت هذه القوات مراسيها فى تارنتو ، وضرب الحصار على العالم المسيحى ثانية . وتشكلت « العصبة المقدسة » من جديد من البندقية والبابوية والإمبراطورية ، وجمعت مائتى سفينة بعيدا عن كورفو ، وفى ٢٧ سبتمبر اشتبك الأسطولان المتصارعان فى القتال عند مدخل خليج أمبراسيا ، فى نفس المياه التى التقى فيها أنطونيوس وكليوباترة مع أكتافيوس فى معركة أكتيوم . وكانت الغلبة لبربروسه ، وأصبح مرة أخرى سيد البحار ، وسار شرقاً واستولى فى طريقه على ممتلكات البندقية فى بحر إيجه واليونان بعضها إثر بعض ، وأرغم البندقية على عقد صلح منفرد .

وحاول شارل أن يكسب بربروسه للالتحاق بخدمته بما أغدق عليه من هدايا ، وبما عرض عليه من أن يكون ملكاً تابعاً له على شمالى أفريقية ، ولكن خير الدين آثر جانب الإسلام وإغراءه . وفى أكتوبر ١٥٤١ قاد شارل ودوريا حملة ضد الجزائر ، ولكن جيش بربروسه أوقع بها الهزيمة فى البر كما هبت عليها عاصفة مدمرة فى البحر ، ورد بربروسه على العدوان بالمثل ، بالإغارة على كالابريا والنزول فى أوستيا ثغر مدينة رومه ، وارتعدت العاصمة الكبيرة فى عقر دارها فرقاً ، ولكن بول الثالث كان آنذاك على علاقات حسنة مع فرانسوا فعوض بربروسه ، ادعاء بمجاملة حليفه عن كل ما أخذه من أوستيا نقداً ، ورحل عنها فى سلام[1] : وأبحر إلى طولون ،

حيث لقى أسطوله ترحيباً ممن كانوا فى الواقع فرنسيين ، وطلب أن تكف أجراس الكنيسة عن القرع طالما كانت « سفن الله » فى الميناء لأن أصواتها تقض مضجعه ، وكان مطلبه قانوناً . واشترك مع أسطول فرنسى فى الاستيلاء على نيس وفيلفرانش من الإمبراطور . وفى سن السابعة والسبعين اعتزل القرصان المنتصر الظافر تحيط به كل مظاهر الإجلال والتكريم ، ليقضى نحبه فى فراشه ١٥٤٦ ، وقد بلغ الثمانين .

وسقطت بونا ولاجولتا ثانية فى أيدى المسلمين . ووصلت الإمبراطورية العثمانية من الجزائر إلى بغداد . ولم تجرؤ سوى دولة إسلامية واحدة على تحدى سيطرتها على العالم الإسلامى .

٢ — فارس تحت حكم الصفويين
١٥٠٢ — ١٥٧٦

إن بلاد فارس التى كانت قد نعمت بفترات كثيرة من الخصب الثقافى ، كانت الآن تمر بحقبة أخرى من الحيوية السياسية والابداع الفنى . وعندما أسس الشاه إسماعيل الأول الأسرة الصفوية (١٥٠٢ — ١٧٣٦) كانت فارس تعانى فوضى التمزق بين ملوك ضعاف ، فكان العراق ويزد وسافان وفيروزكه ودياربكر وكاشان وخراسان وقندهار وبلخ وكرمان وأذربيجان ، كلها ولايات مستقلة بعضها عن بعض . وفى حملات جبارة لا ترحم ، غزا إسماعيل أمير أذربيجان معظم هذه الإمارات واستولى على هراة وبغداد ، وجعل ثانية من تبريز عاصمة لمملكة قوية . ورحب الناس بهذه الأسرة من بنى جلدتهم ، تلك الأسرة التى تألق مجدها فيما أسبغت على البلاد من وحدة وقوة ، وعبروا عما يختلج فى نفوسهم ببعث جديد للفن الفارسى .

إن لارتقاء إسماعيل إلى الملك قصة لا تصدق ، ذلك أنه كان فى سن الثالثة عندما مات أبوه (١٤٩٠) ، وفى الثالثة عشرة شرع يكسب لنفسه عرشاً ، وفى نفس السن لبس التاج وصار شاه فارس . ويصفه المعاصرون

بأنه « شجاع مثل ديك المصارعة الصغير » ، « نشيط رشيق مثل الساطير » (من آلهة الغابات عند الإغريق له ذيل وأذنا فرس) ، قوى عريض المنكبين ، ذو شوارب رهيبة ، وشعر أحمر براق ؛ وكان يستخدم ببراعة سيفاً جباراً بيده اليسرى . وكان فى الرمى بالقوس أوديسيوس آخر ، يصيب بقوسه سبع تفاحات من عشر مرصوصة على صف واحد[٢]. ويروى أنه كان « أنيساً لطيفاً كالبنت » ، ولكنه قتل أمه (أو زوجة أبيه) ، كما أمر بإعدام ٣٠٠ من المومسات فى تبريز ، وذبح الآلاف من الأعداء[٣]. وقال سائح هندى إنه كان محبوباً لدى الشعب حتى « نسى اسم الله » فى فارس ولم يذكر إلا اسم إسماعيل وحده[٤] .

وكمن سر نجاح إسماعيل فى الدين والجرأة . وكان المذهب الشيعى هو السائد فى فارس ، أى « أشياع » على ، صهر محمد أو زوج ابنته ، ولم يعترف الشيعة بخلفاء شرعيين غير على وخلفائه الاثنى عشر وهم « الأئمة » ، ولما كان الدين والحكومة غير منفصلين فى الإسلام ، فإن لمثل هذا الخليفة ، طبقاً لهذه النظرية حقاً إلهياً فى الجمع بين السلطتين الدينية والزمنية . وكما اعتقد المسيحيون أن المسيح سوف يعود ليؤسس مملكته على الأرض ، كذلك اعتقد الشيعة أن الإمام الثانى عشر — محمد بن الحسن — لم يمت قط ، وأنه سوف يظهر من جديد فى يوم من الأيام ليقيم حكمه المبارك على الأرض . وكما أدان البروتستانت الكاثوليك بأنهم ارتضوا التقاليد جنباً إلى جنب مع الكتاب المقدس كدليل أو مرشد إلى العقيدة الصحيحة ، كذلك اتهم الشيعة أهل السنة — وهم الغالبية الذين يعتنقون العقيدة الإسلامية الصحيحة ، الذين وجدوا أن الطريق المستقيم ليس فى القرآن وحده بل كذلك فى كل ما أتى الرسول كما جاء فى تقاليد أصحابه وأتباعه . وكما ترك البروتستانت الصلاة على القديسين وأغلقوا الأديرة ، لم يشجع الشيعة التصوف وأغلقوا أروقة الدراويش ، التى كانت مثل أديار أوربا فى بدايتها ، مراكز لكرم الضيافة

والبر والإحسان ، وكما أطلق البروتستانت على مذهبهم اسم « الدين الحق » ، اتخذ الشيعة اسم « المؤمنين »[٥] (المعتقدون الحقيقيون) . ولا يؤاكل الشيعى المتمسك بمذهبه سنياً أبداً ، وإذا وقع ظل مسيحى على طعام شيعى وجب أن ينبذ الطعام على أنه دنس [*][٦] .

وادعى إسماعيل أنه من نسل الإمام السابع « صفى الدين » (نقاء العقيدة) ، وباسمه سميت الأسرة الجديدة . وأعلن إسماعيل أن المذهب الشيعى هو المذهب الوطنى والرسمى لفارس ، وأنه الراية المقدسة التى حارب فى ظلها ، ومن ثم وحد قومه فى إخلاص يتسم بالتقى والورع ضد المسلمين السنيين الذين طوقوا فارس — الأوزبك والأفغان فى الشرق ، والعرب والأتراك والمصريين فى الغرب . ونجحت خطته . وكان شعبه يعبده على أنه قديس (ولى من أولياء الله الصالحين) ، وكان رعاياه يثقون فى قوته الإلهية لحمايتهم ، إلى حد أن بعضهم رفض أن يلبس الدرع فى المعركة[٧] .

وما أن فاز إسماعيل بهذا السند الملتهب حماسة — وهو الشعب — حتى أحس أنه من القوة بحيث يستطيع أن يتحدى جيرانه . وكان الأوزبك الذين حكموا بلاد ما وراء النهر ، قد بسطوا سلطانهم حتى خراسان ، فانتزع منهم هراة وطردهم من فارس ، ولما اطمأن إلى سلامته فى الشرق ولى وجهه شطر الغرب ضد العثمانيين . واضطهد كل من الطرفين الآخر آنذاك بقوة مقدسة . وقيل فى رواية غير موثوقة إن السلطان سليماً قتل أو سجن ، قبل الذهاب إلى القتال (١٥١٤) ، أربعين ألفاً من الشيعة فى نطاق مملكته ، وإن إسماعيل شنق بعض السنيين الذين كانوا يشكلون الغالبية فى تبريز ، وأمر الباقين بأن يرتلوا يومياً أدعية يلعنون فيها الخلفاء الثلاثة الأولين على

(*) تلك مبالغات من المؤلف ، أثبتناها لمجرد الأمانة فى النقل ، ولعل القارئ لا يعيرها التفاتاً . (المترجم)

اعتبار أنهم اغتصبوا حق على فى الخلافة . ومهما يكن من أمر ، فإن الفرس وجدوا الشيعة فى معركة جالديران عاجزين أمام مدفعية سليم العبوس وجنده الانكشارية ، واستولى سلطان العثمانيين على تبريز ، وأخضع شمالى أرض الجزيرة (١٥١٦) ، ولكن جيوشه تمردت ، فتقهقر وعاد إسماعيل إلى عاصمة ملكه تحف به كل عظمة ومجد يمكن أن يحاط بهما ملك عسكرى . وانحط الأدب أثناء حكمه المضطرب القلق ، ولكن الفن ازدهر تحت رعايته ، فقد كان يرعى المصور بهزاد ، وقدر أنه يساوى نصف فارس(٨) . ومات إسماعيل فى سن الثامنة والثلاثين ، بعد أن قضى فى الحكم ٢٤ عاماً . وخلف عرشه لابنه البالغ من العمر عشر سنوات ١٥٢٤ .

وكان الشاه طهماسب الأول ضعيف الإيمان جباناً ، سوداوى المزاج كئيباً مترفاً منغمساً فى اللذات ، وقاضياً خشنا ، يرعى الفنون ويمارسها ، شيعيا تقيا ، كما كان معبود شعبه ، وربما تحلى ببعض فضائل أخفاها عن عيون التاريخ . إن التوكيد المستمر على الدين أرباك الحكومة كما قواها ، وذلك أنه من أجل الدين شنت الحرب اثنتى عشرة مرة ، وظل العالم الإسلامى فى الشرقين الأدنى والأوسط ممزقا متنابذاً من ١٥٠٨ إلى ١٦٣٨ ، وأفاد العالم المسيحى من هذه الفرقة ، حيث انقطع سليمان القانونى عن شن هجماته على الغرب ، ووجه حملاته نحو فارس . وفى ذلك كتب سفير فرديناند فى القسطنطينية يقول : « إن فارس هى التى تقف حائلا بيننا وبين الدمار »(٩) . وفى ١٥٣٣ قاد الوزير الأكبر إبراهيم باشا جيشا تركياً نحو أذربيجان ، واستولى فى طريقه على الحصون الواحد تلو الآخر ، بتقديم الرشوة إلى القواد الفرس ، وأخيراً استولى على تبريز وبغداد دون أن يضرب ضربة واحدة (١٥٣٤) . وبعد أربع عشرة سنة ، وفى أثناء هدنة مع فرديناند ، قاد سليمان جيشاً آخر ضد « الرءوس الحمراء الوضيعة » (وهو الاسم الذى أطلقه الاتراك على الفرس) ، وانتزع

إحدى وثلاثين مدينة ، ثم استأنف هجماته على العالم المسيحى . وفيما بين عامى ١٥٢٥ ، ١٥٤٥ ، عاود شارل المفاوضة مع فارس المرة بعد المرة ، بافتراض التنسيق بين المسيحيين والفرس للوقوف فى وجه سليمان . وابتهج الغرب حين تولت فارس الهجوم وانتزعت أرضروم . ولكن سليمان عاد فى ١٥٥٤ واكتسح مساحات كبيرة من فارس ، وأرغم طهماسب على عقد صلح بقيت مقتضاه بغداد والقسم الأدنى من أرض الجزيرة تحت حكم الأتراك .

وثمة شيء أكثر إمتاعاً من هذه الصراعات الكئيبة تلك هى الرحلات الجريئة المغامرة التى قام بها أنطونى جنكنسون إلى بلاد ما وراء النهر وفارس ، بحثاً عن طريق برى إلى الهند والصين ، وكان مسلك إيفان الرهيب فى هذا الموضوع لطيفاً ودياً ، فقد رحب بجنكنسون فى موسكو ، وبعث به سفيراً له لدى حكام الأوزبك فى بخارى ، ووافق على السماح بدخول البضائع الإنجليزية إلى روسيا معفاة من الرسوم الجمركية ، ومرورها فى نهـر الفولجا عبر بحر قزوين . وكتبت للرحالة النجاة من عاصفة هوجاء فى هذا البحر ، واصل بعدها الرحلة إلى فارس ووصل إلى قزوين سنة ١٥٦١ . وهناك سلم طهماسب رسائل التحية من ملكة بعيدة ، بدا للفرس أنها سيدة قليلة الشأن تحكم قوما من الهمج ، وكان الفرس ميالين إلى عقد اتفاقية تجارية ، ولكنهم عندما أعلن جنكنسون أنه مسيحى ، أمروه بمغادرة البلاد ، قائلين : « ليس بنا من حاجة إلى مصادقة الكفار » . وبعد أن انصرف من حضرة الشاه ، جاء أحد الخدم فغطى بالرمل المطهر آثار أقدام المسيحى التى دنست قصر الشيعة(١٠) .

وبموت طهماسب (١٥٧٦) انفضت أطول فترة حكم لأى من الحكام المسلمين عدا واحدا . ولكنها فترة من أشد الفترات امتلاء بالنكبات . ولم يتميز هذا العهد بأية آداب يعتز بها الفرس فى ذاكرتهم ، إذا لم تستثن

مذكرات بابر Babur الذى أبعد عن بلده . ولكن الفن على عهد الصفويين ، ولو أنه سيبلغ ذروته متأخرا عنهم ، بدأ فى هذين العهدين (عهد إسماعيل وابنه) ينتج أعمالا تتسم بالعظمة والتألق والنقاوة التى تميزت بها منتجات فارس الغنية لمدة اثنين وعشرين قرنا . وقد أبرزت مقبرة « هارون الولاية » فى اصفهان كل ما أودع فى الرسم الكلاسيكى الفارسى من دقة ورقة ، وأزهى الألوان ، وتقطيع الفسيفساء الخزفية المزخرفة . كما توج بوابة مسجد الجمعة الكبير نصف قبة معقدة . وأسس كذلك فى هذا العصر فى شيراز « مسجد جامع » آخر ، ولكن الزمن لم يبق على شئ منه .

وثمة أمثلة كثيرة دلت على أن أشغال التذهيب الدقيقة والخط صمدت على تعاقب الزمن أكثر مما صمدت آثار العمارة ، وبرزت العناية التى بذلها المسلمون فى إخراج الكتاب (المخطوطات) حتى كادت تجعل منه معبوداً يحوطه الإجلال والحب . إن العرب الذين كانوا فخورين بكل شيء افتتنوا افتتاناً مستساغاً مغفوراً لهم بحروف الهجاء عندهم ، تلك الت وهبت لهم من نفسها سطوراً من جمال حسى . فالفرس ، فوق كل شيء جعلوا من الخط فناً لتزيين محاريب مساجدهم وأبوابهم ، والمعادن التى يصنعون منها أسلحتهم ، والفخار الذين يصنعون منه أعمال الخزف ، ونسيج سجاجيدهم ، ثم المصاحف ودواوين الشعراء ، وكل أولئك تعتز به الأجيال على أنه متعة للعين وبهجة للنفس . أما خط « النستعليق(*) Nastaliq »

(*) للخط العربى أسلوبان رئيسيان هما الكوفى والنسخ . عرفهما المسلمون فى القرن السابع الميلادى وهو مبدأ التاريخ الإسلامى . وأدخل على هذين النوعين بعض التعديل على مر العصور فى بعض أنحاء العالم الإسلامى ، وظهر فى القرن الثالث عشر الميلادى فى إيران نوع من الخط يعرف بالتعليق ومن مميزاته ميل حروفه من اليمين إلى اليسار فى اتجاهها من أعلى إلى =

(أو الخط المائل) الذى كان قد ازدهر فى عهد التيموريين فى تبريز وهراة وسمرقند ، فقد عاد إلى تبريز على عهد الصفويين ، وذهب معهم إلى اصفهان . وكما ضم المسجد عديداً من الفنون بعضها إلى بعض ، كذلك جمع الكتاب بين الشاعر والخطاط ورسام المنمنمات والمجلد (الذى يقوم بالتجليد) فى تعاون يتسم بالتفانى والإخلاص والورع .

وظل فن التذهيب مزدهراً فى بخارى وهراة وشيراز وتبريز . ويضم متحف الفنون الجميلة فى بوسطن مخطوطة رائعة لشاهنامة الفردوسى ، بإمضاء عراجى محمد القوام الشيرازى (١٥٥٢) ، وفى متحف كليفلند نسخة أخرى من عمل مشهدى الكاتب (١٥٣٨) ، ويضم متحف المتروبوليتان للفن فى نيويورك نموذجاً من أروع نماذج التذهيب والخط فى تبريز ، وهى صحيفة العنوان فى مخطوطة «المنظومات الخمس» لنظامى (١٥٢٥) . وانتقل مركز التذهيب الإسلامى إلى تبريز حين اختارها بهزاد مقراً له (١٥١٠) . وفى أثناء معركة جالديران خبأ الشاه إسماعيل الصفوى المصور بهزاد والخطاط محمود النيسابورى فى كهف ، بوصفهما أثمن ما يمكن أن يقتنى[١١] . ورسم أقاميرك ، تلميذ بهزاد ، فى تبريز واحدة من أروع المنمنمات فى هذا العصر ، وهى صورة « تتويج خسرو وشيرين » (١٥٣٩) وهى محفوظة الآن فى المتحف البريطـانى . وعلم ميرك بدوره الفن لتميذه « سلطان محمد نور الذى ولد فى أسرة غنية ، ولكنه تجاهل حقيقة أن لديه من الوسائل ما يستطيع معها أن يكون لاهياً تافهاً ، فأصبح

= أسفل . وابتكر الخطاط مير على التبريزى فى القرن الخامس عشر « النستعليق » يحتفظ بمميزات النسخ والتعليق معاً . وهو نوع أكثر رشـاقة من غيره من الخطوط » من كتاب الفنون الإسلامية لمؤلفه م . س ديماند ، ترجمة أحمد عيسى ص ٧٦ — ٨٦ ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٤ » . (المترجم)

« اللؤلؤة التى لا تقدر بثمن » فى بلاط شاه طهماسب لأنه فاق كل أهل زمانه فى الخط والتذهيب ، وفى تصميم أغلفة الكتب والسجاجيد ، وفيما بين عامى ١٥٣٩ و١٥٤٣ نسخ مخطوطة المنظومات الخمس لنظامى ووضحها بالرسوم ، وثمة صفحة رائعة فى المتحف البريطانى تمثل الملك خسرو ممتطياً صهوة جواد قرنفلى اللون ، وهو ينعم النظر وسط نقوش النباتات والزهور ذوات اللون الأخضر والأسمر والذهب ، إلى شيرين وهى نصف عارية تستحم فى بركة فضية . وثمة صورة أروع وأزهى ألواناً ، للرسول وقد أسرى به فى السموات السبع على حصانه المجنح « البراق » (ليزور الجنة والنار ! هكذا فى النص الإنجليزى !) والأشكال عبارة عن جمال مجسم ، ولكن المصور تعمد لأسباب دينية ، ألا يكون بها تقاطيع مميزة فردية ، فقد كان الفنان مهتماً بالزخرفة أكثر منه بالتشخيص ، وبالجمال الذى يكون موضع التقدير والاحترام ، وهو جمال يمكن الوصول إليه أحياناً إذا كان ذاتياً أو شخصياً ، أيسر من الوصول إلى الحقيقة التى تفلت دائماً إذا كانت موضوعية . وقد بلغ التذهيب ذروته فى هذه المنمنمات .

وحظيت المنسوجات والسجاجيد بمثل هذه العناية المحببة إلى النفس . ولم يبق شيء من منسوجات هذه العهود ، ولكن المنمنمات تصورها . وتفوق مصممو السجاد وعماله المهرة فى عهد الصفويين ، وبدا أن السجاد عنصر أساسى فى حضارة الإسلام . ولم يجلس المسلمون أو يأكلوا على الكراسى ، ولكن على الأرض المفروشة بالسجاد . وهناك سجادة خاصة للصلاة عليها فى العادة رموز دينية وآيات قرآنية ، يسجد عليها المسلمون فى صلواتهم . وكانت السجاجيد مفضلة كهدايا للأصدقاء أو الملوك أو المساجد ، ولذلك أهدى شاه طهماسب عشرين سجادة كبيرة وكثيراً من السجاجيد الصغيرة من الحرير والذهب إلى السلطان سليم الثانى عند ارتقائه عرش آل عثمان ١٥٦٦ . وثمة معالم مميزة من التصميم حددت سجاد هذا

العصر ، وكأنها بستان ، ففيها رسوم النباتات والأزهار ، ومناظر الصيد والزهريات والرسوم المضلعة والمشجرة أو الرسوم النافرة أو البارزة ، وحول هذه الأشكال الأساسية توجد الزخرفة العربية المتعرجة ، مع أشرطة السحب المستمدة من الفن الصينى ، ورموز ذات معان سرية لدى مبتكرها ، وحيوانات تمثل نمط الحياة ، ونباتات وزهور تعطى أريجاً ممثلا فى خيوط ، وطابعاً بهيجاً ، وسرى فى هذا الكل المعقد منطق فنى ، أو تناغم طباقى فى الخيوط أدق من موسيقى بالسترينا (ملحن موسيقى دينية فى إيطاليا فى القرن السادس عشر) وأجمل من شعر جوديفا(*) .

ويعود تاريخ بعض القطع المشهورة الباقية حتى الآن من السجاد الإيرانى إلى هذا النصف الأول من القرن السادس عشر . وإحداها ذات رسوم بارزة ، بها ثلاثون مليون عقدة من الصوف على سداة من الحرير (٣٨٠ عقدة فى البوصة المربعة) ، ظلت مفروشة لعدة قرون فى أحد مساجد أردبيل ، وهى الآن موزعة بين متحف فكتوريا وألبرت فى لندن ومتحف لوس أنجلوس . وفى أحد أطرافها خرطوشة كتب عليها بيت من شعر حافظ ، وتحته عبارة الفخر : « من صنع العبد . . . . مقصود الكاشانى فى سنة ٩٤٦ هجرية » ، أى ١٥٣٩ م(١٢) . كذلك يوجد فى متحف لوس أنجلوس « بساط التتويج » الهائل الذى استخدم فى تتويج إدوارد السابع ١٩٠١ . وكان من بين أعظم النفائس فى متحف بوالدى بتزوللى فى ميلان ، قبل تدميره فى الحرب العالمية الثانية ، سجادة بها مناظر صيد من صنع غياث الدين جامى من مدينة يزد ، وهو الذى يحتل فى رسوم السجاد مكانة بهزاد فى المنمنمات .

(*) تقول أسطورة إنجليزية إن Godiva طلبت من زوجها لورد كوفنترى رفع الضرائب الباهظة التى يشكو منها الأهالى . فاشترط لتحقيق مطلبها أن تمتطى جوادا وتسير به فى سوق البلدة وهى عارية ، لا يغطى جسمها إلا شعرها . (دائرة المعارف البريطانية)
(المترجم)

أما سجادة « دوق أنهالت » فى مجموعة دوفين فقد حظيت بشهرة عالميــة بأرضيتها الذهبية الصفراء : مع زخرفة عربية رائعة ذات الألوان القرمزى والوردى والأزرق الفيروزى . إن السجاد والكتاب من أعظم المميزات التى تميزت بها فارس على عهــد الصفويين وهى مميزات لا يستطيع أن يتحداها أو يمارى فيها أحد ، وهى تحتل فى ذاكرة الجنس البشرى مكانة رفيعة .

٣ — سليمان القانونى والغرب

خلف سليمان القانونى أباه سليم الأول فى ١٥٢٠ ، وهو إذ ذاك فى سن السادسة والعشرين . وقد كسب لنفسه شهرة لشجاعته فى القتال وكرمه فى صداقته ، وقدرته فى إدارة الولايات التركية . وهيأت له تقاطيعه المليحة وسلوكه المهذب أن يقابل بالترحيب فى القسطنطينية التى شقيت بسليم العبوس ، ووصفه إيطالى رآه عقب توليه العرش مباشرة بأنه طويل نحيل قوى ، ذو عنق طويل جداً ، وأنف متقوس جداً ولحية وشوارب خفيفة ، وبشرة شاحبة رقيقة ، ووجه صارم هادئ ، وبدا وكأنه طالب أكثر منه سلطان[١٣] . ووصفه إيطالى آخر بعد ثمانى سنوات بأنه « شاحب إلى حد رهيب . . . . مكتئب ، زير نساء عجول ، ومع ذلك فهو فى بعض الأحيان وديع مهذب » . أما غسلين دى بوسبك Ghislain de Büsbeq سفير آل هبسبرج لدى الباب العالى ، فقد وصف بطريقة تكاد تكون ودية رقيقة ألد أعداء آل هبسبرج فقال :

> « لقد كان له دائماً طابع الرجل الحذر اليقظ المعتدل . وحتى فى بواكير أيامه ، حين كانت قواعد الحكم فى تركيا تجيز الصفح عن الخطايا ، لم يكن

فى حياته ما يعاب عليه ، لأنه حتى فى أيام شبابه لم يدمن على الخمر ، ولم يقترف أياً من الجرائم غير الطبيعية التى كانت شائعة بين الأتراك ، ولم يستطيع أولئك الذين جنحوا إلى تشويه أعماله وتصرفاته أن يدسوا ضده شيئاً أسوأ من إفراطه فى حب زوجته . . . ومن الحقائق المعروفة جيداً أنه منذ اتخذ منها حليلة شرعية ، كان مخلصاً لها كل الإخلاص ، برغم أنه لا يوجد فى القوانين ما يمنع من اتخاذ خليلات كذلك(١٤) » .

إنه وصف جدير بالملاحظة ، ولكنه يتسم بالملق الشديد . ولا ريب فى أن سليمان كان أعظم وأنبل سلاطين آل عثمان ، وأنه كان يضارع أى حاكم فى عصره من حيث الكفاية والحكمة والخلق ، ولكنا سوف نراه بين الحين والحين موصوماً بالقسوة والحقد والانتقام . ومهما يكن من أمر ، فلنبدأ على سبيل التجربة ، بالنظر إلى صراعه مع العالم المسيحى .

طال أمد الصراع العسكرى بين المسيحية والإسلام آنذاك نحو ٩٠٠ سنة . فقد بدأ حين انتزع العرب المسلمون سوريا من الإمبراطورية البيزنطية (٦٣٤) . واستمر سنة بعد سنة : غزا فيها العرب المسلمون هذه الإمبراطورية ، كما غزا فيها المغاربة المسلمون أسبانيا . وثار العالم المسيحى لهذا الغزو ، وفى الحروب الصليبية التى غطى فيها الطرفان أطماعهما الاقتصادية وجرائمهما السياسية بستار من شعارات دينية وحماس دينى ، انتقم المسلمون بالاستيلاء على القسطنطينية والبلقان وطردت أسبانيا المغاربة . ودعا البابوات الواحد تلو الآخر إلى شن حملات صليبية جديدة ضد الأتراك ، كما أقسم سليم الأول أن يشيد مسجداً فى قلب رومه . واقترح فرانسوا الأول على الدول

الغربية أن تقضى على دولة الأتراك قضاء مبرماً ، وتقتسم ممتلكاتها فيما بينها ، باعتبارها غنائم من الكفار(١٥) . وأحبط هذه الخطة انقسام ألمانيا فى الحروب الدينية ، وثورة الكوميونات (الوحدات الإدارية) الأسبانية ضد شارل الخامس ، ونكوص فرانسوا الأول نفسه عن اقتراحه وتفكيره من جديد فى التماس العون من سليمان ضد شارل . وربما كان لوثر قد أنقذ سليمان ، كما كانت اللوثرية مدينة له بفضل كبير .

إن كل حكومة تكافح لتوسيع رقعتها ، لتزيد من مواردها ودخولها من جهة ، وإيجاد أرض حاجزة حامية بين حدودها وعاصمتها من جهة أخرى . وارتأى سليمان أن أحسن وسيلة الدفاع هى الهجوم ، فاستولى على معاقل المجر فى ساباكس وبلغراد ، ولما سعر بالاطمئنان والأمن فى الغرب ، وجه قواته ضد رودس حيث احتفظ المسيحيون هناك تحت حكم فرسان القديس يوحنا ، بقلعة منيعة تقع مباشرة على الطرق المؤدية من القسطنطينية إلى الإسكندرية وسوريا ، وبدا لسليمان أن هذا معقل خطير أجنبى فى بحر هو بدون هذا المعقل بحر تركى ، والحق أن سفن القرصنة عند الفرسان انقضت على تجارة المسلمين فى أحد طرفى البحر المتوسط(١٦) ، كما انقض قراصنة المسلمين على تجارة المسيحيين فى الطرف الآخر . وكان مصير المسلمين الذبح إذا أسرهم الفرسان فى حملاتهم(١٧) . كما اعترض الفرسان طريق السفن التى تنقل الحجاج إلى مكة ، إذا ساورهم الشك فى أن لها أغراضاً عدائية . ويقول مؤرخ مسيحى : « على أى الأحوال لم يكن سليمان بحاجة إلى ما يبرر الهجوم على رودس »(١٨) . ويضيف مؤرخ إنجليزى مشهور إلى هذا قوله : «كان من مصلحة النظام العام أن تضم الجزيرة إلى مملكة الأتراك »(١٩) .

وشن سليمان هجومه ومعه ثلثمائة سفينة وثلثمائة ألف رجل . واستمر المدافعون عن الجزيرة بقيادة رئيسهم الأكبر العجوز فيليب دى فيليرز دى ليل — آدم (Phiiuppe de Villiers de L'ile-Adam) ، يقاتلون محاصريهم

لمدة ١٤٥ يوماً ، وأخيراً استسلموا بشروط مشرفة ، منها أن يغادر الفرسان وجنودهم الجزيرة فى أمان ، كما يكون ، فى مدى عشرة أيام ، للسكان الباقين الحرية الدينية الكاملة ، مع إعفائهم من الجزية لمدة خمس سنوات ، وفى يوم عيد الميلاد طلب سليمان أن يرى فيليب ، فواساه وامتدح دفاعه الباسل ونفحه هدايا ثمينة ، كما أبدى السلطان لوزيره إبراهيم : « أنه أسف أشد الأسف لاضطراره إلى إرغام هذا المسيحى على أن يغادر فى شيخوخته وطنه وممتلكاته[٢٠]. وفى أول يناير ١٥٢٣ أبحر فرسان القديس يوحنا إلى جزيرة كريت ، ثم غادروها بعد ثمانى سنين إلى وطن أكثر دواماً فى مالطه . ولطخ سليمان انتصاره بإعدام ابن الأمير جم وحفدته الأطفال لأنهم اعتنقوا المسيحية ، وقد يستخدمون ، كما استخدم جم ، فى المطالبة بالعرش العثمانى .

وفى أوائل سنة ١٥٢٥ ، تلقى السلطان سليمان كتاباً من فرنسوا الأول ، كما استقبل أسيراً من لدن شارل الخامس ، يطلبان منه مهاجمة المجر ، والإسراع إلى نجدة ملك فرنسا . فأجاب السلطان : « إن جوادنا مسرج ، وسيفنا معلق به »[٢١] . إنه على أية حال كان عازماً على غزو المجر منذ زمن طويل . فسار فى أبريل ١٥٢٦ بجيش قوامه مائة ألف رجل وثلاثمائة مدفع . وحث البابا كليمنت السابع الحكام المسيحيين ليهبوا لمساعدة الدولة المهددة ، على حين نصح لوثر الأمراء البروتستانت أن يلزموا أوطانهم ؛ لأن من الواضح أن الأتراك زوار من عند الله ، ومقاومتهم هى بمثابة مقاومة الله[٢٢] . وبقى شارل الخامس فى أسبانيا . وكان من نتيجة ذلك هزيمة المجر فى معركة موهاكز ، وكانت للعالم المسيحى هزيمة أدبية ومادية فى وقت معاً ، وكان من الممكن استرداد المجر لو تعاون الكاثوليك والبروتستانت ، والإمبراطور والبابا فى العمل معاً . ولكن الزعماء اللوثريين ابتهجوا بفوز الأتراك . ونهب جيش الإمبراطور رومة .

وفى ١٥٢٩ عاد سليمان فحاصر فيينا بمائتى ألف رجل . ومن برج

سانت ستيفن استطاع كونت نيقولا فون سالم الذى عهد إليه فرديناند بالدفاع عن المدينة — أن يرى السهول والتلال المحيطة بها مغطاة بخيام العثمانيين وجندهم وأسلحتهم . وفى هذه المرة دعا لوثر أتباعه ليشاركوا فى المقاومة ، لأن من الواضح أنه إذا سقطت فيينا ، ستكون ألمانيا هى الهدف الثانى لهجوم العثمانيين . وذاعت الأنباء فى كل أنحاء أوربا أن سليمان أقسم أن يخضع كل أوربا للعقيدة الوحيدة الصحيحة وهى الإسلام . وشق مهندسو الألغام الأتراك الخنادق ، الواحد بعد الآخر ، على أمل نسف الأسوار أو إحداث الانفجارات داخل المدينة ، ولكن المدافعين وضعوا أوعية من الماء فى مواطن الخطر[٢٣] ، وراقبوا الحركات التى قد تدل على العمليات الخفية تحت الأرض . وأقبل الشتاء وعجز خط مواصلات الأتراك الطويل عن توفير المؤن . وفى ١٤ أكتوبر أهاب السلطان برجاله أن يبذلوا محاولة أخيرة حاسمة . ووعد بجوائز ومكافآت سخية ، ولكن الأرواح والأجسام معاً كانت كارهة غير راغبة ، وصد الهجوم مع خسائر فادحة ، وأمر سليمان بالتقهقر ، وقد ملأه الحزن . وكانت أول هزيمة يلقاها ، ولو أنه احتفظ بنصف المجر ، وحمل معه إلى القسطنطينية تاج سانت ستيفن ، وفسر سليمان لشعبه أنه عاد دون أن ينتصر لأن فرديناند (الذى قبع طيلة الحصار آمناً فى براج) كان قد رفض أن يحارب ، ووعد السلطان بأنه قريباً جداً سوف يصيد شارل ذاته ، الذى تجاسر على أن يسمى نفسه إمبراطوراً ، وينتزع منه بالقوة السيادة على الغرب .

ونظر الغرب إلى السلطان ووعيده بعين الجد ، وساد الذعر رومه . وفرض البابا كليمنت السابع ، الذى كان وطيد العزم لأول مرة ، الضرائب حتى على الكرادلة ، لتوفير المال اللازم لتحصين أنكونا وسائر الثغور التى يمكن أن يدخل منها العثمانيون إلى إيطاليا .

وفى أول أبريل ١٥٣٢ تقدم سليمان نحو الغرب مرة أخرى . وكانت

مغادرته العاصمة مشهدا أحسن إخراجه ، فكان يتقدم المسيرة ١٢٠ مدفعاً ، يتبعها ٨٠٠٠ من الانكشارية وهم خيرة جنود المملكة ، وسار بعد ذلك ألف جمل تحمل المؤن ، وألفان من صفوة الخيالة لحراسة الراية المقدسة — نسر الرسول — يتبعهم آلاف من أبناء الأسرى المسيحيين يرتدون ملابس من ذهب ، وقبعات حمراء مزودة بالريش ، يلوحون مزهوين بالحراب فى شجاعة بريئة ، أما حاشية الملك وحرسه فكانوا رجالا أشداء ذوى طلعة بهية ، وامتطى السلطان بينهم جواداً كستنائى اللون مرتدياً القطيفة القرمزية الموشاة بالذهب تحت عمامة بيضاء مرصعة بالأحجار الكريمة . وسار وراءه الجيش الذى يبلغ فى جملته نحو مائة ألف رجل . ومن ذا الذى يستطيع مقاومة مثل هذه الأبهة والقوة ؟ ليس إلا العناصر والزمن !

ولكى يقابل شارل هذا التيار الجارف ، تلقى ، بعد توسلات كثيرة ، منحة من مجلس الديت الإمبراطورى ليجند أربعين ألف رجل وبعد ثمانية آلاف جواد ، وقدم هو وفرديناند بالإضافة إلى ذلك ، ثلاثين ألف رجل على حسابهما الخاص . وبهذه القوة التى تجمعت فى فيينا وعدتها ٧٨٠٠٠ رجل . انتظرا الحصار . ولكن السلطان عوق فى جونز Güns ، وهى مدينة صغيرة محصنة تحصيناً شديداً . ولكن حاميتها لم تزد على ٧٠٠ رجل أحبطوا لمدة ثلاثة أسابيع كل محاولة بذلها الأتراك لاختراق الأسوار التى ضربوها إحدى عشرة مرة ، وفى كل مرة كانت الحامية المدافعة تسد الثغرات بالمعادن والجثث والاستماتة فى الدفاع . وأخيراً أرسل سليمان جواز مرور وبعض الرهائن إلى القائد — نيقولا جوريشتز Jurischitz — يدعوه إلى عقد مؤتمر ، فحضر واستقبله الوزير الأكبر بمظاهر الحفاوة والتكريم ، وقد امتدحوا شجاعته وقيادته ، مع شيء من الحزن والأسى ، وأهداه السلطان رداء الشرف ، وضمن له عدم القيام بأى هجوم آخر ، وأعاده إلى قلعته برفقة حرس رائع من الضباط الأتراك ، وسار إلى فيينا هذا

« السيل الجارف » من الجيش الذى لا يقهر ، والذى أوقع به الهزيمة سبعمائة جل فحسب .

وهناك أيضاً لم يحظ سليمان بفريسته ، فإن شارل لم يكن ليخرج للقتال ، فقد كان من الحمق والغباء أن يضيع مزايا دفاعاته ليقامر بالقتال فى ميدان مكشوف . وقدر سليمان أنه لو كان قد أخفق فى الاستيلاء على فينا التى كان يسيطر عليها عشرون ألف جندى ليس لهم إمبراطور أو ملك ظاهر فى الميدان ، فإنه لا يكاد يحسن صنعاً أمام ٧٨٫٠٠٠ ينفخ فيهم روح الحماسة والحياة ملك كان قد أعلن صراحة وعلى رءوس الأشهاد أنه يرحب بالموت ويستعذبه فى هذا الصراع كخاتمة شريفة نبيلة لهذه الحيـــاة الدنيا ، وهى خاتمة يصبو إليها كل مسيحى . وانصرف السلطان ، وخرب ونهب فى طريقه ستيريا والقسم الأدنى من النمسا ، وأخذ كثيراً من الأسرى ليشرف بهم تقهقره . وربما كان من المزعج له أن يسمع أنه حين كان يتسكع جيئة وذهوباً دون جدوى عبر أراضى المجر ، كان أندريا دوريا قد طارد الأسطول التركى حتى اختفى ، واستولى على بتراس وكورون على شاطئ البلوبونيز .

ولما أرسل فرديناند إلى القسطنطينية مبعوثاً يطلب الصلح رحب به سليمان ، ل إنه سوف يعقد الصلح « لا لمدة سبع سنوات ، ولا لخمس وعشرين سنة ، ولا لمائة سنة ، ولا لقرنين من الزمان ، أو ثلاثة قرون ، ولكن فى الحق إلى الأبد ، إذا لم ينقضه فرديناند نفسه » ، وإنه سوف يعامل فرديناند كابن له[٢٤] . على أنه طلب ثمناً فادحاً ، وهو انه ينبغى على فرديناند أن يرسل إليه مفاتيح مدينة جترو Grau ، رمزاً للخضوع والولاء ، وكان فرديناند وشارل كلاهما متلهفين على تحرير أسلحتهما ضـــد المسيحيين ، إلى حد أنهما كانا مستعدين لتقديم بعض التنازلات للأتراك . وأرسل فرديناند مفاتيح المدينة

وأطلق على نفسه « ابن سليمان » ، واعترف بسيادة سليمان على معظم أراضى المجر (٢٢ يونية ١٥٣٣) . ولم يعقد الصلح مع شارل ، واسترد السلطان بتراس وكورون ، وراوده حلم بسط سلطانه على فيينا وتبريز .

وفى ١٥٣٦ استولى على تبريز ، ثم عاد إلى الغرب . وطرح الدين جانباً ، وارتضى أن يتعاون مع فرانسوا الأول فى حملة أخرى ضد شارل . وعرض على الملك أحسن الشروط وهى أنه لا صلح مع شارل إلا عند تسليم جنوه وميلان وفلاندرز إلى فرنسا ، ثم السماح للتجار الفرنسيين بالإبحار والبيع والشراء داخل نطاق الإمبراطورية العثمانية ، على أن يعامل الأتراك بالمثل ، ومنح قناصل فرنسا فى الإمبرطورية الولاية القضائية المدنية والجنائية على الرعايا الفرنسيين فيها ، كما يتمتع هؤلاء الرعايا بالحرية الدينية الكاملة[٣٥] . وهكذا أصبحت « الامتيازات الأجنبية » كما وقعت فى هذه الاتفاقية ، نموذجاً يحتذى فيما جاء بعد ذلك من معاهدات بين الدول المسيحية ودول الشرق .

ورد شارل على ذلك بتكوين حلف يضم الإمبراطورية والبندقية والبابا . وانضم إليه فرديناند وهكذا أصبح قصير الأمد جداً ما كان مقدراً أن يكون أبدياً . وعانت البندقية وطأة الهجوم التركى وفقدت ممتلكاتها فى بحر إيجه وشاطئ دلماشيا ، ووقعت صلحاً منفرداً (١٥٤٠) . وبعد سنة واحدة توفى دمية سليمان أو تابعه الحاكم فى بودا ، وجعل سليمان من المجر ولاية عثمانية ، وأرسل فرديناند بعثة إلى تركيا تطلب الصلح ، وأخرى إلى فارس تحرض الشاه على مهاجمة الأتراك . فتقدم سليمان نحو الغرب (١٥٤٣) واستولى على جرو وستولوزنبرج ، وضم مزيداً من أراضى المجر إلى الباشا (الحاكم التركى) فى بودا . وفى ١٥٤٧ ، حين كان مشغولا بالفرس ، منح الغرب هدنة لمدة خمس سنوات ، ولكن الطرفين نقضاها . حيث توسل البابا بول الرابع إلى الأتراك أن يشنوا الهجوم على فيليب الثانى الذى

كان بابوياً أكثر من البابوات(٣٦) . وأطاق موت فرانسوا وشارل يدى فرديناند فى الوصول إلى الصلح . وفى صلح براج ١٥٦٢ ، اعترف فرديناند بحكم سليمان فى المجر وملدافيا ، وتعهد بدفع جزية سنوية قدرها ثلاثون ألف دوكات ، ووافق على دفع تسعين ألفاً كمتأخرات .

وبعد عامين آخرين لحق بأخيه . وهكذا بقى سليمان على قيد الحياة بعد موت ألد أعدائه ، وكم من البابوات لم يعمر هو بعدهم ؟ لقد بسط سلطانه على مصر وشمال أفريقية ، وآسيا الصغرى وفلسطين وسوريا ، والبلقان والمجر . وسيطرت البحرية التركية على البحر المتوسط . وأثبت الجيش التركى شجاعته الفائقة شرقاً وغرباً وأثبتت الحكومة التركية جدارتها وقدرتها فى فن الحكم والدبلوماسية ، قدر ما كان لمنافسيها . وفقد المسيحيون رودس وبحر إيجه والمجر ، وعقدوا صلحاً ذليلا مهيناً . وبات العثمانيون آنذاك أكبر دولة فى أوربا وأفريقية ، إن لم يكن فى العالم كله .

٤ — الحضارة العثمانية

أولا — الحكومة :

هل كان العثمانيون متحضرين ؟ الحق أن الانطباع بأن العثمانيين كانوا متبربرين همجيين إذا قورنوا بالمسيحيين ليس إلا وهماً قصد به تقربة الذات . فإن أساليبهم فى الزراعة وعلومهم كانت على الأقل تضارع ما كان منها لدى الغرب . فالأرض كان يفلحها مستأجرون من الرؤساء الإقطاعيين ، الذين كان عليهم فى كل جيل أن يستحوذوا على أراضيهم بخدمة السلطان بطريقة مرضية ، فى الإدارة وفى الحرب . وباستثناء النسيج والخزف . وربما الأسلحة والدروع ، لم تكن الصناعة قد أقامت بعد نظام المصانع ، كما كان الحال فى فلورنسه وفى فلاندرز ، ولكن الحرفيين الأتراك كانوا مشهورين بمنتجاتهم الممتازة . ولم يشعر الأغنياء أو الفقراء بالأسى والحزن

لانعدام النظام الرأسمالى . ولم يبلغ التجار المسلمون فى القرن السادس عشر من النفوذ السياسى أو المركز الاجتماعى ، ما بلغه نظراؤهم فى أوربا الغربية . وتميزت التجارة بين الأتراك بعضهم البعض بالأمانة النسبية ، ولكن بين الأتراك والمسيحيين كان المال مستباحاً : وتركت التجارة الأجنبية فى معظمها للأجانب . وسارت قوافل المسلمين ، فى صبر وجلد ، على الطرق البرية التى كانت معروفة فى العصور القديمة والوسطى ، إلى آسيا وأفريقية ، حتى عبر الصحراء ، وكانت الأنزال الصحراوية ، ومعظمها أسسه سليمان ، تقدم للتاجر أو السائح أماكن للاستراحة على الطريق . وسيطرت سفن المسلمين حتى سنة ١٥٠٠ على الطرق البحرية من القسطنطينية والإسكندرية ، عبر البحر الأحمر إلى الهند وجزر الهند الشرقية ، حيث كان التبادل يتم مع البضائع التى حملتها السفن الشراعية الصينية . وبعد أن فتحت رحلة فاسكودا جاما وانتصارات البوكرك البحرية — فتحت الهند أمام التجار البرتغاليين ، فقد المسلمون سيادتهم على المحيط الهندى ، ودخلت مصر وسوريا وفارس والبندقية طور اضمحلال تجارى عام .

وكان التركى رجل بر وبحر معاً . وكان اهتمامه بالدين أقل من اهتمام معظم سائر المسلمين ، ولكنه كذلك نظر بعين الإجلال والإكبار إلى الصوفية والدراويش والأولياء ، واستمد شريعته من القرآن ، وتلقى تعليمه فى المسجد ، ونبذ فى عبادته ، مثل اليهود ، الصور المنحوتة ونظر إلى المسيحيين على أنهم مشركون وثنيون . وكان الدين والدولة شيئاً واحداً ، وكان القرآن والسنة هما القانون الأساسى . وكان العلماء الذين فسروا القرآن هم أنفسهم أيضاً المعلمين والمحامين والقضاة ورجال القانون فى المملكة . وأمثال هؤلاء العلماء هم الذين جمعوا فى عهد محمد الثانى وسليمان الأول مجموعات القوانين العثمانية النهائية .

وكان المفتى ، أو شيخ الإسلام ، على رأس جماعة العلماء ، وكان أعلى

قاض فى البلاد بعد السلطان والوزير الأكبر . ولما كان الموت حتما مقضياً على السلاطين ، وكانت جماعة العلماء قائمة دوماً ، فإن هؤلاء المشرعين الدينيين هم الذين حكموا الحياة اليومية فى الإسلام . ولما كانوا يفسرون الحاضر على أساس من شرائع الماضى ، فقد تشبعوا بروح المحافظة وأسهموا فى ركود الحضارة الإسلامية بعد وفاة سليمان . وعزز الإيمان بالقضاء والقدر — أو كما يقول الأتراك قسمة الإنسان أو نصيبه — روح المحافظة هذه : أى أنه حيث أن الله قدر لكل نفس حظها ، فإن ضجر الإنسان بما قسم له ضرب من البعد عن الدين والتعمق فيه ، فكل شىء فى هذه الدنيا ، والموت خاصة ، هو من أمر الله ويجب الرضا به دون تذمر أو شكوى . وقام بين الحين والحين من ذوى التفكير الحر من يتحدث بصراحة بالغة ، ولكن نادراً ما كان يحكم عليه بالإعدام . ومهما يكن من أمر ، فإن العلماء عادة أجازوا قدراً كبيراً من حرية الفكر ، ولم يكن فى تركيا الإسلامية محاكم تفتيش .

وتمتع المسيحيون واليهود فى ظل العثمانيين بقدر كبير من الحرية الدينية ، وسمح لهم بتطبيق شرائعهم فى الأمور التى لا يكون المسلمون طرفاً فيها[٢٧] . واحتضن محمد الثانى الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية عمداً ، لأن انعدام الثقة المتبادل بين اليونان والروم الكاثوليك أفاد الأتراك فى مقاومة الصليبيين . وعلى الرغم من أن المسيحيين انتعشوا تحت حكم السلاطين ، فإنهم عانوا ضعفاً شديداً . فقد كانوا فى حقيقة الأمر عبيداً أرقاء ، ولكن كان فى مقدورهم إنهاء هذا الوضع بالدخول فى الإسلام ، وفعل الملايين منهم ذلك . أما الذين رفضوا فكانوا مبعدين عن الجيش ، لأن الحروب الإسلامية كانت فى ظاهرها مقدسة من أجل تحويل الكفار إلى الإسلام . وخضع مثل هؤلاء المسيحيين لضريبة خاصة بدلا من الخدمة العسكرية ، وكانوا عادة فلاحين مستأجرين يدفعون عشر إنتاجهم إلى مالك الأرض ، وكان

لزاماً عليهم أن يقدموا واحداً من كل عشرة أبناء لهم ، حتى ينشأ تنشئة إسلامية فى خدمة السلطان »

وكان السلطان والجيش والعلماء هم الدولة . وإذا وجه السلطان النداء ، جاء كل رئيس إقطاعى ومعه قواته المجندة ليشكلوا فوق الخيالة الذين بلغ عددهم فى عهد سليمان ١٣٠٫٠٠٠ رجل . وكان سفير فرديناند ينظر بعين الحسد إلى أبهة تجهيزاتهم : ملابسهم المصنوعة من البروكار (الحرير المقصب) أو الحرير ذى اللون القرمزى أو الأصفر الفاتح أو الأزرق القاتم ، وأطقم الخيل التى تتألق بالذهب والفضة والجواهر ، فوق أحسن جياد رأتها عينا بوسبك Busbeq وتكونت صفوة المشاة من أبناء الأسرى ودافعى الجزية المسيحيين الذين كانوا ينشأون على خدمة السلطان فى قصره ، أو إدارة البلاد ، وفوق كل شىء فى الجيش ، حيث كانوا يسمون الانكشارية أو العسكر الجديد . وكان مراد الأول قد أنشأ هذه الفرقة الفذة (١٣٦٠) ، كوسيلة لتجريد رعاياه المسيحيين من الشباب الذى يحتمل أن يكون مصدر خطر . ولم يكن عددهم كبيراً — نحو عشرين ألفاً فى عهد سليمان . وكانوا يتلقون تدريباً عالياً على كل المهارات الحربية ، وكان محرماً عليهم الزواج أو الاشتغال بالأعمال الاقتصادية ، ويلقنون الروح العسكرية والجد الحر والعقيدة الإسلامية ، وكانوا شجعاناً فى الحرب ، قدر ما كانوا ساخطين قلقين وقت السلم ، وجاء بعد هؤلاء الجنود المتفوقين ، الميلشيا (جند الطوارئ) ، وكانوا نحو مائة ألف ، أشرف السباهى والانكشارية على تدريبهم وتغذيتهم بالروح العسكرية . وكانت الأسلحة المفضلة لا تزال هى القوس والنشاب والرماح ، وكانت الأسلحة النارية فى بداية استعمالها ، وفى الاشتباكات عن قرب كانت القضبان الشائكة والسيوف القصيرة هى المفضلة . وكان الجيش والعلوم العسكرية على عهد سليمان أفضل ما فى العالم من نوعهما فى ذاك

العصر ، ولم يضارع أى جيش آخر جيش سليمان فى سلاح المدفعية أو فى حفر الخنادق والهندسة العسكرية أو فى النظام والروح المعنوية ، أو فى العناية بصحة الجنود ؛ أو فى تموين الأعداد الهائلة من الجنود على مسافات بعيدة . ومهما يكن من أمر فإن الوسيلة كانت ممتازة لمجرد خدمة غاية معينة ، وأصبح الجيش غاية فى حد ذاته ، حيث كان لزاماً ، للحفاظ على نظامه وكبح جماحه ، أن يخوض الحروب . وبعد سليمان أصبح الجيش ، والانكشارية فوق كل شيء سادة على السلاطين .

وكان المجندون الذين تحولوا إلى الإسلام من أبناء المسيحيين يشكلون غالبية الهيئة الإدارية فى الحكومة التركية المركزية . وكان حقاً علينا أن نتوقع أن يخشى السلطان المسلم أحاطته برجال يحذون « الزعيم الوطنى الألبانى » اسكندر برج ، ويحنون إلى دين آبائهم ، والأمر على النقيض من ذلك ، فإن سليمان آثر هؤلاء المتحولين عن دينهم ، لأن فى الإمكان تدريبهم منذ نعومة أظفارهم على مهام محددة فى الإدارة . والأرجح أن بيروقراطية الدولة العثمانية كانت أقدر ما وجد من نوعها فى النصف الأول من القرن السادس عشر[٢٨] ، ولو كانت عرضة للرشوة بشكل يسيء إلى سمعتها ، وضم الديوان — وهو بمثابة الوزارة فى الحكومات الغربية — كبار رجال الإدارة تحت رئاسة الوزير الأكبر عادة . وكان لهذا الديوان سلطات استشارية أكثر منها تشريعية . وكانت توصياته تصبح عادة قانوناً بمقتضى قانون أو مرسوم من السلطان . وكانت السلطة القضائية يتولاها القضاة والأئمة (كبار القضاة) من العلماء . ولحظ أحد المراقبين الفرنسيين نشاط المحاكم وسرعة البت فى المحاكمات وصدور الأحكام[٢٩] ؛ كما اعتقد مؤرخ إنجليزى كبير أن « سير القضاء فى عهد الحكام العثمانيين الأولين كان فى تركيا أفضل منه فى أية بقعة فى أوربا ، وأن رعايا السلطان المسلمين كانوا أدق نظاماً من معظم

الجاليات المسيحية ، وأن الجرائم كانت أندر»[٣٠] . وكان الانكشارية يقومون بوظيفة الشرطة فى شوارع القسطنطينية التى يحتمل خلوها من حوادث القتل أكثر من أية عاصمة أوربية أخرى[٣١] . وفضلت الأقاليم التى وقعت تحت الحكم الإسلامى — رودس ، اليونان ، البلقان — فضلت هذا الحكم على أحوالها السابقة فى ظل حكم الفرسان أو البيزنطيين أو البنادقة ، حتى بلاد المجر نفسها ارتأت أن الأحوال فيها صارت تحت حكم سليمان إلى أحسن مما كانت عليه أيام آل هبسبرج[٣٢] .

وكانت معظم مكاتب الإدارة فى الحكومة المركزية مستقرة فى « السراى » أى المساكن الإمبراطورية — وهى ليست قصراً ، ولكن مجموعة مبان وحدائق وساحات ، تضم السلطان وحريمه وخدمه ومعاونيه وثمانين ألفاً من البيروقراطية . وكان لهذا النطاق الذى يبلغ محيطه ثلاثة أميال ، باب واحد ذو زخرفة رائعة ، أطلق عليه الفرنسيون « الباب العالى » ، وهو اصطلاح حدث فى شىء من لغو الحديث ، أن قصد به الحكومة التركية نفسها . وجاء فى المقام الثانى بعد السلطان فى هذا التنظيم المركزى الوزير الأكبر . وأصل الكلمة عربية ومعناها حامل الأثقال ، والحق أن الوزير نهض بأعباء ثقيلة ، فكان على رأس الديوان ، والبيروقراطية ، والقضاء ، والسلك الدبلوماسى ، كما أشرف على العلاقات الخارجية ، وأجرى التعيينات الكبرى ، كما قام بأدق المهام الرسمية فى أكثر الحكومات الأوربية ولعاً بالرسميات . وأما أشق التزامات الوزير فهى إرضاء السلطان فى كل هذه الأمور : حيث كان الوزير عادة مسيحياً ثم أسلم . وبعبارة أدق ، هو عبد ، ويمكن أن يلقى حتفه دون محاكمة بكلمة من سيده ، وأثبت سليمان نفاذ بصيرته وسداد رأيه باختيار وزرائه الذين أسهموا إسهاما كبيراً فى نجاحه . وكان إبراهيم باشا (إبراهيم الحاكم) يونانيــاً أسره قراصنة المسلمين وأحضروه إلى سليمان باعتباره عبداً يبشر بحسن المستقبل .

ووجد سليمان أنه متعدد القدرات إلى حد أنه وكل إليه الأكثر فالأكثر من الصلاحيات والمهام ، وأجرى عليه راتباً سنوياً قدره ٦٠ ألف دوكات (١٫٥٠٠٫٠٠٠ دولار؟) وزوجه من أخت له ، وآكله بانتظام ، واستمتع بحديثه ومعزوفاته الموسيقية وبمعرفته باللغـــات ، والآداب ، وحسن اطلاعه على أمور الدنيا . وعلى الطريقة الشرقية الأنيقة أعلن السلطان سليمان أن « كل ما يقوله إبراهيم ينبغي أن يعتبر كأنه صادر من ذات فيه الذي ينثر اللآلىء »(٢٢) . تلك كانت واحدة من أعظم صداقات التاريخ ، حتى فى أساطير اليونان القديمة .

وثمة حكمة واحدة كانت تعوز إبراهيم — تلك هى أن يخفى زهوه الداخلى بتواضع خارجى أو ظاهرى . لقد كان لديه كثير من الأسباب التى تجعله يزهو بنفسه ، فهو الذى سما بالحكومة إلى أعلى درجات المقدرة والكفاية ، وبفضل دبلوماسيته هو استطاع أن يشيع الفرقة والانقسام بين دول الغرب بتدبير التحالف مع فرنسا ، وهو الذى أعاد الهدوء إلى آسيا الصغرى وسوريا ومصر ، حين سار سليمان بجيشه إلى المجر ، بإصلاح المساوئ ومعاملة الجميع بالعدل والكياسة . وكذلك كان له العذر فى أن يكون حذراً متوجساً ، فإنه لم يزل عبداً ، وكلما ارتفع رأسه ، ازداد رقة ودقة ذلك الخيط المعلق منه سيف السلطان المصلت على رقبته : وقد أغضب الجيش حين حرم عليه سلب تبريز وبغداد ، وحاول منعه من سلب بودا . واستطاع فى هذا السلب أن ينقذ جزءاً من مكتبة ماتياس كورفينوس ، وثلاثة تماثيل من البرونز لهرمز وأبوللو وأرتميز ، ووضعها أمام قصره فى القسطنطينية ، وحتى سيده المتحرر اضطرب لهذه الإساءة الموجهة إلى الوصية السامية بتحريم النحت ، واتهمته ثرثرة الناس بامتهان القرآن . وأقام فى بعض الأحيان حفلات تفوق فى نفقتها وبهائها حفلات السلطان ، واتهمه أعضاء الديوان بأنه يتحدث وكأنه كان يقود السلطان كأسد أليف

موثق بالقيود . واغتاظت روكسيلانا محظية الحريم من نفوذ إبراهيم ، ويوماً بعد يوم ، وبفضل إصرار النساء ، ملأت أذن الإمبراطور بالشبهات والشكاوى ، حتى اقتنع السلطان أخيراً ، وفى ٣١ مارس ١٥٣٦ ، وجد إبراهيم مخنوقاً على فراشه ، ويحتمل أن يكون ذلك بأمر ملكى وهذا عمل ينافس فى وحشيته إحراق سرفيتس أو بركوين .

وأكثر وحشية من هذا بكثير ، قانون قتل الأخوة الإمبراطوريين . وقد عبر عنه محمد الثانى صراحة فى سجل القوانين : « إن غالبية المشرعين أعلنوا أن اللامعين من أبنائى الذين يتوارن العرش ، يكون لهم الحق إعدام إخوتهم تأميناً للسلام فى الدنيا ، وعليهم أن يعملوا طبقاً لهذا »[٢٤] . وبهذا حكم محمد الفاتح ، فى هدوء ، بالإعدام على السلالة الملكية ما عدا الكبار منهم . وثمة سيئة أخرى من سيئات النظام العثمانى ، وهى أن تؤول ممتلكات المحكوم عليه بالإعدام ، إلى السلطان الذى كان لذلك دائماً ، تحت تأثير الإغراء بتحسين موارده المالية ، يصم أذنيه دون أى نداء أو رجاء ولا بد من أن نضيف أن سليمان قاوم هذا الإغراء . وعلى النقيض من مثل هذه المساوئ فى الحكم الفردى المطلق ، يمكن أن نعترف بديمقراطية غير مباشرة فى الحكومة العثمانية ، تلك هى أن الطريق إلى للرفعة والمكانة العالية ، فيما عدا السلطنة ، كان مفتوحاً أمام جميع المسيحيين الذين تحولوا إلى الإسلام ومهما يكن من شىء ، فربما برهن نجاح السلاطين الأوائل على أن قدرة الأرستقراطية وراثية حيث لم يكن هناك أية حكومة معاصرة احتفظت بمثل هذا المستوى العالى من القدرة والكفاية لأمد طويل ، كما كان الحال فى العرش العثمانى .

يا — الأخلاق :

إن تباين الطرق والأساليب عند العثمانيين والمسيحيين أوضح بشكل صارخ التنوع الجغرافى والزمنى فى القوانين الأخلاقية . فقد ساد تعدد الزوجات بهدوء حينما كانت المسيحية البيزنطية حديثاً جداً قد اقتضت رسمياً آحادية الزواج ، واختبأت المرأة فى أروقة الحريم أو وراء برقعها أو خمارها ، حينما كانت يوماً قد اعتلت عرش القياصرة . ولبى سليمان فى إخلاص وتفان كل حاجيات حريمه دون شىء من وخزات الضمير التى ربما شوشت أو عززت المغامرات الجنسية الطائشة التى كان يقوم بها فرانسوا الأول أو شارل الخامس أو هنرى الثامن أو الإسكندر السادس . إن المدنية التركية ، مثل المدنية اليونانية ، احتفظت بالمرأة بعيداً عن الأنظار والأضواء ، وأجازت قدراً كبيراً من حرية الانحراف الجنسى . إن اللواط عند العثمانيين ازدهر حينما كانت « الصداقة عند اليونان » قد كسبت يوماً المعارك وألهمت الفلاسفة .

أحل القرآن للأتراك الزواج من أربع بالإضافة إلى عدد من الجوارى (فى النص الإنجليزى خليلات) ، ولكن قلة من الناس تحتمل مثل هذا البذخ والتبذير . وكثيراً ما ابتعد العثمانيون المحاربون عن زوجاتهم اللائى ألفوا معاشرتهن ، واتخذوا زوجات أو خليلات من أرامل وبنات المسيحيين الذين قهروهم أو غزوا بلادهم ، ولم تتدخل فى سبيل ذلك أية حزازات عنصرية ، فكم لقى أحر الترحاب بأذرع مفتوحة نساء يونانيات أو صربيات أو ألبانيات أو مجريات أو ألمانيات أو إيطاليات أو روسيات أو مغوليات أو فارسيات أو عربيات ، وأصبحن أمهات لأطفال كانوا على قدم المساواة يعتبرون أبناء شرعيين عثمانيين ، وكاد الزنى أن يكون غير ضرورى فى مثل هذه الظروف ، وإذا حدث كانت عقوبته صارمة ،

فكانت المرأة الزانية تلزم بشراء حمار تركبه وتطوف به المدينة ، وكان الزانى يجلد مائة جلدة ، ثم يقبل جلاده ويكافئه . وكان الرجل يستطيع أن يطلق زوجته بمجرد الإعلان أو الإفصاح عن قصده (أو أن يقسم يمين الطلاق) ، أما الزوجة فلم تكن تستطيع أن تخلص نفسها إلا برفع دعوى معقدة معوقة .

وظل سليمان اعزب حتى سن الأربعين . فمنذ أسر تيمور زوجة بايزيد الأول — والمزعوم أنه هو وبنى عشيرته من التتار آذوها وأساءوا معاملتها — فإن سلاطين آل عثمان ، لتفادى أية مهانة أخرى مثل هذه ، استنوا قاعدة ألا يتزوجوا ، وألا يشاركهم فراشهم إلا الجوارى(٣٥) . وضم حريم سليمان نحو ٣٠٠ جارية كلهن مشتريات فى السوق أو أسيرات فى الحرب وكلهن تقريباً من أصل مسيحى . وإذا توقع النسوة زيارة السلطان ارتدين أجمل ثيابهن ووقفن صفوفاً لتحيته ، وكان هو يسلم على أكبر عدد منهن ، قدر ما يسمح به وقته ؛ ويضع منديله على كتف من نالت إعجابه منهن بصفة خاصة . حتى إذا قضى وطره وانسحب فى ذاك المساء ، طلب إلى من تلقت المنديل أن تعيده إليه ، وفى صباح اليوم التالى كان يهدى إليها ثوب من قماش من ذهب ، وتزداد مخصصاتها . وقد يبقى السلطان فى الحريم ليلتين أو ثلاثاً ينثر هباته السخية ، ثم يعود إلى قصره ليقضى ليله ونهاره بين الرجال . وقلما ظهر النســاء فى قصره أو اشتركن فى الولائم أو الحفلات الرسمية . ومع ذلك اعتبر الانضمام إلى الحريم شرفاً عظيما . وإذا بلغت أى من نزيلات الحريم الخامسة والعشرين من عمرها دون أن تحظى يوماً بالمنديل ، أعتقت . وكانت فى العــادة تجد زوجاً ذا مكانة عالية . ولم يؤد هذا النظام فى حالة سليمان إلى انحلال جثمانى ، لأنه كان يتميز فى معظم الأمور باعتدال رائع .

ولم يكن اختلاط الجنسين سائداً فى الحياة الاجتماعية لدى العثمانيين .

ومن ثم كانت تعوزها ما تشيعه فيها فتنة النساء والثرثرة الضاحكة من بهجة . ومع ذلك كان السلوك مهذباً قدر ما كان فى المسيحية . وربما كان أكثر تهذيباً من أية بقعة أخرى باستثناء الصين والهند وإيطاليا وفرنسا . وكان عدد الأرقاء المحليين كبيراً، ولكنهم كانوا يعاملون معاملة إنسانية ، وكانت ثمة قوانين كثيرة لحمايتهم . وكان إعتاقهم أمراً ميسوراً(٣٦) . وعلى الرغم من أن العناية بالصحة العامة كانت قليلة ، فإن النظافة الشخصية كانت شائعة . وانتقل إلى تركيا نظام الحمامات العامة الذى يبدو أن الفرس أخذوه عن سوريا الهلينستية . وكانت هذه الحمامات فى القسطنطينية وغيرها من المدن الكبرى فى الإمبراطورية العثمانية تبنى من الرخام وتزين بزخارف أخاذة . وكان بعض القديسين المسيحيين يفخرون بأنهم تجنبوا استعمال الماء، على حين فرض على المسلمين الوضوء والتطهر قبل الدخول إلى المسجد أو أداء الصلاة . والحق أن للنظافة فى الإسلام كانت لاحقة للتدين والتقوى . ولم تكن آداب المائدة لديهم أفضل منها فى العالم المسيحى ، فكان الأكل بالأصابع فى أطباق خشبية حيث لم يكن ثمة شوك . ولم تتناول الخمر فى المنازل قط ، ولكن الكثير منها كان يحتسى فى الحانات ، ولكن الإدمان عليها كان أقل منه فى الغرب(٣٧) . واستعمل المسلمون القهوة فى القرن الرابع عشر ، ولقد سمعنا أول ما سمعنا عنها فى الحبشة ، ومنها انتقلت إلى شبه الجزيرة العربية ، ويقال إن المسلمين استخدموها فى الأصل بغية مساعدتهم على دوام اليقظة والتنبه أثناء تعبدهم(٣٨) . ولم يرد لها ذكر على لسان أى كاتب أوربى قبل سنة ١٥٩٢(٣٩) .

ومن الناحية الجثمانية كان التركى قوياً متين البنيان ، مشهوراً بالجلد وقوة الاحتمال . وكم دهش بوسبك عندما شهد بعض الأتراك يتلقون مائة جلدة على أخمص القدم أو على رسغ القدم ، « حتى لتنكسر عليهم أحياناً جملة عصى من خشب القرانيا دون أن تصدر عنهم أية صرخة(٤٠) . واحتفظ

التركى دوماً بمظهر الوقار ، تساعده ملابسه على إخفاء سخافات البدانة الناتجة عن البطنة . وارتدى عامة الشعب الطربوش ، ولف المتأنقون حوله عمامة ، وكان كلا الجنسين يهوى الأزهار . واشتهرت الحدائق التركية بتعدد الألوان فيها ، ومن هناك ، فيما يبدو ، انتقل إلى أوربا الغربية الليلك والتيولب ، والسنط ، والغار وغيرها . وكان ثمة ناحية جمالية عند الأتراك ، كان من العسير أن تكشف عنها حروبهم . وإنا لندهش مما يرويه السياح الأوربيون من أن الأتراك لم يكونوا ، فيما عدا زمن الحرب ، « قساة بالطبيعة » ، ولكن طيّعين ، وديعين . . . . ، مهذبين ، أليفين » ، « شفوقين بصفة عامة » [٤١] . وشكا فرانسيس بيكون من أنهم بدوا أشد رفقاً بالحيوان منهم بالإنسان[٤٢] . وما كانت القسوة لتنفجر إلا إذا تهددت سلامة العقيدة ، وهنا لم يكن التركى يكظم غيظه أو يحد من انفعاله ، بل كانت تثور ثائرته .

وكان التشريع التركى صارماً فى الحرب بصفة خاصة . فلم يؤخذ أى عدو بأية رحمة أو هوادة ، وكانوا يبقون على حياة النساء والأطفال ، أما الأعداء القادرون الأشداء فقد يذبحون ، ولو لم يكونوا مسلحين أو لم يقاوموا ، وحتى دون أن يقترفوا إثماً[٤٣] . ومع ذلك فإن كثيراً من المدن التى استولى عليها الأتراك نهضت أكثر مما نهضت المدن التركية التى استولى عليها المسيحيون . من ذلك أن إبراهيم عندما استولى على تبريز وبغداد ١٥٣٤ ، حرم على جنوده سلب المدينتين أو إيذاء سكانهما . كذلك ، عندما انتزع سليمان تبريز ثانية ١٥٤٨ ، حماها من السلب والنهب أو الذبح ، ولكن عندما استولى شارل الخامس على تونس ١٥٣٥ لم يستطع دفع رواتب جنوده إلا بإباحة السلب والنهب . ومهما يكن من شىء فإن القانون التركى نافس القانون المسيحى فى العقوبات الوحشية ، فقطعت يد السارق حتى تقل قدرته على السرقة[٤٤] .

وكانت الأخلاق الرسمية بمثل ما كانت عليه فى العالم المسيحى ، فكان الأتراك يفخرون بوفائهم لكلمتهم وعهودهم ، وحافظوا على بنود الامتيازات التى منحوها لأعدائهم ، ولكن رقيب الآداب التركى ، مثل نظيره — سانت جون كابسترانو مثلا — كان يرى أنه ليس ثمة وعد أو عهد يلزم المؤمن بشىء يتعارض مع مصلحة أو واجبات دينه ، وأن السلطان يمكنه أن يبطل المعاهدات التى عقدها هو أو أسلافه(٤٥) ، وذكر السياح المسيحيون أن التركى العادى يتسم « بالأمانه وروح العدل . . . حب الخير والنزاهة والإحسان »(٤٦) . ولكن الأتراك أصحاب المناصب كانوا عادة يرتشون بسهولة ، ويضيف مؤرخ مسيحى ، أن معظم الموظفين الأتراك كانوا مسيحيين من قبل(٤٧) ، ولكن يجدر بنا أن نضيف شيئاً آخر ، وهو أنهم ربوا تربية إسلامية . فالباشا التركى فى ولايته ، مثل البروقنصل (حاكم الإقليم) ، الرومانى ، كان يبادر إلى جمع الثروة ، قبل أن تثور وساوس سيده فيستبدل به شخصاً غيره . إنه كان يتقاضى من رعاياه الثمن الذى كان قد دفعه لتعيينه . وكان بيع المناصب شائعاً فى القسطنطينية أو القاهرة ، قدر شيوعه فى باريس أو رومه .

ثالثاً — الآداب والفنون :

كانت تهيئة السبل لتحصيل العلوم والمعارف أو نقلهما هى أضعف حلقة فى الحضارة العثمانية . وكان التعليم الشعبى مهملا بصفة عامة . وضآلة العلم والمعرفة أمر خطير . وكان التعليم على الأغلب مقصوراً على الطلاب الذين يقصدون إلى دراسة للتربية أو القانون أو الإدارة ، وكانت مناهجها طويلة قاسية ، وقضى محمد الثانى وسليمان وقتاً طويلا فى إعادة تنظيم المدارس وتحسينها ، ونافس الوزراء سادتهم السلاطين فى إغداق الهبات على هذه الكليات أو المدارس الملحقة بالمساجد . ونعم المدرسون فى هذه

المعاهد بمراكز اجتماعية ومالية أعلى من نظرائهم فى العالم المسيحى اللاتينى . وكانت محاضراتهم تنصب رسمياً على دراسة القرآن ، ولكنهم سعوا كذلك إلى دراسة الآداب والرياضيات والفلسفة ، ولكن خريجهم ، ولو أنهم كانوا أكثر تحصيلا فى فروع الدين منهم فى العلوم ، ساروا جنباً إلى جنب مع الغرب فى الهندسة وفن الحكم .

وكانت قلة ضئيلة من السكان فقط تعرف القراءة ، ولكن كل هؤلاء تقريباً كانوا ينظمون الشعر ، ولا يستثنى من ذلك السلطان سليمان نفسه ، وكان الأتراك — مثل اليابانيين — يعقدون مسابقات عامة يتلو فيها الشعراء ما جادت به قرائحهم ، وكان السلطان سليمان يطيب له ، مجاملة وكياسة منه — أن يرأس مثل هذه المباريات الشعرية . ولقد كرم الأتراك مائة شاعر فى هذا العصر ، ولكن انغمارنا فى عظمتنا ومصطلحاتنا نحن ، تركنا جهلة ، لا نعلم شيئاً حتى من أمر شاعرهم الغنائى العظيم محمود عبد الباقى الذى شهد أربعة عهود ، لأنه وإن كان فى سن الأربعين عندما توفى سليمان ، فإنه عمر بعده أربعة وثلاثين عاماً . وقد تخلى عن مهنته القديمة ، وهى السراجة ليعيش على شعره . وكان من المحقق أن تعضه الحاجة بأنيابها لو لم يسعفه سليمان بوظيفة لا عمل فيها ، وجمع سليمان المدح إلى الكسب ، فنظم قصيدة يثنى فيها على تفوق شعر عبد الباقى ، ورد عبد الباقى الدَّيْن فكتب مرثية قوية يندب فيها موت سليمان ، وعلى الرغم من أن الترجمة نفقد رواءها بالتماس المحافظة على تعدد القوافى فى الأصل ، فقد يتكشف فيها بعض الانفعال والروعة :

أمير فوارس الحظ ، يا من لفرسه الجرىء المعد للقتال ،
حيثما كر أو فر أو كان مقيداً ، كانت له الأرض كلها ساحة نزال !
أنت يا من لبريق سيفه أحنى المجرى رأسه !

أنت يا من يعرف الفرنجة حق المعرفة وميض شارته المخيف !
مثل ورقة الورد الغضة وضع وجهه برفق فى التراب ،
فتلقته الأرض ، الخازن الأمين ، وأودعته كالجوهرة فى حرز .
الحق أنه كان إشعاعة المكانة الرفيعة والمجد العظيم ،
الشاه ، الاسكندر وعليه إكليل دولة دارا المسلحة ،
وأمام التراب الذى تحت قدميه أحنى الكون رأسه خفيضاً .
وبمثابة مقام العبادة على الأرض كان باب جناحه الملكى .
لقد جعلت أصغر هباته من أحقر متسول أميراً ،
فاق فى الندى والجود ، وفى الرحمة والرأفة أى ملك . . . . . .
لقد لاقى من هذا الكون الحزين المتقلب نصباً ، فلا تحسبه ،
وهو بجوار ربه قد تخلى عن مكانته وعن مجده .
أى عجب إذا لم تر أعيننا شيئاً من الحياة أو من الدنيا بعد ذلك !
إن جماله البارع ، مثل الشمس والقمر ، قد أفاض على الأرض نوراً . . .
فلتبك الآن سحب الدم قطرة قطرة ، ولتنحن خفيضة !
وبهذا الألم المبرح الحزين فلتمطر عيون النجوم دمعاً سخيناً مريراً ،
ودخان زفرات القلوب يظهر أن السماء الحالكة السواد تحترق . . .
إن الطائر ، أى روحه ، قد طار عالياً إلى السموات مثل الهامة ،
ولم يخلف وراءه سوى قليل من العظام على الأرض تحته . . .
وليكن خالداً مجد خسرو فى السموات العلى !
ولتنزل رحمة الله على نفس الملك وروحه — ووداعاً !(٤٨) .

وكان الأتراك فى شغل شاغل بغزو الدول القوية إلى حد أنهم لم يجدوا فسحة من الوقت للفنون الدقيقة التى كان الإسلام حتى الآن قد اشتهر وتميز بها . وقد أنتج الأتراك منمنمات تميزت ببساطة التصميم وسعة التفكير فى الأساليب . أما التصوير التشخيصى أو التمثيلى فقد ترك للمسيحيين المفترين

الذين ظلوا فى هـــذا العصر يزينون جدران كنائسهم وأديارهم باللوحات الجصية ، فثرى مانويل بانسلينوس — الذى ربما استعار بعض الحوافز من الصور الحائطية الإيطالية فى عصر النهضة — قد زين بالجص كنيسة بروتاتون على جبـــل آثوس (١٥٣٥ — ١٥٣٦) ، برسوم أكثر انطلاقاً وجرأة ورشاقة من رسوم العصور البيزنطية . واستقدم السلاطين فنانين من الغرب والشرق — جنتيل بلليني من البندقية ، وشاه قالى ، ووالى جان ، وهما من رسامى المنمنمات فى فارس الهرطوقية . وفى التربيعات المطلية لم يكن الأتراك فى حاجة إلى مساعدة خارجية ، فقد استخدموها إلى درجة تبهر الأبصار ، واشتهرت مدينة ازنيق (بآسيا الصغرى) بصناعة الخزف ، وتخصصت أشقودرة وبروسة ، وهيريك فى آسيا الصغرى فى المنسوجات ، فقد ترك البروكار (المقصبات) والقطيفة — بما فيهما من رسوم الأزهار فى اللونين القرمزى والذهبى — التى أخرجتها هذه المدن ، أثراً شديداً وانطباعاً قوياً فى رسامى البندقية والفلاندرز . وكان السجاد التركى يعوزه البريق الشاعرى الذى تميز به السجاد الفارسى ، ولكن طرزه الفخمة وألوانه الدافئة أثارت الإعجاب فى أوربا . وقد أغرى كلبير مليكه لويس الرابع عشر بأن يأمر النساجين الفرنسيين بتقليد بعض قطع السجاد فى القصر السلطانى فى تركيا . ولكن دون جدوى ، لأن تفوق المسلمين فى هذه الصناعة ظل بعيداً عن متناول المهارة الغربية .

وبلغ الفن التركى ذروته فى مساجد القسطنطينية (لم يطلق على المدينة اسم اسطنبول رسمياً إلا فى سنة ١٩٣٠) ، ففى تاريخ فارس أو التاريخ الإسلامى ، لم يضارع عظمة عاصمة سليمان ، حتى ولا مدينة مشهد مع فخامة عمائرها المزدحمة ، ولا أصفهان فى عصر الشاه عباس ، ولكن ربما ضارعتها برسوبوليس على عهد كورش . فإن مساجد الآستانة اقتسمت مع الله غنائم العثمانيين فى انتصاراتهم ، وهى آثار تعبر ، فى وقت معاً ، عن

التقوى والزهو وعن تصميم السلاطين على إرهاب شعبهم بالفن قدر إرهابه بالأسلحة . ونافس سليمان جده محمد الفاتح فى تشييد سبعة مساجد تتفق مع جلاله وعظمته ، وفاق أحدها ، وهو الذى حمل اسمه (١٥٥٦) كنيسة أيا صوفيا فى جمالها ، حتى فى محاكاته إياها فى مجموعة القباب الصغرى المحيطة بالقبة الرئيسية الوسطى ، على أن المآذن هنا ، تلك التى ارتفعت مقصورات الآذان الثلاث فيها إلى ارتفاع رهيب ، كانت بمثابة إضافة متألقة تتطابق مع القاعدة الضخمة . أما الداخل فكان كنزاً مربكاً من الزخرفة : نقوش ذهبية على الرخام أو الخزف وأعمـــدة من الحجر السماقى ، وعقود من الرخام الأبيض أو الأسود ، ونوافذ من الزجاج الملون فى إطار من حجر مشجر ، والمنبر المحفور وكأنه وقف على مدى الحياة . وربما كان بذخاً أكثر مما ينبغى إجلاله ، وتألقاً أكثر مما ينبغى لمقام الصلاة . إن الذى وضع تصميم هذا المسجد وسبعين مسجداً أخرى ألبانى اسمه سنان ، وقيل إنه عاش إلى سن العاشرة بعد المائة .

٥ ـ سليمان نفسه

إن الغرب هو الذى أطلق على سليمان لقب « العظيم » ، ولكن شعبه هو الذى سماه « القانونى » أى جامع القوانين ، بسبب مساهمته فى تدوين القانون العثمانى . ولم يكن مهيباً أو عظيماً فى مظهره ، ولكن فى حجم تجهيزات جيوشه ، وفى مدى اتساع حملاته ، وفى زينة عاصمته ، وفى تشييد المساجد والقصور ، والقناطر المائية المشهورة ، عظيما فى روعة كل ما يحيط به وفى حاشيته ، ثم عظيما بطبيعة الحال فى قوة حكمه ، وفى كل ما وصل إليه أو حققه . ووصلت إمبراطوريته من بغداد إلى مدى تسعين ميلا من فيينا ، و ١٢٠ ميلامن البندقية ملكة الأدرياتيك السابقة . وباستثناء فارس وإيطاليا ؛

كانت كل المدن التى زخرت بألوان المعرفة اليهودية والمسيحية أو المعرفة القديمة ، داخلة فى نطاق ملكه : قرطاجه ، ممفيس، صور ، نينوى ، بابل ، تدمر ، الإسكندرية ، بيت المقدس ، أزمير ، دمشق ، أفسوس ، نيقية ، أثينا ، وطيبة المصرية وطيبة اليونانية . ولم يضم الهلال قط يوماً ، مثل هذه البقاع والبحار الكثيرة فى منحناه الأجوف .

وهل كان تفوق حكمه يتناسب مع اتساعه ؟ يحتمل أن يكون الجواب سلبياً ، ولكن ينبغى أن نقرر هذا عن أية مملكة مترامية الأطراف ، فيما عدا فارس فى عهد الأخيمينيين ، وروما فى عصر الأنطونينيين . إن الرقعة المحكومة كانت شاسعة إلى حد يتعذر معه إدارتها من مركز واحد قبل ظهور وسائل المواصلات والنقل والطرق الحديثة . لقد دب الانحلال والفساد فى الحكومة ، ومع ذلك قال لوثر : « يقال إنه لم يكن ثمة حكومة زمنية أفضل من حكومة الأتراك »(٤٩) . وفى مجال التسامح الدينى كان سليمان أجرأ وأكرم من أنداده المسيحيين الذين ذهبوا إلى أن الانسجام الدينى أمر ضرورى للقوة الوطنية . ولكن سليمان رخص للمسيحيين واليهود فى ممارسة ديانتهم فى حرية تامة ، وقال الكاردينال بول « إن الأتراك لا يلزمون الآخرين باعتناق عقيدتهم ، ولهذا الذى لا يهاجم ديانتهم ، أن يفصح عن أية عقيدة يعتنقها ، وهو آمن »(٥٠) . وفى نوفمبر ١٥٦١ حين كانت إسكتلندة وإنجلترا وألمانيا اللوثرية تعتبر الكثلكة جريمة ، كما كانت إيطاليا وأسبانيا تعتبران البروتستانتية جريمة ، أمر سليمان بالإفراج عن سجين مسيحى ، « غير راغب فى تحويل أى فرد عن دينه بالقوة »(٥١) . لقد جعل من إمبراطوريته مأوى آمناً لليهود الفارين من محاكم التفتيش فى إسبانيا والبرتغال .

لقد اتضحت عيوبه فى علاقاته العائلية أكثر منها فى حكومته . والجميع متفقون على أنه — برغم حروبه التى بررها بأنها هجوم من أجل الدفاع — كان رجلا مهذباً ، رحيما ، كريما ، إنسانيا ، عادلا(٥٢) . ولم يعجب به

شعبه فحسب ، بل أحبه كذلك . وكان إذا ذهب إلى المسجد يوم الجمعة ، لزم الناس الصمت التام عند مروره ، وانحنى هو تحية لهم جميعا — أيا كانوا يهودا أو مسيحيين أو مسلمين — وكان يقضى فى المسجد ساعتين . ولم نسمع عنه أنه كان يلازم الحريم إلى الحد الذى يضعف من صحته وقوته ، مثل ما حدث لبعض السلاطين من بعده ، ولكننا نجده شديد الإحساس سريع التأثر بانفعالات الحب ، حتى إنه لينسى ما تقتضيه مكانته من حكمة وحذر وعدل ، بل عاطفة الأبوة وحنانها .

وفى أوائل حكمه كانت محظيته الأثيرة لديه جارية شركسية تعرف باسم « وردة الربيع » اتسمت بهذا الجمال الأسمر المليح التقاطيع ، الذى تميزت به لعدة قرون نساء الأقاليم الواقعة حول الطرف الشرقى للبحر الأسود . وأنجبت له هذه المرأة طفلا ، وترعرع الطفل مصطفى حتى أصبح شابا جميلا قادراً محبوبا . وعهد إليه سليمان بعدة مناصب وتبعات هامة ، ودربه ليكون وريثا للعرش قدرما يكون جديراً به . ولكن فى أثناء هذا الحب ، ظهرت فى الأفق « خوريم » — « أى الضاحكة » — وهى أسيرة روسية أطلق عليها الغرب « روكسيلانا » كسبت قلب السلطان وانتزعته من محظيته الشركسية . وبقى السلطان ثملا بجمال خوريم ومرحها وإغوائها وخداعها حتى اكتملت فصول الرواية ووقعت المأساة . وكسر السلطان القاعدة التى استنها الحديثون من أسلافه ، واتخذها زوجة (١٥٣٤) ، وابتهج أيما ابتهاج بما أنجبت له من بنين وبنات . ولكن لما كبرت سن السلطان وبات متوقعا أن يعتلى مصطفى عرش أبيه ، أوجست خوريم خيفة على مصير أبنائها ، الذين يمكن أن يلقوا حتفهم ، قانونا ، على يد السلطان الجديد . ونجحت فى تزويج ابنتها من رستم باشا الذى أصبح الوزير الأكبر فى ١٥٤٤ ، وكان عن طريق زوجته يشاطر خوريم مخاوفها من سطوة مصطفى فى المستقبل .

وكان مصطفى ، فى نفس الوقت ، قد أرسل لتولى حكم ديار بكر ،

واشتهر ببسالته ولباقته وكرمه ، واستخدمت خوريم كل مواهبها وتأثيرها فى تحطيمه ، وألقت فى روع سليمان أن مصطفى يحاول أن يكسب شعبية ، تطلعا منه إلى انتزاع العرش ، واتهم رستم باشا الشاب بأنه يتودد سراً إلى الانكشارية ليقفوا إلى جانبه ، وساور الشك السلطان المنهوك الذى كان آنذاك فى التاسعة والخمسين من عمره ، وزاد ارتيابه ، ثم تولاه العجب ، وأخيراً آمن بصحة ما زعموا ، فذهب بنفسه إلى إرجلى Eregli ، ودعا مصطفى إلى خيمته ، وما أن ظهر حتى عاجله بضربة أودت بحياته (١٥٥٣) . عند ذاك وجدت خوريم ورستم باشا أن من اليسير إغراء السلطان بقتل ابن مصطفى لئلا يحاول الثأر لأبيه ، وعين سليم ابن خوريم أميراً ووريثاً للعرش ، وماتت خوريم راضية مطمئنة (١٥٥٨) ، ولكن بايزيد ، وهو أخو سليم ، الذى وجد أن مصيره المحتوم هو الذبح ، أعد جيشاً يتحدى به أخاه ، واشتعلت نيران الحرب الأهلية ، وهزم بايزيد وفر إلى فارس (١٥٥٩) . ولكن الشاه طهماسب ، لقاء ثلاثمائة ألف دوكات من سليمان ومائة ألف من سليم ، سلم المناضل من أجل العرش ، وشنق بايزيد (١٥٦١) ، كما أعدم أبناؤه الخمسة محافظة على الأمن الاجتماعى . ويروى أن السلطان المتألم توجه إلى الله بالشكر والحمد على موت هذه الذرية المزعجة ، وعلى أنه يستطيع الآن أن يعيش فى سلام[٥٣] .

ولكن السلطان وجد السلام أمراً لا يحتمل ، وأطال التفكير فيما ترامى إليه من أنباء تقول بأن فرسان القديس يوحنا الذين اقتلعهم من رودس ، عادت إليهم قوتهم فى مالطة ، وأنهم كانوا ينافسون قراصنة الجزائر فى غاراتهم الضارية . وفكر السلطان مليا ، وهو آنذاك فى سن الحادية والسبعين ، هل فى الإمكان أن تصبح مالطة جزيرة إسلامية ، ومن ثم يكون البحر المتوسط حرما آمنا للمسلمين . وفى أبريل ١٥٦٤ أرسل أسطولا مكونا من ١٥٠ سفينة عليها عشرون ألف رجل ليستولوا

على الجزيرة ذات الموقع الاستراتيجي . وقاتل الفرسان ببسالتهم المعهودة تحت قيادة الداهية البارع جان دى لافالت ، واستطاع الأتراك الاستيلاء على حصن سانت إلمو بتضحية ستة آلاف رجل ، ولم يستولوا على شيء بعده ، وأرغمهم وصول الجيش الإسبانى على رفع الحصار .

وما كان السلطان العجوز المهيب ، سليمان القانونى ، ليختم حياته بهذه الخاتمة المرة . وكان مكسيمليان الثانى الذى خلف فرديناند على عرش الإمبراطورية قد منع الجزية التى تعهد الوالد بدفعها للسلطان ، وهاجم المخافر الأمامية التركية فى هنغاريا ، وقرر السلطان القيام بحملة أخرى فقط ، وصمم على أن يقودها بنفسه (١٥٦٦) . وسار بمائتى ألف رجل عبر صوفيا ونيش وبلغراد . وفى ليلة ٥ — ٦ سبتمبر ، وفى أثناء حصار حصن زيجتفار ، أسلم السلطان الروح ، وهو منتصب فى خيمته . وكان مثل فاسبازيان ، مزهواً بنفسه إلى حد لا يرتضى معه أن يموت وهو راقد . وفى ٨ سبتمبر سقط الحصن ، ولكن الحصار كلف الأتراك حياة ٣٠ ألفاً من الرجال . وكان الصيف مدبراً ، فعقدت الهدنة ، وعاد الجيش أدراجه حزيناً مغموماً إلى القسطنطينية لا يحمل معه النصر بل جثمان الإمبراطور .

هل ينبغى لنا أن نصدر على سليمان حكماً ونضعه فى المرتبة التى يستحقها ؟ إننا إذا قارناه بنظرائه فى الغرب لوجدناه فى بعض الأحيان أكثر تمدناً وحضارة ، وفى أحيان أخرى أكثر همجية ووحشية . ومن بين الحكام الأربعة الكبار فى هذا النصف الأول من القرن السادس عشر ، يستوقف نظرنا فرانسوا على أنه أكثرهم تمدناً وحضارة ، على الرغم من غروره المتهور واضطهاداته المترددة ، على أنه مع ذلك نظر إلى سليمان على اعتباره حاميه وحليفه الذى بدونه كان يمكن أن يحطم ، إن سليمان حالفه النصر فى صراعه الذى استمر طوال حياته مع الغرب . فالحق أن الإمبراطور مكسيمليان الثانى استأنف دفع الجزية للباب العالى ١٥٦٨ ؛ وأن شارل الخامس

كان قد أوقف تقدم السلطان عند فيينا ، ولكن أى جيش مسيحى جرؤ على الاقتراب من القسطنطينية ؟ لقد كان سليمان سيد البحر المتوسط ، وبدا لبعض الوقت أن رومه ظلت مسيحية لأنه هو وبربروس سمحا بذلك .
إن السلطان حكم إمبراطوريته حكماً صالحا يتسم بعدم التحيز ، ولكن كان نجاحه أكبر بكثير من شارل المسكين الذى كان يناضل ضد تمزيق ألمانيا بين الأمراء ، وكان سليمان حاكما مطلقا مستبدا ، بحكم العرف الذى لا نزاع فيه وبرضا شعبه ، فهل حظى استبداد هنرى الثامن فى انجلترا أو شارل فى إسبانيا بمثل هذا الحب والثقة من الشعب ؟ وكان شارل لا يكاد يكون قادراً على إصدار حكم الإعدام على ابنه لمجرد الارتياب فى خيانته ، ولكن شارل فى شيخوخته كان يرسل المسيحات مطالبا بدم الهراطقة ، واستطاع هنرى أن يبعث بالزوجات وبالكاثوليك وبالبروتستانت إلى المشنقة أو المحرقة ، دون أن يتخلف وجبة واحدة عن طعامه . أما التسامح الدينى عند سليمان ، ولو كان محدوداً ، فإنه بالمقارنة ، يصم مثل هذا الإعدام بوصمة الهمجية والوحشية .

لقد شن سليمان حروبا كثيرة ، وذبح نصف ذريته ، وأمر بذبح وزير مبدع دون إنذار أو محاكمة ، إنه ارتكب الأخطاء التى تلازم السلطة المطلقة غير المحدودة ، ولكنه كان أعظم وأقدر حكام عصره دون منازع .

الفصل الثانى والثلاثون

اليهـــود

١٣٠٠ – ١٥٦٤

١ – التائهون

روى روجر وندوفر R. Wendover فى كتابه Flores Historiarum (١٢٢٨) أن أحد رؤساء أساقفة أرمينيا كان يزور دير القديس ألبان فى أوائل القرن الثالث عشر ، فسئل عن القصة التى تقول بأن يهودياً كان قد تحدث إلى السيد المسيح ، لا يزال على قيد الحياة فى الشرق الأدنى . فأكد رئيس الأساقفة للرهبان أنها صحيحة . وأضاف المرافق أن رئيس الأساقفة كان قد تناول الغداء مع هذا الرجل الحالد قبل مغادرته أرمينيا بوقت قصير ، وأن اسم هذا الرجل ، على الطريقة اللاتينية « كارتوفيلس » . وأنه لما هم السيد المسيح بمغادرة محكمة بلاطس البنطى ، ضرب كارتوفيلس السيد المسيح على ظهره وقال له : « أسرع » . وأن يسوع قال له : « إنى ذاهب ، ولكنك سوف تبقى حتى أحضر » . وكرر أرمنيون آخرون زاروا دير سانت ألبان فى سنة ١٢٥٢ نفس القصة ، وزاد عليها القصص الشعبى ، وبدل من اسم التائه ، وروى كيف أنه فى كل مائة عام أو نحوها ، يصاب بمرض عضال ، ويروح فى سبات عميق يفيق منه شاباً يمتلىء رأسه بذكريات لا تزال حية عن محاكمة المسيح وموته وبعثه . وانقطع ورود القصة على الألسنة فترة ، ولكنها ظهرت من جديد فى القرن السادس عشر . وادعى أوربيون غلب عليهم الأثر ، أنهم رأوا « أحشويروش »(*) — وسمى الآن

(*) Ahasuerus . [illegible] (المترجم)

اليهودى الخالد » أو اليهودى التائه — رأوه فى همبرج (١٥٤٧ ، ١٥٦٤) وفى فيينا (١٥٩٩) ، وفى لوبك (١٦٠١) وفى باريس (١٦٤٤) ، وفى نيوكاسل (١٧٩٠) ، وأخيراً فى ولاية يوتا فى غرب الولايات المتحدة (١٨٦٨) . وتلقت أوروبا ، التى كانت تفتقد إيمانها ، بالترحاب هذه الأسطورة على أنها برهان يؤكد من جديد ألوهية المسيح وبعثه ، وضمان جديد لمجيئه ثانية . وعندنا أن الأسطورة رمز كئيب لشعب فقد وطنه فى السنة الحادية والسبعين من بداية المسيحية ، وبات يتيه فى الأرض فى قارات أربع ، وعانى الاضطهاد والتعذيب تارة بعد المرة ، قبل أن يسترد موطنه القديم فى خضم زماننا المتقلب المزعزع[1].

ولاقى يهود « الشتات » هؤلاء أقل العناء والشقاء فى ظل السلاطين الأتراك والبابوات فى فرنسا وإيطاليا . وعاشت الأقليات اليهودية آمنة فى القسطنطينية وسالونيك وآسيا الصغرى وسوريا وفلسطين والجزيرة العربية ومصر وشمال أفريقية وأسبانيا تحت حكم العرب . وتسامح البربر معهم كارهين . على أن سيمون ديوران ترأس مستوطنة مزدهرة فى الجزائر ، وعاشت الجالية اليهودية فى الإسكندرية — كما وصفها الحبر أوباديا برتينورو فى ١٤٨٨ — حياة طيبة ، وشربوا الخمر بكثرة ، وتربعوا على البسط كما فعل المسلمون ، وخلعوا نعالهم عند دخول المنزل أو بيت أحد الأصدقاء[2] . وكتب اليهود الألمان الذين لجأوا إلى تركيا إلى أقربائهم وصفاً حماسياً للحياة الطيبة التى ينعمون بها هناك[3] . ورخص الباشا (الوالى) العثمانى فى فلسطين لليهود هناك فى أن يبنوا معبداً على جبل صهيون . وحج بعض اليهود الغربيين إلى فلسطين ، واعتقدوا أن من حسن حظهم أن تفيض أرواحهم فى الأرض المقدسة ، والأفضل منها فى أورشليم بالذات .

ومهما يكن من أمر ، فإن الذى كان يستأثر بتفكير اليهود ويستهوى قلوبهم فى هذا العصر تركز فى الغرب الذى لا يغفر ولا يصفح . فقد لاقوا

أقل الأحوال شقاء فى إيطاليا المستنيرة : وفى نابلى سعدوا بصداقة روبرت ملك أنجو ، وازدهروا فى أنكونا وفيرارا وبادوا والبندقية وفيرونا ومانتوا وفلورنسه وبيزا وغيرها من خلايا النهضة . قال إرزم ١٥١٨ « يوجد فى إيطاليا كثير من اليهود ، ولكن لا يكاد يوجد فى أسبانيا مسيحيون(٤) » . وكانت إيطاليا تقدر التجارة والموارد المالية تقديراً عظيما ، ومن ثم كان لليهود الذين تولوا هذه المرافق الضرورية فيها شأن كبير ، باعتبارهم دعامة حافزة منشطة فى الاقتصاد . أما ما كان يطلب من اليهود قديماً من وضع شارة أو ارتداء لباس مميز فقد تجاهله الإيطاليون فى شبه الجزيرة بصفة عامة ، وارتدى اليهود الموسرون زى الإيطاليين من مثل طبقتهم ، والتحق الشباب اليهودى بالجامعات ، وتزايد عدد المسيحيين الذين يدرسون العبرية .

وبين آونة وأخرى كان بعض رجال الدين المسيحى الذين يبغضون اليهود ، مثل القديس يوحنا أوف كابسترانو ، قد يهيج حفيظة سامعيه ، ليطالبوا بالتطبيق الكامل للقوانين الكنسية المتشددة الخاصة بالتجريد ضد اليهود : ولكن على الرغم من أن كابسترانو كان يلقى تأييداً من البابا يوجينيوس الرابع والبابا نيقولا الخامس ، فإن تأثير بلاغته كان تأثيراً عابراً فى إيطاليا . وهاجم راهب آخر من طائفة الفرنسيسكان هو برناردينو أوف فلتر ، اليهود مهاجمة صاخبة عنيفة ، إلى حد أن السلطات المدنية فى ميلان وفرارا وفلورنسه أمرته بالتزام الصمت أو الرحيل . ولما عثر على طفل فى سن الثالثة ميتاً بالقرب من بيت أحد اليهود فى ترنت (شمال إيطاليا) فى سنة ١٤٧٥ ، أعلن برناردينو أن اليهود قتلوه ، فألقى الأسقف بكل يهود ترنت فى السجن ، واعترف بعضهم تحت وطأة التعذيب بأنهم ذبحوه وشربوا من دمه ، باعتبار أن هذا من طقوس عيد الفصح عندهم . وأحرق كل يهود ترنت حتى الموت ، وحنط جثمان الطفل « سيمون الصغير » ، وعرض على أنه « بقايا مقدسة » ، وحج آلاف من السذج المؤمنين إلى المزار الجديد

وانتشرت قصة الفظاعة المزعومة عبر جبال الألب إلى ألمانيا فزادت من حدة شعور العداء ضد « السامية » هناك . واتهم سناتو البندقية القصة بأنها كذوبة دينية ، وأمر كل السلطات فى نطاق الولاية القضائية للبندقية بحماية اليهود . وقدم من بادوا إلى ترنت اثنان من المحامين لفحص الأدلة ، ولكن الأهالى هناك مزقوهما تقريباً . واستحثوا البابا سكستس الرابع على ضم سيمون إلى قائمة القديسين ولكنه أبى ، وحرم تمجيد سيمون باعتباره قديساً(٥) . ومهما يكن من شىء ، فإن سيمون أعلن قديساً فى سنة ١٥٨٢ .

وفى رومه نعم اليهود لعدة قرون بظروف مواتية فى الحياة ، وبالحرية أكثر مما لاقوا فى أى مكان آخر فى العالم المسيحى ، من جهة لأن البابوات كانوا مثقفين ، ومن جهة أخرى لأن المدينة كان يحكمها ويتنازعها حزبا أورسينى وكولانا ، وكلتا الجماعتين كانت مشغولة بالقتـــال بينهما ، إلى حد يتعذر معه التفرغ لعداوة الآخرين ، وربما كان ثمة سبب آخر هو أن الرومان كانوا أوثق ارتباطاً بالجانب العملى فى المسيحية منهم بالتعصب لديانتهم . ولم يوجد آنذاك حى خاص باليهود فى رومة ، ولكن معظمهم عاش فى حى العبرانيين على الضفة اليسرى من نهر التيبر . ولم يكونوا ملزمين بذلك ، فقد قامت قصور الأرستقراطية الرومانية وسط مساكن اليهود ومعابدهم القريبة من كنائس المسيحيين(٦) . ولكن ظل بعض الظلم يقع عليهم ، فكانت بعض الضرائب تفرض عليهم من أجل الإنفاق على الألعاب الرياضية ، وكانوا يرغمون على إرسال ممثلين عنهم للاشتراك فيها وهم أنصاف عرايا ، وهذا أمر يتنافى مع أعراف اليهود وأذواقهم . وظلت العداوة العنصرية باقية ، فمثل اليهود فى رسوم كاريكاتورية فى المسرح الرومانى ، وفى الروايات الهزلية فى الملاهى ، ولكن اليهوديات كن يقدمن على أنهن مهذبات جميلات . لاحظ التناقض بين باراباس

وأبيجيل فى رواية مارلو « يهودى مالطة » ، وبين شيلوك وجسيكا فى رواية شيكسبير « تاجر البندقية » .

وعامل البابوات ، إجمالا ، اليهود معاملة كريمة بالقدر الذى ينتظر من رجال مجدوا المسيح على أنه المخلص ، وأنكروا عقيدة اليهود على أنه لم يأت بعد . وعندما أنشئت محاكم التفتيش أعفى البابوات من سلطتها القضائية اليهود الذين لم يتحولوا عن دينهم . وكانت المحكمة تستطيع أن تستدعى أمثال هؤلاء اليهود ، بسبب مهاجمتهم للمسيحية ، أو محاولتهم رد المسيحى إلى اليهودية فحسب . « إن اليهود الذين لم يكفوا قط عن إعلان إيمانهم باليهودية تركوا ، إجمالا ، دون إزعاج »(٧) . من الكنيسة ، ولكنهم لقوا الإزعاج من الدولة أو من الأهالى . وأصدر عدة بابوات مراسيم بقصد التخفيف عن حدة العداوة الشعبية . وبذل البابا كليمنت السادس جهداً شاقاً فى هذا السبيل ، فجعل مدينة أفنيون البابوية ملجأ رحيما لليهود الفارين من الحكومة الوحشية فى فرنسا(٨) . وفى ١٤١٩ أعلن مارتن الخامس إلى العالم الكاثوليكى :

« من حيث أن اليهود خلقوا على صورة الرب ، وأن بقية منهم لابد يوماً أن تخلص . ومن حيث أنهم توسلوا إلينا لحمايتهم ، فإننا سيراً على نهج أسلافنا ، نأمر بألا يزعجهم أحد فى معابدهم ، وألا يهاجم أحد قوانينهم وحقوقهم وأعرافهم ، وألا يعمدوا قسراً ، وألا يكرهوا على حضور الأعياد المسيحية أو وضع شارات جديدة ، وألا يعترض سبيلهم فى إقامة علاقات العمل بينهم وبين المسيحيين(٩) .

وأصدر يوجينيوس الرابع ، ونيقولا ، كما سنرى ، تشريعاً مقيداً لليهود ، ولكن بالنسبة لسائر البابوات كما يقول جرايتز « من بين سادة إيطاليا كان البابوات أكثرهم وداً وصداقة لليهود »(١٠) . وكثير منهم : الإسكندر السادس ، يوليوس الثانى ، ليو العاشر — تجاهلوا المراسيم القديمة ، وعهدوا بحياتهم إلى أطباء يهود . وشاد كتاب يهود معاصرون ، شاكرين ، بالأمن الذى تمتع به قومهم فى ظل بابوات أسرة مديتشى(١١) . وكان أحدهم وهو كليمنت السابع ، « صديقاً كريماً لإسرائيل(١٢) :

ويقول مؤرخ إسرائيلى عالم :

إن هذا كان ذروة عصر النهضة . واعتبر جماعة متعاقبة من البابوات المثقفين المهذبين المترفين المشهود لهم بالحكمة فى رومه أن تقدم الثقافة جزء هام من عملهم فى تعزيز المصالح الدينية للكنيسة الكاثوليكية ؛ « ولذلك اتجهوا من أواسط القرن الخامس عشر ، فما بعده ، إلى التغاضى عن التفاصيل المزعجة فى القانون الكنسى . . . وإلى إظهار التسامح الكبير مع غير الكاثوليك . وكان رجال المصارف المقرضون اليهود يشكلون جزءاً لا يتجزأ من الحركة الاقتصادية فى ممتلكاتهم ، على حين أن البابوات وهم رجال دنيا واسعو الآفاق ؛ قدروا كل التقدير مناقشتهم مع الأطباء اليهود وغيرهم ممن اتصلوا بهم . ومن ثم فإن هؤلاء البابوات أهملوا إهمالا يكاد يكون تاماً كل التعليمات والقواعد التى كان آباء الكنيسة قد أصدروها ، وصنفها فى عداد القوانين مجلسا لاتيران الثالث والرابع . ولما رأى سائر أمراء إيطاليا هذا المثل

> الرائع أمام أعينهم ـ أمراء مديتشى فى فلورنسه ، إستنسى فى فبرارا ، جنزاجو فى منتوا ، حذوا إلى حد كبير حذو البابوات . إن اليهود ، ولو أنهم قد أزعجتهم بين الحين والحين فترات من العنف أو التعصب ـ مثال ذلك عندما سيطر سافونا رولا على فلورنسه ١٤٩٧ ـ امتزجوا بجيرانهم وشاركوهم حياتهم ، بدرجة لا يكاد يكون لها مثيل من قبل ؛ وقاموا بنصيب ممتاز فى جوانب معينة فى النهضة . . . عكسوها فى حياتهم هم أنفسهم وفى أنشطتهم الأدبية باللغة العبرية ، وأسهموا بإضافات هامة فى الفلسفة والموسيقى والمسرح . وكانوا شخصيات حبيبة فى بلاط كثير من الأمراء الإيطاليين(١٣) .

إن بعضاً من الشخصيات التى كانت يوماً مشهورة لتكشف لنا عن هذه الفترة المشرقة فى العلاقات بين المسيحيين واليهود . ولد إمانويل بن سولومون الحارومى (الرومى) وفى نفس السنة التى ولد فيها دانتى (١٢٦٥) وأصبح صديقاً له ، وكان رجلا من رجال النهضة قدر ما يستطيع يهودي مخلص أن يكونه : وكان يحترف الطب ، كما كان واعظاً ، وعالماً دينياً ، وعالماً من علماء النحو ، ومن المشتغلين بالعلوم ، ومن أصحاب المال والأعمال ، وشاعراً ، و « مؤلفاً لأغان ماجنة كثيراً ما جاوزت حدود الحشمة »(١٤) . ولما كان يتقن العبرية كل الإتقان : فإنه أدخل إلى هذه اللغة المقطوعة الشعرية ذات الأربعة عشر بيتاً (Sonnet) وكاد ينافس الإيطاليين فى الفصاحة والسلاسة والروح ، ولم يظهر أى شاعر يهودى قط قبل « هين » مثل ما أظهر إمانويل من موهبة الهجاء والروعة والذكاء . وربما كان إمانويل قد تشرب بعض مبادئ مذهب ابن رشد فى الشك ،

الذى ساد فى ذاك العصر ، فإن إحدى قصائده تعبر عن نفوره من السموات بما فيها من أناس أطهار (ذهب إلى أن النساء الدميمات الخلقة هن فقط الفضليات) ، وعن إيثاره للجحيم ، حيث توقع أن يجد فيها أكثر الجميلات إغراء فى كل الأزمان . وألف فى شيخوخته قصيدة ضعيفة يقلد فيها دانتى فى « السماء والجنة » . ولم يكن ثمة فى اليهودية مطهر ، مثلها فى ذلك مثل المذهب البروتستانتى . وكان إمانويل أكرم من دانتى ، فأفسح فى الجنة مجالا لكل «الأبرار فى العالم بأسره»(١٥) ، متبعاً فى ذلك نهج تقاليد أحبار اليهود . على أنه أدخل أرسطو إلى الجحيم لأنه انتهى إلى خلود الكون .

وثمة روح مرح جذل شبيه بهذا الذى أسلفنا ، أضفت سلاسة وحيوية على كتابات كالونيموس بن كالونيموس . وشاهد روبرت ملك نابلى فى إحدى زياراته لبروفانس هذا العالم الصغير ذا الاسم الجميل ، وأخذه معه إلى إيطاليا . وكان كالونيموس فى البداية متفرغاً إلى العلوم والفلسفة ، وترجم أرسطو وأرشميدس وبطلميوس وجالن والفارابى وابن رشد إلى العبرية ، وكتب بروح أخلاقية عالية . ولكنه وجد أنه من اليسير عليه أن يتمثل طباع المرح والبهجة فى نابولى ويتشربها . فلما انتقل إلى رومه أصبح هوراس اليهود (شاعر رومانى فى القرن الأول ق . م) يهجو هجاء لطيفاً أخطاء المسيحيين واليهود وأخطاءه هو نفسه ، ونقاط الضعف فيهم وفى شخصه . وندب حظه لأنه ولد رجلا ، فإنه لوكان امرأة ، لما كان عليه أن يطيل التنقيب والتفكير فى التوراة والتلمود ويحفظ مبادئ القانون البالغ عددها ٦١٣ . وسخرت روحه المرحة من التلمود . وتوحى الشعبية التى حظى بها هجاؤه لدى اليهود الرومان بأنهم لم يكونوا أتقياء متدينين بالقدر الذى كان عليه إخوانهم الأكثر شقاء فى سائر البلاد .

ولم تحى النهضة الدراسات اليونانية فحسب بل العبرية كذلك . ودعا الكاردينال أجديو دى فيتربو العالم اليهودى إيليا لفيتا من ألمانيا إلى رومه

(١٥٠٩) ، وبقى العالم اليهودى ثلاثة عشر عاماً ضيفاً مكرماً فى قصر الكاردينال يعلمه العبرية ، ويتلقى عنه اليونانية . وبفضل جهود إيجيديو ، ورخلين ، وآخرين من التلامذة المسيحيين الذين يتلقون العلم عن المعلمين اليهود ، أنشئت كراسى اللغة العبرية ، فى كثير من الجامعات والأكاديميات فى إيطاليا . وحظى إيليا دل مديجو الذى كان يعلم العبرية فى بادوا بتقدير عظيم هناك ، رغم رفضه التحول عن دينه ، إلى حد أنه لما حدث خلاف عنيف بين الطلبة المسيحيين حول بعض الشئون الثقافية ، عينت السلطات الجامعية والسناتو فى البندقية دل مديجو لتحكيم ، فعالج الموضوع بحزم ولباقة ، وخرج الجميع راضين . ودعاه بيكو دللا ميراندولا ليعلم العبرية فى فلورنسه ، وهناك انضم إيليا إلى الحلقة الإنسانية لأسرة مديتشى ، ولا زلنا نراه من بين الشخصيات التى رسمها بينوزو جوتزولى على جدران قصر مديتشى . ولم يشجع هذا العالم فكرة بيكو عن وجود بعض عقائد مسيحية فى « القبالة »(*) ، بل على النقيض من ذلك ، سخر من سفر الرؤيا على أنه مجموعة من سخافات حمقاء .

وكان اليهود القاطنون فى شمال جبال الألب أقل حظاً من اليهود فى إيطاليا . فقد طردوا من إنجلترا فى سنة ١٢٩٠ ، ومن فرنسا فى سنة ١٣٠٦ ، ومن فلاندرز فى سنة ١٣٧٠ . ودعوا إلى فرنسا ثانية فى ١٣١٥ شريطة أن يدفعوا الملك ثلثى أى مال يكونون قد جمعوه من فوائد القروض التى عقدوها قبل طردهم(١٦) . وما أن انتهت مكاسب الملك من هذه العمليات حتى نفى اليهود ثانية فى سنة ١٣٢١ . وعادوا فى الوقت المناسب ليلاقوا التأنيب على « الموت الأسود » ويحملوا مسئوليته ، ونفوا مرة أخرى (١٣٤٩) . وأعيدوا من

(*) Cabala فلسفة دينية سرية ابتدعها بعض أحبار اليهود ، قائمة على تفسيرات غامضة للكتاب المقدس . (المترجم)

جديد (١٣٦٠) ليقدموا قروضاً مالية ويسهموا بمهارتهم ، عوناً منهم على افتداء ملك فرنسا الذى أسر فى إنجلترا . ولكن فى عام ١٣٩٤ اختفى فى ظروف غامضة إسرائيلى ارتد إلى المسيحية ، واتهم اليهود بقتله ، واعترف بعض اليهود تحت وطأة التعذيب ، بأنهم كانوا قد نصحوا هذا المرتد بالعودة إلى اليهودية ، وثار الرأى العام ، وأمر شارل السادس كارهاً ، بنفى الجنس المنهوك ثانية .

وكان فى براغ جالية يهودية قوية ، ذهبوا إلى هناك ليستمعوا إلى عظات رائد « هس(*) » وهو ميلز Miliez ، لأنه أظهر اطلاعاً واسعاً وتقديراً كبيراً للتوراة . ودرس هس العبرية ، وقرأ التعليقات العبرية ، واقتبس عن راشى وموسى بن ميمون . وأطاق التابوريون الذين مضوا بإصلاحات هس أشواطاً حتى باتت قريبة من الشيوعية — على أنفسهم « الشعب المختار » وأطلقوا أسماء « إدوم ، ومؤاب ، وعماليق » ، على الولايات الجرمانية التى شنوا عليها الحرب . ولم تكن جيوش هس ، على أية حال ، تستنكف عن قتل اليهود ، عندما استولوا على براغ (١٤٢١) ، ولم يتركوا لهم الخيار : الارتداد أو الجزية ، مثل المسلمين ، بل إن أيسر خيار كان : الارتداد إلى المسيحية أو الموت[١٧] .

ومن كل الدول المسيحية تأتى بولندة فى المحل الثانى بعد إيطاليا فى حسن وفادتها اليهود ، وفى ١٠٩٨ ، ١١٤٦ ، ١١٩٦ هاجر يهود كثيرون من ألمانيا إلى بولندة ، فراراً من الموت على أيدى الصليبيين ، ولقوا ترحيباً وازدهرت أحوالهم هناك ، وفى ١٢٠٧ أصبح بعضهم يمتلك ضياعاً واسعة . وفى ١٢٦٤ منحهم الملك بوليسلاف التقى صكا بالحقوق المدنية . وبعد الموت

(*) Huss أحد رجال الإصلاح الدينى وأحد الشهداء فى بوهيميا (١٣٦٩ — ١٤١٥) .
(المترجم)

الأســود انتقل عدد أكبر من الألمان إلى بولندة ، ورحبت بهم هناك الأرستقراطية الحاكمة ، بوصفهم خميرة تقدمية اقتصادية فى أمة لا زالت تفتقر إلى طبقة وسطى : وثبت كازيمير الثالث الأكبر (١٣٣٣ — ١٣٧٠) حقوق اليهود البولنديين ووسعها ، وضمن الدوق الأعظم فيتوفست Vitovst هذه الحقوق ليهود لتوانيا : ولكن فى ١٤٠٧ ، أبلغ أحد الكهنة شعب الكنيسة فى كراكاو أن اليهود قد قتلوا طفلا مسيحياً ، وأخذوا يمتعون أنظارهم بدمه . وحرض هذا الاتهام على وقوع المذابح . وجدد كازيمير الرابع حريات اليهود وزاد فيها (١٤٤٧) ، وقال : « نريد أن يشعر اليهود الذين نرغب فى أن نحميهم من أجل مصلحتنا ، ومصلحة خزانة الدولة — أن يشعروا بالراحة فى ظل حكمنا الخير »(١٨) . واتهم رجال الدين الملك ، وأندره أولسنيكى رئيس الأساقفة بسوء المصير فى الجحيم ، وألقى يوحنا كابسترانو ، الذى جاء إلى بولندة ممثلا للبابا ، خطباً ملتهبة مثيرة فى سوق بلدة كراكاو (١٤٥٣) ، ولما هزم الملك فى الحرب ارتفعت الصيحات بأن عقاب الله قد نزل به لمساندته الكفار . ومذ كان فى حاجة إلى تأييد رجال الدين للدخول فى حرب أخرى ، فإنه ألغى صك حريات اليهود . ووقعت المذابح المنظمة فى ١٤٦٣ ، ١٤٩٤ ، وربما كان لمنع هذه الهجمات أن طلب إلى يهود كراكاو بعد ذلك أن يقطنوا ضاحية « كازيميريه » .

وفى تلك الضاحية وفى غيرها من المراكز فى بولندة ولتوانيا ، زاد اليهود عدداً وازدهاراً بعد أن ذللوا كل العقبات ، وفى عهد سجسمند الأول أعيدت لهم حرياتهم فيما عدا حرية الإقامة . وظلوا على علاقة طيبة مع سجسمند : وفى ١٥٥٦ اتهم ثلاثة من اليهود فى بلدة سوخاشيف ، بطعن « القربان المكرس » حتى أدمى ، وأعلنوا براءتهم ، ولكنهم أعدموا حرقاً بأمر من أسقف خلم Khelm . واستنكر سجسمند الثانى هذه العملية على أنها « أكذوبة دينية » قصد بها أن يثبت لليهود والبروستانت أن الخبز المقدس كان قد تحول

فعلا إلى جسد المسيح ودمه ، وقال الملك « لقد صعقت لهذه الجريمة البشعة ، وإنى لا يعوزنى حسن الإدراك إلى حد يجعلنى أومن بأنه يمكن أن يكون هناك دم فى القربان[١٩] ، ولكن بموت هذا الملك المتشكك ، انتهت فترة المشاعر الطيبة بين الحكومة واليهود فى بولندة .

وعاش اليهود حقبة من الزمن فى سلام فى ألمانيا فى العصور الوسطى . وعملوا بجد ونشاط على طول المنافذ التجارية النهرية الكثيرة ، وفى المدن الحرة والثغور ، وحتى رؤساء الأساقفة أنفسهم كانوا يطلبون ترخيصاً من الإمبراطور لإيواء اليهود وبمقتضى المرسوم البابوى (١٣٥٥) شارك الإمبراطور شارل الرابع الناخبين الإمبراطوريين امتيازهم فى الانتفاع باليهود ، أى حق الناخبين فى استقبال اليهود فى دوائرهم ، وحمايتهم واستخدامهم ، وابتزاز أموالهم . وفى ألمانيا ، كما كان الحال فى إيطاليا ، تلهف الطلاب على تفهم التوراة فى نصوصها الأصلية ومن ثم درسوا العبرية . وحفز النزاع بين رخلين وبفركورن إلى هذه الدراسة ، كما قوت طباعة التلمود كاملا لأول مرة (١٥٢٠) من هذا الحافز .

وبلغ تأثير اليهودية ذروته فى الإصلاح الدينى . ومن الوجهة الديلمية ، كان هذا الإصلاح رجوعاً إلى أصل العقيدة البسيطة والأخلاق الصارمة فى صدر المسيحية اليهودية . فإن عداء البروتستانتية للصور الدينية والتماثيل ، كان عوداً إلى عداء السامية « للصور المنحوتة » . واحتفلت بعض الفرق البروتستانتية بيوم السبت (مثل اليهود) . وإن إنكار عبادة العذراء ، وعبادة القديسين ليقترب كثيراً من التوحيد الصارم عند اليهود . كما أن ارتضاء القساوسة الجدد للزواج والجلس ، جعلهم أشبه بأحبار اليهود ، منهم بالكهنة الكاثوليك . إن نقاد رجال الإصلاح الدين اتهموهم « بالتهود » ، وأسموهم « أشباه اليهود » أو « أنصاف اليهود »[٢٠] . وقال كارلستاد نفسه إن ملانكتون (من رجال الإصلاح اللوثرى فى ألمانيا) أراد أن يرجع إلى موسى

وشريعته ، وضم كالفن تهمة « التهود » إلى آثام سرفيتس السيئة ، وسلم الأسبانى بأن دراساته العبرية أثرت عليه فى مناقشة لاهوت التثليث . وأعاد حكم كلفن فى جنيف إلى الأذهان تسلط الكهنة فى إسرائيل القديمة . واتهم زونجلى بأنه متهود لأنه درس العبرية مع اليهود ، وبنى كثيراً من عظاته وتعليقاته على النص العبرى للتوراة ، واعترف بأنه مفتون باللغة العبرية :

> لقد ألفيت « اللغة المقدسة » ، فوق كل ما يعتقده الناس ، لغة مهذبة رشيقة جليلة ؛ وعلى الرغم من فقرها فى عدد الكلمات ، فإن أحداً لا يشعر بهذا النقص ، لأنها تستخدم حصيلتها من الألفاظ بأساليب شتى . والحق أنى قد أجرؤ على القول بأن الإنسان إذا أدرك جلالها ورشاقتها ، لوجد أنه ليس هناك لغة أخرى تستطيع أن تعبر عن الكثير بمثل هذا العدد القليل من الألفاظ ، وبمثل هذه التعابير القوية ؛ وليس ثمة لغة مثلها غنية بأساليب التصوير المتعـــددة الجوانب الزاخرة بالمعانى . وليس هناك لغة مثلها تبهج القلب وتنفذ إليه بسرعة[٢١] .

ولم يكن لوثر متحمساً إلى مثل هذا الحد . وقال شاكياً : « كيف أبغض قوماً يقحمون على الناس لغات كثيرة كما يفعل زونجلى ، فقد تحدث على المنبر باليونانية والعبرية فى همبرج »[٢٢] . وهاجم لوثر فى نزق شيخوخته وخرفه ، اليهود وكأنه لم يتعلم منهم شيئاً . وليس ثمة إنسان بطل فى رأى دائنه . وفى نشرة عن « اليهود وأكاذيبهم » (١٥٤٢) أفرغ لوثر وابلا من الحجج ضد اليهود ، على أنهم كانوا قد أبوا أن يرتضوا المسيح إلهاً ، وأن ما عانوا طوال حياتهم أثبت غضب الله عليهم ، وأنهم دخلاء على أراضى المسيحيين ، وأنهم كانوا وقحين فى ثرائهم القائم على الربا ، وأن التلمود أجاز الخداع والسرقة والسلب وقتل المسيحيين ، وأنهم سمموا العيون والآبار ، وذبحوا

أطفال المسيحيين ليستخدموا دماءهم فى الطقوس الإسرائيلية . وقد رأينا فى دراستنا له فى شيخوخته كيف أنه نصح الألمان بإحراق بيوت اليهود ، وإغلاق معابدهم ومدارسهم ، ومصادرة ثرواتهم ، وتجنيد رجالهم ونسائهم فى أعمال السخرة ، وأن يخير جميع اليهود بين اعتناق المسيحية أو قطع ألسنتهم . وفى عظة ألقاها قبل موته بوقت قصير ، أضاف أن الأطباء اليهود كانوا يتعمدون تسميم المسيحيين (٢٣) . وساعدت هذه التصريحات على أن تجعل البروتستانتية — وهى المدينة كثيراً لليهودية — أشد عداوة للسامية من الكاثوليكية الرسمية ، ولو أنها ليست فى هذا المجال أكثر من جماهير الكاثوليك الذين أثروا على الناخبين فى سكسونيا وبراندنبرج ليطردوا اليهود من هذه البقاع (٢٤) . لقد أشاعوا هذه النغمة فى ألمانيا على مدى عدة قرون ، وأعدوا شعبها لإبادة الجنس حرقاً .

٢ — على السفود

لماذا كان المسيحيون واليهود يمقتون بعضهم بعضاً ؟ لا ريب أنه كان هناك سبب يسود بينهم باستمرار ، ذلك هو الصراع الحاد بين العقائد الدينية ، حيث كان اليهود يشكلون تحدياً ثابتاً معمراً للمعتقدات المسيحية الأساسية .

وأدى العداء الدينى إلى فصل عنصرى جاء فى أول الأمر طوعاً ، ثم بات قسراً فيما بعد ، حيث انبثق فى إنشاء أول حى يهودى فى سنة ١٥١٦ . وأبرز هذا الفصل العنصرى الاختلافات فى اللباس وطرق الحياة والملامح والصلاة والكلام . وشجع هذا التباين على عدم الثقة والخوف المتبادلين بين الطرفين ؛ وولد هذا الخوف كراهية . وحول اليهود ما ألفوا من منع زواجهم من المسيحيين مفخرة لهم . وتمخض اعتزازهم بجنسهم عن تباهيهم بأنهم سلالة ملوك قد حكموا إسرائيل ألف سنة قبل ظهور المسيح ؛ واحتقروا المسيحيين بوصفهم مشركين يؤمنون بالخرافات ، وأنهم يتصفون بشىء من

بطء الفهم ، ولكنهم يتشدقون بعبارات ملؤها الرياء المهذب على حين يأتون بأعمال وحشية لا يستشعرون فيها الرحمة ، ويعبدون « أمير سلام » على حين يشن الإخوة الحرب تلو الحرب ضد إخوتهم . كما احتقر المسيحيون اليهود على أنهم كفرة غرباء لا يؤلفون . ويروى توماس مور قصة سيدة تقية صعقت عندما علمت أن السيدة العذراء كانت أصلا يهودية ، فاعترفت بأنها لن تستطيع بعد ذلك أن تكن « لأم الإله » ما كانت تكنه لها من حب من قبل[٢٥] .

وأصبحت قصة القربان المقدس مأساة لليهود . فقد طلب إلى المسيحيون أن يؤمنوا بأن الكاهن كان يحول رقائق الخبز غير الخمر إلى جسد المسيح ودمه ، وقد ارتاب فى هـــذا بعض المسيحيين ، مثل « طائفة المتمتمين(*) » ، وربما أمكن أن يقوى من هذا الاعتقاد ما روى من قصص عن بعض رقائق الخبز المكرس التى تقطر دماً عند أية وخزة من سكين أو دبوس . ولكن من ذا الذى يقدم على هذه الفعلة الشنيعة غير اليهود ؟ وفى القرون الأخيرة من العصور الوسطى كانت مثل هذه الأساطير التى تروى عن القربان الذى يقطر دماً كثيرة جداً . وفى حالات عديدة : فى نيوبرج (بالقرب من باسو) ١٣٣٨ ، وفى بروكســـل ١٣٦٩ ، أدت هذه المزاعم إلى ذبح اليهود وإحراق بيوتهم . وأقيم فى كالدرائية سانت جود ول فى بروكسل مصلى خاص لتخليد ذكرى القربان الذى أدمى ١٣٦٩ ، واحتفل بهذه المعجزة سنوياً فى عيد يطلق عليه Flemish Kermess[٢٦] . واعترف أحد الكهنة فى نيوبرج بأنه كان قد غمس قرباناً غير مكرس فى الدم وخبأه فى إحدى الكنائس ثم اتهم

(*) Lollards جماعة من المصلحين السياسيين والدينيين فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وهم فى انجلترا أتباع جون ويكلف الذى استقت نظرياته كثيرا من نقاط الإصلاح البروتستانتى الذى جاء فيما بعد . (الترجمة)

اليهود بطعنه[٢٧] . وينبغى أن نضيف إلى هذا أن رجال الكنيسة المستنيرين مثل نيقولا أوف كوزا دمغ أساطير هجمات اليهود على القربان بأنها ضروب من القسوة مخزية .

واستمرت المنافسات الاقتصادية وراء العداء الدينى . فعلى حين امتثل المسيحيون لأمر البابا بتحريم الفوائد الربوية ، حصل اليهود على ما كاد يكون احتكاراً لإقراض النقود فى العالم المسيحى . ولما تجاهل بعض أصحاب المصارف المسيحيين هذا التحريم ، هبت شركات مثل Bardi ، Pitti ، Strozzi فى فلورنسه ، وولزرز Welsers ، Hochstetters ، Fuggers فى أوجزبرج ، هبت تتحدى هذا الاحتكار ، ومن ثم تركزت هنا إثارة جديدة للخواطر ، وتقاضى الطرفان ، المسيحيون واليهود ، كلاهما نسبة عالية من فوائد القروض ، مما يعكس المخاطرة بإقراض النقود فى اقتصاد غير مستقر ، زاد من زعزعته ارتفاع الأسعار وانخفاض قيمة العملة . وغالى المقرضون اليهود أكثر مما فعل منافسوهم . وباتت ديون اليهود على المسيحيين غير محققة وغير مأمونة تكتنفها مخاطرة كبيرة ، فقد تعلن السلطات الكنسية تأجيل الدفع ، كما حدث فى الحروب الصليبية ، وربما فرض الملوك ، وقد فرضوا بالفعل ، على اليهود ضرائب يصادرون بها أموالهم ، أو ابتزوا القروض منهم قسراً وإلا طردوهم وأحلوا مدينيهم من ديونهم أو تقاضوا نصيباً من المسموح بجمعه من الأموال . وفى شمال الألب ظلت كل الطبقات تقريباً ، فيما عدا رجال الأعمال ، تعتبر الفائدة رباً ، ودمغوا بالإجرام أصحاب المصارف اليهود ، وخاصة من يقترضون منهم . ولما كان اليهود بصفة عامة أكثر رجال المال خبرة وتجربة ، فقد استخدمهم الملوك فى كثير من الأقطار لإدارة الشئون المالية فى الدولة . وكانت رؤية اليهود الأثرياء يتقلدون مناصب مربحة ويجمعون الضرائب من الناس تثير استياء الشعب وسخطه .

ومع هذا كله ، رحبت بعض المجتمعات المسيحية بأصحاب المصارف من اليهود : وقدمت لهم فرنكفورت امتيازات خاصة شريطة تقاضيهم نسبة ٣٢½٪ فقط ، على حين تقاضوا من آخرين ٤٣ ٪ [٢٨] ، وقد نرى فى هذا ما يثير نفورنا الشديد ، ولكننا نسمع عن مقرضى تاود مسيحيين بلغ ما تقاضوه ٢٦٦ ٪ ، وتقاضى آل هولز هورز فى نورمبرج ٢٢٠ ٪ فى ١٣٠٤ ، وتقاضى المقرضون المسيحيون فى برانديزى ٢٤٠ ٪[٢٩] . كما نسمع عن مدن طالبت بعودة أصحاب المصارف اليهود باعتبـــارهم أكثر تساهلا ورفقاً من نظرائهم المسيحيين . واشترطت رافنا : فى معاهدة مع البندقية ، وجوب إرسال ماليين يهود إليها لتفتح حسابات مصرفية للنهوض بالزراعة والصناعة[٣٠] .

وأضافت الروح القومية نغمة جديدة إلى أنشودة البغض والكراهية : وذهبت كل أمة إلى أنها بحاجة إلى وحدة عرقية ودينية . وطالبت بامتصاص اليهود فيها أو تحولهم عن دينهم . وكانت عـــدة مجالس كنسية ، كما كان بعض البابوات يكرهون اليهود بشكل يتسم بالعدوان . وحرم مجلس فيينا (١٣١١) أى تعامل بين المسيحيين واليهود . واستن مجلس زمورا (١٣١٣) قاعدة بأن يبقوا فى حالة خضوع وعبودية صارمة . وجدد مجلس بال (١٤٣١ — ١٤٣٣) القوانين الكنسية التى تحرم على المسيحيين معاشرة اليهود ، أو خدمتهم ، أو استخدامهم كأطباء ، وأصدرت التعليمات إلى السلطات المدنية بعزل اليهود فى أحياء مستقلة ، وإلزامهم بوضع شارة مميزة ، والتحقق من حضورهم عظات تهدف إلى تحويلهم عن دينهم[٣١] . ولم يطق البابا يوجينيوس الرابع ، الذى كان فى نزاع مرير مع مجلس بال ، أن يتفوق عليه هذا المجلس فى إزعاج اليهود ، فأكد التجريد من الحقوق الذى وضعه هـــذا المجلس ، وأضاف أنه يجب ألا يكون اليهود مؤهلين لأية وظيفة عامة ، وألا يرثوا أية ممتلكات مسيحية ، وألا يشيدوا مزيداً من المعابد ، وأن يقبعوا فى دورهم خلف الأبواب والنوافذ المغلقة

فى أسبوع الآلام ، (احتياط حكيم ضد عنف المسيحيين) ، أضف إلى ذلك أنه لا يعتد قانوناً بشهادة اليهود ضد المسيحى . وشكا يوجينيوس من أن بعض اليهود افتروا على يسوع ومريم فى أحاديثهم . ويحتمل أن هذا كان صحيحاً[٣٢] ، فإن الكراهية تولد الكراهية . وأصدر يوجينيوس بعد ذلك مرسوماً آخر يقضى بأنه إذا وجد يهودى يقرأ التلمود ، فلابد من مصادرة أملاكه . وفوض البابا نيقولا الخامس القديس يوحنا كابسترانو (١٤٤٧) ليراقب أن كل مادة فى هذا التشريع المذل توضع موضع التنفيذ ، وليضع يده على ممتلكات أى طبيب يهودى تولى علاج فرد مسيحى[٣٣] .

وعلى الرغم من كل هذه المراسيم كان سلوك جمهور المسيحيين مع اليهود يتسم بتلك الروح الطيبة التى تسيطر على كل الناس تقريباً ، رجالا ونساء . بل وعلى الحيوانات ، إذا لم يعترض سبيلهم أو يمس مصالحهم شيء . ولكن من الجائز أن يوجد فى معظم الجماعات أقلية لا تتورع عن ممارسة أعمال القسوة إذا أمكن القيام بها مع الإفلات من العقوبة بصفة جماعية . ومن هذا القبيل جماعة « الباستير » ، وقد نشأوا كرعاة مرتبطين بالأرض المقدســة ، وجذبوا أنظار الدهماء من الناس لدى مرورهم بفرنسا (١٣٢٠) ، فقد عقدوا العزم على قتل كل من يصادفهم من اليهود الذين رفضوا التعميد . وفى تولوز اعتصم نحو ٥٠٠ من اليهود بأحد الأبراج ، فحاصرهم حشد هائج من الغوغاء ، وخيروهم بين التعميد أو الموت ، وحاول محافظ المدينة عبثاً إنقاذهم . ولما أدرك اللاجئون أن المقاومة ضرب من المحال ، أمروا نفراً من الأقوياء فيهم بأن يذبحوهم . وقيل إنهم جميعاً بهذه الطريقة لقوا حتفهم فيما عدا واحداً ، عرض الإبقاء على حياته ، مع الإذعان للتعميد ، ولكن الحشد الثائر مزقه إرباً . وبمثل هذه الطريقة استؤصل نحو ١٢٠ جالية يهودية فى جنوب فرنسا وشمال أسبانيا ولم يخلفوا وراءهم إلا بقية معدمة[٣٤] . وفى ١٣٢١ أحرق فى شينون

١٢٠ يهوديا بتهمة تسميم الآبار[٣٥] ، وفى ١٣٣٦ أعلن أحد المتعصبيين الألمان أنه تلقى الوحى من عند الله يأمره بقتل اليهود ثأراً لموت المسيح ، فجمع حوله نحو خمسة آلاف من الفلاحين ، أطلقوا على أنفسهم اسم Armleder نسبة لشريط من الجلد ربطوه حول أذرعهم ، وجاسوا خلال الألزاس وأراضى الراين ، وقتلوا كل يهودى عثروا عليه ؛ واجتاحت حمى القتل بافاريا وبوهيميا ومورافيا والنمسا (١٣٣٧) وحاول البابا بندكت الثانى عشر وقفها دون جدوى ، ولكن فى راتسبون وفيينا فقط أمكن حماية اليهود بطريقة فعالة ، أما فى الأماكن الأخرى فقد عذب الآلاف من اليهود وقتلوا[٣٦] .

وكان الموت الأسود كارثة خاصة حلت باليهود فى العالم المسيحى . لقد أودى الطاعون نفسه بحياة المغول والمسلمين واليهود فى آسيا ، وهناك لم يفكر أحد فى إلقاء اللوم على اليهود ، ولكن فى أوربا الغربية حيث جن جنون الأهالى لهول الوباء وما أحدثه من دمار ، اتهم اليهود بتسميم الآبار فى محاولة لاستئصال المسيحيين . ونسج الخيال المسعور كثيراً من التفاصيل . فقيل بأن يهود طليطلة أرسلوا رسلهم بصناديق ملأى بالسم الذى صنعوه من السحالى والعظاءات (نوع من الزواحف) وقلوب المسيحيين ، إلى جميع الجاليات اليهودية فى أوربا ، مع توجيهات بإلقاء هذه السموم المركزة فى الآبار والعيون ؛ ودمغ الإمبراطور شارل الرابع هذا الاتهام بالسخف الذى لا يعقل ، وكذلك فعل البابا كليمنت السادس[٣٧] ، وأيد كثيرون من عمد المدن والمجالس البلدية هذا الرأى ، ولكن ذلك كله لم يأت بنتيجة تذكر ، وساد بين المسيحيين اعتقاد باطل بأن الطاعون لم يكن يمس اليهود بسوء ؛ وربما كانت الحمى فى بعض المدن أقل فتكاً باليهود منها بالمسيحيين . تبعاً لاختلاف القوانين الصحية والرعاية الطبية[٣٨] ، ولكن فى بعض الأماكن مثل فيينا ، راتسبون ، أفنيون ، رومه ، عانى اليهود من الطاعون قدر ما عانى

المسيحيون(٣٩)، ومع ذلك عذب اليهود حتى اعترفوا بتوزيع السم(٤٠). وأغلق المسيحيون آبارهم وعيونهم، وشربوا ماء المطر أو الثلج المذاب، وانتشرت المذابح الرهيبة فى فرنسا وأسبانيا وألمانيا. وفى إحدى المدن فى جنوب فرنسا ألقيت الجالية اليهودية بأسرها فى النار. وأحرق كل اليهود فى سافوى، وحول بحيرة ليمان وفى برن وفريبورج وبروكسل. ومرة أخرى استنكر كليمنت السادس هذا الإرهاب وهذه التهمة، وأعلن براءة اليهود، وأشار إلى أن الطاعون كان شديداً حيث لا يوجد يهود، قدر شدته فى أى مكان آخر، وحث رجال الدين على أن يكبحوا جماح الناس فى أبرشياتهم، وحرم من الكنيسة كل من قتل اليهود أو اتهمهم ظلماً وافتراء، ولكن فى ستراسبورج، على أية حال، شارك الأسقف فى توجيه الاتهام، وحرض المجلس البلدى، على كره من المجلس، على أن ينفى كل اليهود. ورأى الجمهور أن هذا الإجراء معتدل، فطرد المجلس وعين مجلساً غيره، أمر بالقبض على كل اليهود فى المدينة، وهرب بعض هؤلاء إلى الريف ولكنهم لقوا حتفهم بأيدى الفلاحين. وبقى ألفان من اليهود فى المدينة فأودعوا السجون، وفرض عليهم التعميد، فأذعن نصفهم، ورفض الباقون فأحرقوا (١٤ فبراير ١٤٣٩). وبلغ مجموع من أبيدوا نحو ٥١٠ جاليات يهودية فى أوربا المسيحية نتيجة هذه المذابح(٤١)، وهلك عدد أكبر من ذلك، ففى سرقسطه على سبيل المثال، عاش واحد من بين كل خمسة من اليهود بعد الموت الأسود وما صحبه من اضطهادات(٤٢) وقدر لى Lea أن ٣٠٠٠ من اليهود قتلوا فى أرفورت، ١٢٠٠٠ فى بافاريا(٤٣). وفى فيينا بناء على نصيحة الحبر جونة Jonah تجمع كل اليهود فى المعبد وقتلوا أنفسهم بأيديهم، وحدث مثل هذا الانتحار الجماعى فى ورمز، أوبنهايم، كرمز Krems، فرانكفورت(٤٤). وحمل الذعر آلافاً من اليهود على الفرار من أوربا الغربية إلى بولندة أو تركيا. وقد يكون من

العسير أن نعثر ، قبل زماننا أو فى سجلات للوحشية ، على أية أعمال أشد وحشية من قتل اليهود بالجملة فى الموت الأسود .

وزحف اليهود الذين عمروا بعد الموت الأسود ، وئيداً إلى المدن التى كانت قد سلبتهم ، وأعادوا بناء معابدهم ، ولكن اشتد شعور الكراهية نحوهم ، حيث نسب الخطأ إليهم . وفى ١٣٨٥ أودع السجون كل اليهود فى مدن « العصبة السوابية » وعددها ٣٦ مدينة ، ثم أطلقوا سراحهم على شريطة إلغاء كل الديون التى لليهود ، ونال هذا الإجراء كل الرضا فى نورمبرج بصفة خاصة لأنها كانت قد اقترضت منهم ما يعادل نحو ٧٠٠،٠٠٠ دولار[٤٥] . وفى ١٣٨٩ ذبح عدد من اليهود بتهمة أنهم كانوا قد انتهكوا قدسية قربان مكرس . وبنفس التهمة أحرق ١٤ يهودياً فى ابوتزن (١٣٩٩)[٤٦] . ولأسباب مختلفة طرد اليهود من كولون (١٤٢٤) ، ومن سبير Speyer (١٤٣٥) ، ومن ستراسبورج وأوجزبرج (١٤٣٩) ، ومن ورزبرج (١٤٥٣) ، وأرفورت (١٤٥٨) ، وماينز (١٤٧٠) ، ونورمبرج (١٤٩٨) ، ومن أولم (١٤٩٩) . وأقر مكسيمليان الأول طردهم من نورمبرج على أساس أنهم « قد كثر عددهم وأنهم بفضل معاملاتهم الربوية وضعوا أيديهم على ممتلكات كثير من أفاضـــل المواطنين ، وجروهم إلى مهاوى البؤس والعار »[٤٧] . وفى ١٤٤٦ أودع كل اليهود فى نطاق براندنبرج السجون وصودرت بضائعهم باتهامات دمغها ستيفن أسقف المدينة بأنها تخفى وراءها الجشع والطمع ، « لقد تصرف تصرفاً جائراً أولئك الأمراء الذين دفعهم جشعهم المفرط إلى القبض على نفر معين من اليهود وإلقائهم فى غياهب السجون دون مبرر عادل . وهم يرفضون أن يعوضوهم عما ابتزوا منهم »[٤٨] . وفى ١٤٥١ فرض نيقولا كاردينال كوزا ، وهو من أكثر الرجال استنارة فى القرن الخامس عشر ، على اليهود المقيمين فى حدود ولايته وضع الشارة . وبعد ذلك بعامين بدأ يوحنا كابسترانو بوصفه ممثلا للبابا نيقولا الخامس ،

مهمته فى ألمانيا وبوهيميا ومورافيا وسيازيا وبولندة . واتهم فى عظاته الملتهبة اليهود بقتل الأطفال وتدنيس القربان ، وهى اتهامات كان قد دمغها البابوات بأنها خرافات قتالة . وأخرج أدواق بافاريا كل العبرانيين من دوقيتهم بعد أن ألهبهم « سوط اليهود » . هذا . أما جودفرى أسقف ورزبرج الذى كان قد منح اليهود امتيازاتهم كاملة فى فرانكونيا ، فإنه عاد الآن فنفاهم ، وفى المدينة تلو المدينة قبض عليهم وألغيت كل الديون التى كانت لهم . وفى برسلاو سجن عدد من اليهود بناء على طلب كابسترانو ، وأشرف هو بنفسه على التعذيب الذى انتزع من بعضهم أى اعتراف أمر كابسترانو بالإدلاء به ، وعلى أساس هذا الاعتراف أعدم أربعون منهم حرقاً (٢ يونيه ١٤٥٣) . ونفى اليهود الباقون ، ولكن أطفالهم انتزعوا منهم وعمدوا بالقـــوة(٤٩) . وضم كابسترانو إلى قائمة القديسين ١٦٩٠ .

وإن محنة اليهود فى راتسبون لتوضح حقيقة هذا العصر . فقد زعم هانز فوجل ، وهو يهودى تنصر أن أحد الأحبار واسمه إسرائيل برونا ، فى الخامسة والسبعين من العمر كان قد ابتاع منه طفلا مسيحياً وقتله ، ليستخدم دمه فى أحد الطقوس اليهودية . وآمن الناس بصحة الاتهام ، وتعالت صيحاتهم مطالبين بعقوبة الموت للحبر العجوز . وألقى مجلس المدينة بالشيخ العجوز فى السجن إنقاذاً له من أيدى الجمهور . وأمر الإمبراطور فريدريك الثالث بالإفراج عنه . ولم يجرؤ المجلس على الامتثال للأمر ، ولكنه قبض على فوجل ، وأبلغه أنه لا مناص من موته ، وطلب إليه أن يعترف بخطاياه . فأقر أن برونا برىء ، وأفرج عن الحبر . ولكن ترامت الأنباء إلى راتسبون عن اعتراف بعض اليهود تحت وطأة التعذيب بقتل طفل مسيحى فى ترنت . وهنا نشأ من جديد الاعتقاد بصحة اتهام فوجل ، فأمر المجلس باعتقال كل يهود راتسبون ومصادرة بضائعهم . وتدخل فردريك ، وفرض على المدينة غرامة قدرها ثمانية آلاف جيلدر ، ووافق المجلس على إطلاق سراح اليهود

إذا دفعوا هـذه الغرامة ، وفوقها مبلغ ١٠ آلاف جيلدر بصفة كفالة (٢٥٠٫٠٠٠ دولار ؟) . فأجاب اليهود بأن هذا المبلغ (١٨٫٠٠٠ جيلدر) يزيد على كل ما تبقى لهم من ممتلكات ، ومن ثم يتعذر عليهم دفعه . وقضوا فى السجن عامين آخرين . ثم أطلق سراحهم بعـد أن أقسموا اليمين بألا يغادروا راتسبون وألا يحاولوا الانتقام . على أن رجال الدين أهاجوا الشعور لطردهم وهددوا بالحرمان من الكنيسة كل تاجر يبيع اليهود شيئاً ؛ ولم يبق فى سنة ١٥٠٠ سوى ٢٤ أسرة يهودية ، وطرد هؤلاء فى ١٥١٩(٥٠) ؛

ووصف طرد اليهود من أسبانيا ، فيما أسلفنا من قبل ، بأنه عملية مهمة بالنسبة لتاريخ تلك البلاد . وتجدد فى البرتغال اضطهادهم عندما سمح البابا كليمنت السابع ، بتحريض من شارل الخامس ، للأساقفة البرتغاليين بإنشاء محكمة التفتيش (١٥٣١) بقصد فرض الشعائر المسيحية على « المسيحيين الجدد » ، ومعظمهم من اليهود الذين كانوا قد عمدوا رغم إرادتهم ؛ وطبق قانون توركيمادا الصارم ، وبثت العيون والأرصاد لملاحقة ارتداد أى من المتنصرين إلى شىء من الطقوس الدينية اليهودية ، وسجن الألوف من اليهود ، وحرمت عليهم الهجرة ، لأن مهامهم الاقتصادية كانت لا تزال ضرورية للاقتصاد البرتغالى . وحرم على المسيحيين شراء شىء من أملاك اليهود منعاً لهم من الهرب ، وأرسل مئات من هؤلاء إلى المحرقة لمحاولتهم مغادرة البلاد . وصعق كليمنت لهذه الإجراءات ، وربما أثرت فيه هدايا اليهود ، فأبطل سلطة محكمة التفتيش البرتغالية ، وأمر بإطلاق سراح كل من أمرت بسجنهم ، وإعادة بضائعهم المصادرة . ونص مرسومه الصادر فى ١٧ أكتوبر ١٥٣٢ على بعض مبادئ إنسانية للتعامل مع المرتدين عن المسيحية .

لما كانوا قد سيقوا إلى التعميد قسراً ، فلا يجوز أن يعتبروا أعضاء فى الكنيسة . وإن فى معاقبتهم على الهرطقة والانتكاس إلى شعائرهم الأولى ، خرقاً لمبادىء الإنصاف والمساواة ،

والأمر يختلف فيما يتعلق بأبناء وبنات المورانة الأولين فإنهم يتبعون الكنيسة كأعضاء مختارين غير مكرهين . وبما أنهم نشأوا فى أحضان أقرباء لهم من اليهود ، وشاهدوا هذا النموذج ماثلا دوماً تحت بصرهم ، فإنه من القسوة أن نعاقبهم بمقتضى قانون الكنيسة ، بتهمة التردى فى أساليب اليهود ومعتقداتهم . إنهم يجب أن يظلوا فى أحضان الكنيسة بالمعاملة الحسنة(٥١) .

ويتبين أن كليمنت كان مخلصاً من رسالة بعث بها عند ما شعر بدنو أجله ، إلى القاصد الرسولى فى البرتغال فى ٢٦ يوليو ١٥٣٤ ، يأمره بالإسراع بإطلاق سراح المسجونين المرتدين(٥٢) .

وتابع البابا بول الثالث بذل الجهد لمعاونة اليهود البرتغاليين ، وأطلق سراح ١٨٠٠ من المسجونين ، ولكن عند ما عاد شارل من حملته التى كانت فى ظاهرها ناجحة ضد تونس ، طالب ، مكافأة له ، بإعادة محكمة التفتيش فى البرتغال . ووافق بول على كره منه (١٥٣٦) ، ولكن بشروط بدا للملك جون الثالث أنها تنسخ موافقته — منها ضرورة مواجهة المتهم بمن اتهمه . وإثبات حق المحكوم عليه فى استئناف الحكم أمام البابا . وساعد مرتد متعصب المحققين بأن علق على جدران كاتدرائية لشبونة إعلاناً جريئاً جاء فيه : « أن المسيح المخلص لم يظهر بعد ، وأن يسوع ليس هو المخلص ، وأن المسيحية محض افتراء »(٥٣). ولما كان من الواضح أن مثل هذه العبارات قصد بها إيذاء اليهود ، فإن لنا أن نرتاب بحق فى أحد العملاء المحرضين . وعين بول لجنة من الكاردينالات لفحص إجراءات محكمة التفتيش البرتغالية . وقد جاء فى تقريرها :

إذا اتهم مسيحى زائف — وغالباً ما يكون ذلك عن طريق شهود مفترين — ساقه المحققون إلى منعزل موحش لا يرى

فيـــه أرضاً ولا سماء ، وأقل ما يقال إنه لا يخاطب فيه صديقاً يواسيه أو يسعفه . ويتهمونه بمقتضى شهادة غامضة ولا ينبئونه بالزمان أو المكان الذى اقترف فيه الجريمة التى يحاكم من أجلها . ويسمح له فيما بعد باختيار محام عنه غالباً ما يقوده إلى طريق المحرقة ، بدلا من الوقوف إلى جانبه والدفاع عن قضيته . دع مخلوقاً منكود الحظ يقر بأنه مسيحى مؤمن حقاً ، وينكر إنكاراً قاطعاً الخطايا التى سيقت لاتهامه ، فإنهم يسلمونه إلى النار ، ويصادرون بضاعته . أو دعه يدفع بأنه مذنب فى كذا وكذا من الأعمال ، ولو أنها ارتكبت عن غير قصد ، فإنهم يعاملونه بالطريقة نفسها ، مدعين بأنه ينكر عناداً نياته ومقاصـــده السيئة ؛ أو دعه يعترف اعترافاً كاملا صريحاً بصحة ما اتهم به ، فإنهم يسومونه أشد ضروب الحرمان ، ويحكمون عليه بالبقاء فى زنزانة كئيبة مظلمة لا يرى فيها النور ، ويسمون هـــذا « معاملة المتهم بالرحمة والرأفة والبر المسيحى » ! وحتى الذين يفلحون فى إثبات براءتهم يحكم عليهم بدفع غرامة ، حتى لا يقال إنه قبض عليهم بلا سبب . أما المتهمون المودعون فى السجون فإنهم يعذبون بكل آلات التعذيب حتى يقروا بما وجه إليهم من اتهامات . وكثيرون يقضون نحبهم فى السجن ؛ أما الذين يطلق سراحهم ، فإنهم هم وذوى قرباهم يدمغون بالعار الأبدى(٥٤) .

لقد أرهقت التطورات السياسية البابا بول ، وأقض مضجعه خطر فقدان أسبانيا والبرتغال ، كما كان البابا ليو قد فقد ألمانيا ، والبابا كليمنت إنجلترا ، ولكن بول على الرغم من ذلك بذل قصارى جهده للتخفيف من حدة محاكم

التفتيش ، ولكن الإرهاب كان يستشرى يوماً بعد يوم ، حتى وجد يهود البرتغال ، بكل وسيلة يائسة ، مهرباً من مضيفيهم ، وانضموا إلى إخوانهم فى أسبانيا سعياً وراء ركن يقبعون فيه بالعالم المسيحى أو أرض الإسلام ، ويمكن أن يحتفظوا فيه بشريعتهم مع الإبقاء على حياتهم .

٣ ـ الشتات الثانى

إلى أين يذهب اليهود ؟ إن جزيرتى سردينيا وصقلية اللتين كانوا قد قطنوا فيهما لمدة ألف سنة من قبل ، قد شملهما ، بالإضافة إلى أسبانيا ، المرسوم الذى أصدره فرديناند بطردهم . وما جاءت ١٤٩٣ حتى كان آخر يهودى قد غادر بالرمو . وفى نابولى استقبل فرانت الأول والإخوان الدومينيكان والجالية اليهودية المحلية ، آلاف اللاجئين بالترحاب . ولكن شارل الخامس أصدر فى سنة ١٥٤٠ مرسوماً بطرد اليهود من نابولى .

وكان فى جنوه لزمن طويل قانون يحدد دخول أعداد إضافية من اليهود . ولما وصل المرتدون من أسبانيا ١٤٩٢ ، لم يسمح لهم بالبقاء لأكثر من بضعة أيام قليلة . ولقد وصفهم مؤرخ جنوى بأنهم أشباح بالغة الهزال والشحوب والنحول ، عيونهم غائرة ، ولا يفرقهم عن الموتى سوى قدرتهم على الحركة »(٥٥) . ومات الكثير منهم جوعاً ، وحملت الأمهات أطفالا موتى ، وباع بعض الآباء أبناءهم ليدفعوا أجر الانتقال من جنوة . واستقبل نفر قليل من المنفيين فى فيرارا ، ولكن طلب إليهم أن يضعوا شارات صفراء(٥٦) وربما كان هذا بمثابة احتياط ضد انتشار المرض .

وكانت البندقية لعهد طويل مأوى لليهود . وكم من محاولات كانت قد بذلت لإخراجهم منها (١٣٩٥ — ١٤٨٧) ولكن السناتو تولى حمايتهم لأنهم كانوا يسهمون إسهاماً هاماً فى الاقتصاد والمال ، ويتولون الجزء الأكبر من تجارة الصادرات فى البندقية ، وكانوا نشيطين فى استيراد الصوف

والحرير من أسبانيا ، والتوابل واللؤلؤ من الهند[٥٧] . ولفترة طويلة كانوا يقطنون ، بمحض اختيارهم الحي الذي سمي باسمهم (حي اليهود) . وفي ١٥١٦ وبعد تشاور مع زعماء اليهود ، قضى السناتو بأن يقطن كل اليهود ، فيما عدا نفر قليل مرخص لهم بصفة خاصة ، في قطاع من المدينة عرف باسم Ghetto أي حي خاص ، والظاهر أن هذا اللفظ مأخوذ عن كلمة getto ، أو مسبك كان هناك[٥٨] . وأمر السناتو كل اليهود المرتدين بمغادرة البندقية ، وقد شجع المسيحيون المنافسون هذا الإجراء . على أن بعض التجار المسيحيين عارضوه لأنه يهدد بفقدان أسواق معينة ، وخاصة في العالم الإسلامي ، ولكن شارل الخامس استخدم كل نفوذه في الموضوع ، ونفذ مرسوم الطرد[٥٩] . على أنه لم يمض وقت طويل حتى زحف التجار اليهود إلى البندقية ثانية ، وحل المنفيون من البرتغال محل اليهود المتنصرين الذين طردوا ، وأصبحت اللغة البرتغالية لبعض الوقت هي لغة اليهود البنادقة .

واستقبل البابا الإسكندر السادس استقبالا كريماً في رومه كثيراً من المنفيين من شبه جزيرة إيبيريا ، وازدهرت أحوالهم في عهد جوليوس الثاني ، وليو العاشر ، وكليمنت السابع ، وبول الثالث . وأباح كليمنت للمرتدين ممارسة الطقوس اليهودية في حرية تامة ، مؤمناً بأنهم غير ملزمين بأي تعميد إجباري[٦٠] . وفي أنكونا ، ثغر الولايات البابوية على الأدرياتيك ، حيث كان اليهود عنصراً نشيطاً في التجارة الدولية ، أنشأ كليمنت مأوى لليهود الذين أعلنوا عن ديانتهم وضمن لهم عدم التحرش بهم . أما بالنسبة للبابا بول الثالث فيقول الكاردينال سادوليتو : « لم يغدق أي من البابوات على المسيحيين من التكريم والحفاوة والامتيازات والمنح مثل ما أغدق بول الثالث على اليهود . إنهم لم يحظوا بالمساعدة فقط بل إنهم تزودوا كذلك عملياً بالمنافع والامتيازات[٦١] » . وشكا

أحد الأساقفة من أن اليهود المرتدين عند دخولهم الى إيطاليا أسرعوا بالعودة إلى ممارسة الطقوس اليهودية وختان أطفالهم المعمدين ، تحت بصر البابا والأهالى ، فى الغالب . وتحت ضغط هذه الانتقادات أعاد بول محاكم التفتيش فى رومه (١٥٤٢) ، ولكنه ، وقف إلى جانب المرتدين طوال حياته(٦٢) .

وتحول خلفاؤه — وقد ضيقت عليهم الخناق انتكاسة عن أساليب الرفق واللين التى سادت عصر النهضة — تحولوا إلى سياسة إزعاج اليهود وإقلاق بالهم . وطبقت المراسيم البابوية القديمة . وفرض بول الرابع (١٥٥٥ — ١٥٥٩) على كل معبد أن يسهم بعشرة دوكات (٢٥٠ دولاراً ؟) فى إقامة دار للمتنصرين ليتلقى فيها اليهود تعاليم المسيحية . وحرم على اليهود استخدام خادم أوممرضات مسيحيات أو علاج مرضى مسيحيين ، أو أن يبيعوا المسيحيين شيئاً غير الملابس القديمة ، أو أن يقيموا مع المسيحيين أية معاملات أو علاقات ممنوعة . وما كان لهم أن يستعملوا إلا التقويم المسيحى . وهدمت كل معابد اليهود فى رومه إلا واحداً ، وحرم على اليهودى أن يمتلك عقاراً ، وإذا كان لأحد منهم أى عقار فعليه أن يبيعه فى بحر ستة شهور ، وبهذه الطريقة استطاع المسيحيون أن يشتروا بما يعادل ٥٠٠,٠٠٠ كراون (١٢,٥٠٠,٠٠٠ دولار) من أملاك اليهود بخمس قيمته الفعلية(٦٣) . وانحصر كل اليهود الذين بقوا آنذاك فى رومه (١٥٥٥) فى حى منعزل عاش فيه عشرة آلاف شخص فى كيلو متر مربع فقط ، وشغلت عدة أسرات حجرة واحدة . وتعرض الحى ، بسبب انخفاض مستواه ، للفيضان الدورى لنهر التيبر ، حتى جعل من هذه البقعة مستنقعاً ملوثاً بالطاعون(٦٤) . وأحيط الحى بأسوار كئيبة تغلق أبوابها فى منتصف الليل وتفتح عند الفجر ، فيما عدا أيام الأحد والعطلات المسيحية فإنها تظل مغلقة طوال اليوم . وألزم اليهود بأن يلبسوا خارج هذا المعزل زياً مميزاً — للرجال

قبعة صفراء ، للنسوه خمار أو شارة صفراء . — وأقيمت أحياء منعزلة مثل هذا في فلورنسا وسيينا ؛ وبمرسوم من البابا في أنكونا وبولونيا ، وكانت تسمى هناك Enferno[٦٥] (الجحيم) . وأصدر بول الرابع أمراً سرياً بوضع كل المرتدين في أنكونا في سجون محكمة التفتيش وبمصادرة بضائعهم . وأحرق هناك أربعة وعشرون رجلا وامرأة واحدة أحياء بتهمة أنهم هراطقة مرتدون (١٥٥٦)[٦٦] وأرسل سبعة وعشرون يهودياً للتجديف على السفن الشراعية إلى الأبد[٦٧] . وكان هذا بالنسبة ليهود إيطاليا انتقالا من عصر ذهبي إلى شفق شاحب .

وتسللت حفنة من اللاجئين اليهود إلى فرنسا وإنجلترا على الرغم من القوانين التي تنص على إبعادهم . وكانت ألمانيا كلها تقريباً مغلقة في وجوههم . وقصد كثيرون إلى أنتورب ، ولكن سمح لنفر قليل منهم فقط بالإقامة لمدة تزيد على شهر . وأسس ديوجومنديس — وهو برتغالي مرتد — في أنتورب فرعاً للبنك الذي كانت أسرته قد أسسته في لشبونه . وفي ١٥٣٢ لاقى من النجاح ماحدا مجلس أنتورب على القبض عليه مع خمسة عشر آخرين بتهمة ممارسة اليهودية . وتدخل هنري الثامن الذي استخدم منديس وكيلا مالياً ، وأطلق سراح ثلاثة عشر ، بعد دفع غرامة فادحة ، وهـذا هو « الغرض الأسمى » من كل حالات القبض . وانتقل اليهود الآخرون إلى أمستردام حيث كان من الممكن أن تنتعش أحوالهم بعد تحرر هولندة من نير أسبانيا سنة ١٥٨٩ .

أما هؤلاء اللاجئون الذين التمسوا مأوى في الأراضي الإسلامية التي لا تخضع مباشرة لسيطرة سلطان تركيا ، فقد صاروا إلى حالة أحسن بقليل منها في العالم المسيحي . وأطلق المغاربة النار على اليهود الذين حاولوا أن يحطوا رحالهم في أوران والجزائر وبوجيا ، ولقي عدد وفير منهم حتفهم . ولما منعوا من الدخول إلى المدن أقاموا معزلا مرتجلا من الأكواخ من خشب الأشجار ، وشبت النيران في أحد الأكواخ ، فالتهمت المستوطنة عن آخرها

مع كثير من اليهود ، أما الذين قصدوا إلى فاس فقد وجدوا الأبواب موصدة دونهم ، فاحتلوا بعض الحقول وعاشوا على الأعشاب وجذور الشجر ، وقتل الأمهات أطفالهن خيراً من أن يرينهم يموتون جوعاً . وباع الآباء أبناءهم فى مقابل قطعة من الخبز . وأتى الطاعون على مئات من الأطفال والشبان . وهاجم القراصنة المعسكر وسرقوا الأطفال ليبيعوهم بيع الرقيق(٦٨). ومزق القتلة أجسام اليهود عساهم يعثرون على مجوهرات اعتقدوا أن اليهود قد ابتلعوها(٦٩) . وبعد كل هذه المصائب والكوارث ، أنشأ الذين عمروا بعدها ، فى شجاعة لا تصدق ، فى ظل ألوان من الضعف والعجز لا نهاية لها ، جاليات يهودية جديدة فى المغرب العربى . وفى الجزائر ، خاطر سيمون ديوران الثانى بحياته المرة بعد المرة ، لحماية المنفيين ، وتنظيمهم بشكل يوفر لهم شيئاً من الأمن . وفى فاس أصبح يعقوب بيراب أشهر علماء التلمود فى زمانه .

ولقى المنفيون من إسبانيا ، استقبالا إنسانياً فى القاهرة تحت حكم سلاطين المماليك والعثمانيين ، وسرعان ما سموا إلى زعامة الجالية اليهودية . وألغى سليم الأول وظيفة Nagid « الأمير » وفيها كان يتولى أحد الأحبار تعيين سائر الأحبار ، ويشرف على شئون كل اليهود فى مصر ، وبعد ذلك أصبح لكل جالية يهودية أن تختار حبراً لها وأن تتولى شئونها الداخلية بنفسها وأنهى حبر القاهرة الجديد وهو داود بن أبى زمرة وهو مهاجر أسبانى — استخدام التقويم البابلى القائم على تقسيم الزمن إلى فترات — الذى كان يهود آسيا وأفريقية يستعملونه — وحثهم على اقتباس تقويم آخر (كما فعل يهود أوربا فى القرن الحادى عشر) وهو تقويم قائم على حساب السنين منذ بدء الخليقة الذى حدد مؤقتاً بعام ٣٧٦١ قبل الميلاد .

وحينما ذهب يهود أيبيريا (Sephardic) حظوا بالزعامة الثقافية ، والسياسية

فى الغالب ، على اليهود المحليين . ففى سالونيك أصبحوا ، وظلوا حتى ١٩١٨ ، غالبية عددية بين السكان ، حتى أن اليهود غير الإسبان الذين جاءوا ليعيشوا فى هذه المدينة ، كان لزاماً عليهم أن يتعلموا اللغة الإسبانية . وفى ظل هذه السيطرة اليهودية ، كانت سالونيك لفترة من الزمن أكثر المراكز التجارية ازدهاراً فى شرق البحر المتوسط .

ورحب السلطان بايزيد الثانى فى تركيا باليهود المنفيين ، لأنهم أحضروا معهم ، على وجه الدقة ، تلك المهارات اللازمة للحرف والصناعات اليدوية والتجارة والطب . مما لم تكن تركيا قد توسعت فيه وطورته إلا فى أقل الحدود . وقال بايزيد عن فرديناند الكاثوليكى : « إنكم تقولون إن فرديناد ملك حكيم عاقل ذلك الذى أفقر بلاده وأغنى بلادنا »[٧٠] . وخضع اليهود ، شأنهم شأن غير المسلمين فى أرض الإسلام ، لضريبة الرأس ، ولكن هذه الضريبة أعفتهم من الخدمة العسكرية . وبقى معظم يهود تركيا فقراء ، ولكن كثيراً منهم أثرى وسما إلى مراكز النفوذ . وسرعان ما أصبح كل أطباء القسطنطينية تقريباً من اليهود . وكان طبيب سليمان من ذوى الحظوة لديه ، إلى درجة أنه أعفاه وأعفى أسرته من كل الضرائب وبرز اليهود فى المناصب الدبلوماسية فى عهد سليمان ، حتى أن السفراء المسيحيين كان لزاماً عليهم أن يتوددوا إليهم تقرباً إلى السلطان . وكان لأنباء اضطهاد اليهود فى أنكونا على يد بول الرابع وقع شديد فى نفس سليمان ، واحتج عليها لدى البابا (٩ مارس ١٥٥٦) وطلب الإفراج عن رعايا تركيا من اليهود فى أنكونا ، وفعلا أطلق سراحهم[٧١] . وآوى جراسيا منديزيا ، وهو أحد أفراد أسرة منديس الذين اشتغلوا بالأعمال المصرفية ، إلى اسطنبول ليجد فيها أخيراً الأمن والطمأنينة ، بعد أن أتى كثيراً من أعمال البر

والخبر فى أنتورب وفيرارا والبندقية ، ولقى جزاء سنمار من الإساءة والأذى :

وفى عهد الأتراك استقبلت الأرض المقدسة مرة أخرى ، القوم الذين كانوا قد أضفوا عليها القداسة أول الأمر . ولما كانت القدس مقدسة لدى المسيحيين والمسلمين ، قدر ما هى مقدسة لدى اليهود ، فإنه لم يسمح بالإقامة فيها إلا لعدد محدود من العبرانيين . أما فى صفد فى الجليل الأعلى ، فقد ازداد عدد اليهود وارتفعت مكانتهم الثقافية بسرعة ، حتى أن يعقوب بيراب حاول أن ينشئ هناك جمعية Sonhedrin(*) ، تكون بمثابة هيئة عليا تتولى الحكم بين جميع اليهود . وكانت تلك فكرة جريئة . ولكن اليهود كانوا موزعين فى شتى البلاد متباينين فى اللغة وطرق الحياة ، إلى حد لا يسمح بتوحيد الحكم . وعلى الرغم من ذلك فإن اليهود فى أرض الإسلام وفى العالم المسيحى ، كانوا فى صلواتهم يتضرعون إلى الرب « ليجمع شتاتهم ويلم شملهم من أركان الأرض الأربعـة » . وفى يوم الكفارة Yom Kippur ، وفى يوم عيد الفصح يجتمع اليهود فى كل مكان فى العالم حول الأمل الذى تشبثوا به فأبقى عليهم وسط المحن ، ويرددون : « سنكون فى العام القادم فى فلسطين »(٧٢) :

٤ ــ فن البقاء

إن قدرة اليهود على الإفاقة من كبوتهم وتخطى المحن التى حلت بهم ، هى إحدى عجائب التاريخ التى تترك فى النفس انطباعاً ، وهى جزء من المرونة البطولية التى أظهرها البشر عامة بعد كوارث الحياة :

(*) Sanhedrin : جمعية هى بمثابة المحكمة العليا والمجلس الأعلى لشعب اليهود القديم ، جمعت بين المهام الدينية والمدنية ، وتكونت من ٧١ عضواً تحت رئاسة الكاهن الأعظم . ألغيت بعد تدمير أورشليم فى سنة ٧٠ م . (المترجمة)

ولم يكن التمييز العنصرى أسوأ إهانة لحقتهم ، فقـد كانوا أكثر أمناً وسعادة فيما بينهم ، منهم وسط الجمهور الذى يضمر لهم العداء ، والفقر أمكنهم أن يتحملوه لأنهم كانوا قد ألفوه لعدة قرون ، ولم يكن خاصاً بهم ، والحق أن فخرهم بالثراء العارض كان أقرب احتمالا من شعورهم بالفقر الذى عانوه منذ أزمان سحيقة . أما أنكى الجراح ، مهما كان الباعث عليه ، فهى الشارة أو الزى المميز الذى دمغهم بأنهم محتقرون منبوذون بين الناس . وكتب مؤرخ اليهود العظيم فى مرارة يقول :

> إن شارة اليهودى كانت بمثابة إغراء للصبية المتشردين بإهانة حامليها وقذفهم بالأوحال ، وإيحاء لجموع الرعاع الحمقى بالانقضاض عليهم وإساءة معاملتهم ، بل حتى قتلهم ، كما هيأت للطبقة العليا فرصة نبذ اليهود ونهبهم أو نفيهم . وأسوأ من هذا العار الخارجى ، أثر الشارة فى اليهود أنفسهم . فقد اعتادوا أكثر فأكثر على مركزهم الحقير المذل ، وفقدوا كل إحساس باحترام الذات . فأهملوا مظهرهم الخارجى : . . وأصبحوا أكثر فأكثر لا يعنون بحديثهم لأنهم لم يسمح لهم بارتياد دوائر الثقافة ، أما فيما بينهم فكانوا يفهمون بعضهم بعضاً برطانة غامضة » وفقدوا كل تذوق للجمال وإحساس به . وأصبحوا إلى حد ما حقراء كما أرادهم أعداؤهم أن يكونوا(٧٣) .

إن هذا وصف يتسم بالمبالغة والتعميم أكثر مما ينبغى ، فكم من اليهود احتفظوا بكبريائهم وتألقوا فى ملابسهم الفاخرة ، وإنا لنسمع المرة بعد المرة عن بنات يهوديات اشتهرن بجمالهن ، وعن Judisch التى تطورت فى القرن السادس عشر إلى لغة ألمانية فيها اقتباسات عبرية وسلافية . كانت تنتج أدباً قوياً متنوعاً حينما كتب جرايتز كتابه « تاريخ اليهود » . وعلى

بهاية حال ، فإن أكبر جريمة ارتكبت فى تلك القرون هى الحط عمداً من قدر شعب بأسره ، وقتل النفس بلا شفقة أو رحمة :

وكان الجزء الذى لا يتجزأ من هذه الجريمة وأساسها ، استبعاد اليهود من كل الأعمال والأشغال تقريباً ، فيما عدا التجارة والشئون المالية . ولأسباب سبق إيجازها(٧٤) ، ولأن الكنيسة كانت تطالب بعشر غلة الأرض المنزرعة ، تراجع اليهود أكثر فأكثر عن زراعة الأرض ، وأخيراً حرم عليهم امتلاك الأراضى(٧٥) : ولما كان محرماً عليهم الانضمام إلى النقابات (التى كانت رسمياً منظمات مسيحية دينية) فإنهم لم يتمكنوا من الدخول إلى عالم الصناعة ، وطوقت الاحتكارات المسيحية عملياتهم التجارية : وعلى الجملة وجدوا أنفسهم ، فى معاملاتهم مع المسيحيين ، محدودين بنطاق ضيق من الصناعة والتجارة وتسليف النقود . وفى بعض البقاع كان محرماً عليهم أن يبيعوا للمسيحيين شيئاً سوى البضائع القديمة المستعملة ، وفقدوا ، بعد القرن الثالث عشر ، تفوقهم السابق فى عالم المال ، ذلك التفوق الذى كان يثير حقد الآخرين وحسدهم ، ولكن رأسمالهم السائل ، ومعرفتهم بلغات العالم ، واتصالاتهم الدولية عن طريق أقربائهم المنتشرين فى كل مكان ، كل أولئك مكنهم من تحقيق مركز عال فى التجارة الأجنبية للدول المسيحية . وكان دور اليهود فى هذا المجال هائلا إلى حد أن الدول التى طردتهم ، خسرت الكثير من حجم تجارتها الدولية . أما تلك التى رحبت بهم فكسبت هذا المجال : وهذا سبب واحد ، وليس السبب الرئيسى ، فى أن أسبانيا والبرتغال اضمحلتا ، على حين انتعشت هولنده ، وفى أن أنتورب أسلمت زعامتها التجارية إلى أمستردام :

وكان لليهود عزاء وإنقاذ فى أن تحكمهم ، فى شئونهم الداخلية ، قوانينهم وأعرافهم وأحبارهم ومجالسهم الدينية . ففى اليهودية ، كما هو الحال فى

الإسلام ، نجد الدين والقانون والأخلاقيات شيئاً واحداً لا يتجزأ . فقد اعتقدوا أن الدين يتمشى مع الحياة على طول الخط . وفى ١٣١٠ صاغ الحبر يعقوب بن أشر القانون والطقوس والأخلاقيات اليهودية فى « أربعة لوائح » ، حلت محل « تعاليم الأحبار » التى وضعها ابن ميمون (١١٧٠) ، مع سجل وضعت فيه كل تشريعات التلمود وأحكام الجيونيم im Ga ، وأصبحت كلها ملزمة لجميع اليهود فى كل مكان . وأصبح كتاب « الجداول الأربعة » المرشد المتفق عليه فى أية قوانين حبرية أو أحكام حتى ١٥٦٥ .

وقوضت مصائب القرنين الرابع عشر والخامس عشر أركان التنظيم الاجتماعى لدى اليهود . ومات من الأحبار ، كما مات من القساوسة ، عدد كبير جداً ، فى الموت الأسود ، ووضعت عمليات الاضطهاد والطرد وحياة اللاجئين ، خاتمة للقانون اليهودى . ووجد يهود أيبريا من العسير عليهم أن يتقبلوا لغات وأعراف الجاليات اليهودية التى عرضت انضمامها إليهم ، فأقاموا معابد خاصة بهم واحتفظوا بلغتهم الإسبانية أو البرتغالية . ووجدت فى كثير من المدن تجمعات منفصلة من اليهود الإسبانيين أو البرتغاليين أو الإيطاليين أو اليونانيين أو الألمان ، ولكل طائفــة حبرها وعاداتها وصــدقاتها وأحقادها[٧٦] . وفى وسط هذه الأزمة أنقذت الأسرة اليهودية شعب اليهود ، فإن الإخلاص المتبادل بين الآباء والأبناء ، وبين الإخوة والأخوات هيأ جواً من الاستقرار والأمن . وانتهت قرون الفوضى فى الأعراف والعادات اليهودية عندما أصدر الحبر يوسف كارو من صفد كتاب « تنسيق الشريعة Shulchan Aruch » (البندقية ١٥٦٤ — ١٥٦٥) ، سجل فيه الدين والقانون والأعراف اليهودية مرة أخرى ، ولكن مذ بنى كارو تشريعه على اليهودية الإسبانية أساساً ، فإن يهود ألمانيا وبولندة أحسوا بأنه لم يول إلا عناية يسيرة لتقاليدهم وتفسيراتهم للقانون . وأضاف الحبر موسى إسرل Esserles من كراكاو إلى « تنسيق الشريعة » ، تنسيق التنسيق » (١٥٧١) صاغ فيه

خلافات الأشكنازى مع قانون كارو الذى كان فى معظمه أسبانيا . وبهذا التنقيح بقى كتاب « تنسيق الشريعة » حتى وقتنا هذا مرجع اليهود ذوى العقيدة الصحيحة ، وكأنه « جستنيان أو بلاكستون » فإذا قلت عن يهودى إنه امتثل لكل التعاليم التى وردت فى « تنسيق الشريعة » فهـذا ذروة المديح والثناء .

ولما كانت كل صياغة جرت للقانون اليهودى مبنية على التلمود ، فيمكن — أو هل يمكن ؟ — أن نتصور الذعر الذى تابع به اليهود تقلبات كتابهم المقدس الثانى . وفى القسم الأدبى من التلمود ، وهو قسم أقل وثوقاً ، ويسمى « هجادة Haggada » ، توجد بعض أجزاء تهزأ ببعض معتقدات مسيحية معينة ، وقد مهد اليهود المتحولون إلى المسيحية طريقهم إليها بسخريتهم من هذه الأجزاء . ووقف العمل بالتلمود بأسره . وعلى الرغم من هذه الحركات التى بلغت ذروتها فى حملة بفركورن على رخلين ؛ شجع ليو الثالث طبع التلمود لأول مرة (البندقية ١٥٢٠) ، ولكن جوليوس الثالث دلل على انتهاء عصر النهضة بأن أمر محكمة التفتيش بإحراق نسخ التلمود الموجودة فى إيطاليا (١٥٥٣) ، واقتحمت بيوت اليهود ، وأخذت آلاف من النسخ ، واشتعلت النيران فى الهواء الطلق فى الكتب اليهودية فى رومه وبولونيا ورافنا وفيرارا وبادوا والبندقية ومانتوا . على أن ميلان رفضت الإذعان لمرسوم الإحراق(٧٧) . وناشدت الجمعيات اليهودية البابا أن يلغى مرسومه ، وظل هو يماطل والكتب تحرق . ولكن بيوس الرابع حكم بأنه يمكن طبع التلمود بعد إخضاعه للرقابة . وبعد ذلك راقب اليهود المنشورات والمطبوعات الخاصة بهم(٧٨) .

وبقى « الزهار Zahar » وهو نص « القبالة » اليهودية . سليما لم يمس بسوء لأن بعض العلماء الكاثوليك ذهبوا إلى أنهم وجدوا فيه أدلة على ألوهية المسيح : وكان الزهار قد كتب قبل ١٢٩٥ بقليل ، بوصفه حلقة من سلسلة

من المؤلفات التي تنقل القبالة أي « التقاليد السرية » لليهود الذين وجدوا أماناً من الفقر والاضطهاد والاضطراب العقلي في التأمل في الرموز الخفية الدينية للأرقام والحروف والقراءة العكسية للألفاظ والاسم الذي يفوق الوصف للرب ، وهكذا . وتجمع اليهود المحزونون في حلقات خاصة يلتمسون ، بالصوم والبكاء وبالتقشف الصارم وبتفسير القبالة ، أن ينزل عليهم وحي جديد ، فيما يتعلق ، فوق كل شيء ، بمجيء « المخلص » الذي قد يخلص إسرائيل من كل أحزانها :

إن الذين حاولوا أن يستشعروا العمق الذي لم يسبق له مثيل للآلام التي عاناها اليهود في القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر ، يمكنهم أن يدركوا مثل هذا اللجوء — الذي يمكن أن يغتفر ، إلى التصوف الذي يجدون فيه السلوى والعزاء ، وخداع النفس المتكرر الذي يلجأ إليه هؤلاء اليهود البائسون ، باعتقادهم أن « المخلص » كان قد جاء بالفعل . وفي ١٥٢٤ امتطى شاب يهودي عربي وسيم أطلق على نفسه اسم داود روبيني ، جواداً أبيض عبر شوارع رومه إلى الفاتيكان ، وقدم نفسه إلى البابا كليمنت السابع على أنه شقيق ورسول ملك يهودي قال إنه يحكم في بلاد العرب قبيلة يهودية قديمة تدعى قبيلة روبين . وقال داود إن مليكه لديه ٣٠٠و٠٠٠ جندي غير كاملي العتاد ، وإذا أمدهم البابا وأمراء أوربا بالسلاح ، فإن القبيلة تستطيع عندئذ أن تطرد المسلمين من فلسطين . واهتم كليمنت بالأمر وعامل داود بالحفاوة التي تليق بمقامه بوصفه سفيراً . وسر يهود روما أن يروا يهوديا يلقى مثل هذا التكريم . وأمدوه بكل ما يحافظ به على صفته الدبلوماسية السامية . ولما تلقى دعوة من جون الثالث ملك البرتغال أبحر مع حاشية كبيرة على سفينة تحمل العلم اليهودي .

وسحر جون بمقترحات داود إلى حد أنه أوقف اضطهاد المتنصرين وجن من الفرح جنون يهود البرتغال الذين عمد معظمهم ضد إرادتهم ،

وأعلن كثيرون منهم عن اعتقادهم بأن داود كان هو « المخلص » ، وأجرى ديوجو بيرز - وكان قد تنصر وأصبح سكرتيراً للملك ، أجرى لنفسه عملية الختان ، ليثبت يهوديته ، وغير اسمه إلى سليمان مولخو ، وأخذ طريقه إلى تركيا وأعلن أن داود هو البشير « المخلص » الذى سوف يصل هو بشخصه فى سنة ١٥٤٠ . ولم يكن روبينى قد ادعى أنه المخلص أو البشير بمجيئه ، وإنما كان دجالا حالما ، أراد مالا وسفنا وأسلحة : وأثار هرب بيرز (مولخو) شكوك الملك جون ، فأمر روبينى بمغادرة البلاد ، ورحل داود ، وأوقف على شاطئ أسبانيا وقبضت عليه محكمة التفتيش . وأمر شارل الخامس ، بإطلاق سراح روبينى ، مرضاة للبابا كليمنت على ما يبدو . وقصد روبينى إلى البندقية (١٥٣٠) ، واقترح على السناتو وجوب تسليح أوربا ، للقيام بهجوم ضد الأتراك .

وفى الوقت نفسه جاء مولخو إلى أنكونا ، وحصل على جواز مرور من البابا ، وتجول فى إيطاليا ، وبشر باليهودية بحرارة وحماس فى روما . ولما سعت محكمة التفتيش إلى القبض عليـــه ، بوصفه متنصراً مرتداً ، أنقذه كليمنت وأخرجه سالما من المدينة . وعلى الرغم من أن ملخو كان قد فقد آنذاك إيمانه بداود روبينى ، فإنه انضم إليـــه فى مهمة طائشة إلى راتسبون ، حيث توسلا إلى شارل الخامس أن يمد المتنصرين بالسلاح ليحاربوا المسلمين . ولكن شارل قبض عليهما وأحضرهما معه إلى مانتوا . وهناك حكم على ملخو بالإعدام حرقا . وفى اللحظة الأخيرة صدر عنه عفو إمبراطورى شريطة عودته إلى المسيحية ، فأبى ورحب بالاستشهاد (١٥٣٢) . وأرسل روبينى إلى أسبانيا وهناك ألقت به محكمة التفتيش فى غيابة السجن ، ومات حوالى ١٥٣٦ ، والظاهر أنه مات مسموما ، وزحف يهود أوربا كسيرى القلوب إلى معازلهم وتصوفهم ويأسهم .

٥ — الفكر اليهودى

ما كان لنا أن نتوقع من عهد « الشتات الثانى » أن ينتج أية ثقافة رفيعة بين اليهود . فقد استنزفت طاقتهم المهمة الوحشية التى واجهوها ، مهمة البقاء على قيد الحياة : وتعطل التعليم الذى كانوا قد برزوا فيه وأتقنوه نتيجة للتنقل وانعدام الأمن فى الحياة . وعلى حين شقت أوربا المسيحية طريقها إلى النهضة فرحة متنعشة ، انصرف يهود أوربا إلى المعزل و « القبالة » وحرمت عليهم « الوصية الثانية » الإسهام فى حركة إحياء الفنون : وكان بين اليهود عدد كبير من العلماء ، ولكنهم انهمكوا فى التلمود . وكان منهم النحويون مثل بروفيات دوران وأبراهام دى بالم ؛ والمترجمون مثل إسحق بن بولكار ، الذى نقل مؤلفات الغزالى إلى العبرية ، ويعقوب مارتن الذى ترجم ابن سيناء وابن رشد وابن ميمون وليفى بن جرسون إلى اللاتينية . وأزعج إيليا لفيتا اليهود المتدينين بإقناعهم بشكل حاسم (١٥٣٨) بأن التوراة المزودة بالملاحظات وعلامات الحركة وإشارات الوقف (المازورة Masoretic) ، لم تكن أقدم من القرن الخامس الميلادى .

وتوضح ملحمة آل أبرابانل Abrobanels تقلبات الفكر اليهودى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر : وقد ولد دون إسحق أبرابانل فى لشبونه ١٤٣٧ ، واستخدمه ألفونسو الخامس ملك البرتغال وزيراً للمالية . ولكنه جمع بين مشاغله الرسمية والدراسات الدينية والتاريخية ؛ وجعل من داره الرحيبة صالونا للعلماء ورجال العلم ورجال الأعمال . ولما توفى ألفونسو فقد أبرابانل الحظوة الملكية ، وهرب إلى أسبانيا

(١٤٨٤) ، وهناك تفرغ إلى كتابة تعليقات على ما دون عن تاريخ الكتاب المقدس ، حتى دعاه فرديناند الكاثوليكى ليتولى منصباً . وقضى إسحق ثمانى سنوات فى تدبير الشئون المالية فى قشتاله . وكافح لدرء الكارثة التى حلت باليهود فى سنة ١٤٩٢ ، فلما أخفق فى ذلك ، انضم إليهم فى خروجهم المحزن . وفى نابلى استخدمته الحكومة . ولكن الغزاة الفرنسيين (١٤٩٥) نهبوا داره ، ودمروا مكتبته الحافلة بنفائس الكتب المنتقاة ، وأجبروه على الفرار إلى كورفو . وهناك كتب ، ما كان لا بد لأى يهودى أن يكتب فى هذه السنوات : « إن زوجتى وأولادى وكتبى بعيدة عنى ، ولقد تركت وحيداً غريباً فى بلد غريب »[٧٩] . واتخذ طريقه إلى البندقية ، وهناك عين فى منصب دبلوماسى (١٥٠٣) . وفى غمرة تقلبات الحظ هذه ، وجد فسحة من الوقت ليؤلف بعض أعمال فلسفية ولاهوتية ، ليس لها الآن قيمة تذكر . ولكنه وضع المبدأ الذى يقول بأن الأحداث والأفكار التى وردت فى الكتب المقدسة يجب تفسيرها على ضوء الحياة الاجتماعية والسياسية فى عصرها . وسمح له بأن يقضى السنوات الست الأخيرة من عمره فى أمن وسلام غير مألوفين .

وكان أبناؤه زينة لحياته . فتألق صمويل أبرابانل فى سالونيك وعين وزيراً للمالية فى نابلى ، وحظى بحب قومه لكثرة ما أتى من أعمال البر والخير . أما يهوذا ليون أبرابانل — ليو العبرى — فقد زها وسما قدره كطبيب فى جنوه ونابلى حتى أصبح مشهوراً مثل شهرة « ليون مديجو » . ودرس علوماً كثيرة ، وكتب الشعر ، وغامر بدراسة ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) . وعين فى ١٥٠٥ طبيباً لجنزالو أمير قرطبة ، ولكن بعد ذلك بعامين اختلف « الكابتن الأعظم » مع فرديناند ، ولحق ليون بأبيه فى البندقية . ولقى كتابه « حوار الحب » (كتب ١٥٠٢ ، ونشر فى ١٥٣٥) جمهوراً كبيراً من القراء بين الإيطاليين فى عصر النهضة ، الذين كان التحليل الفلسفى للحب عندهم

بمثابة مقدمة أولحن مصاحب لانتصارات الحب . إن الجمال الفكرى : جمال النظام والتخطيط والاتساق ، يسمو على الجمال المادى أو جمال الجسم ، هذا ما حاول « الحوار » أن يدلل عليه . إن أسمى الجمال هو النظام والتخطيط والاتساق فى الكون ، وهذا هو المظهر الخارجى للجمال الإلهى . وينشأ الحب على مراحل : من الإعجاب والسعى وراء الجمال المادى فالجمال الفكرى فالجمال الإلهى ، ويبلغ ذروته فى حب الله فكراً وعقلا ، أى فهم النظام الكونى وتقديره حق قدره ، والرغبة فى الاتحاد مع الله ، وربما كانت مخطوطة هذا الكتاب معروفة لدى كاستليانو الذى أجرى على لسان « بمبو Bembo » حديثاً يهدف إلى مثل هذه الغاية ، فى « البلاط Cortigiono » (١٥٢٨) أما الكتاب المطبوع فربما وجد سبيله عبر قرن من الزمان إلى يدى سبينوزا ليتأثر بفكرته عن « الحب العقلى لله »[٨٠] .

وفضل يهود البرتغال المشتتون على هذا الحب السماوى ، الشعر المنثور المشبوب العاطفة باللغة البرتغالية ، فى قصيدة أوسك Usque : « عزاء لأحزان إسرائيل » (فيرارا ١٥٥٣) . فقد صور تعاقب الانتصارات والكوارث على الشعب اليهودى ، وواساه بأنه لا يزال « شعب الله المختار » . فقد عاقبهم الله على آثامهم ، ولكن آلامهم طهرتهم ، ومهما أوتى الإنسان من قوة رهيبة وحشية ، فلن يستطيع أحد أن يخدعهم ويصرفهم عن مصيرهم الإلهى إلى السعادة والمجد .

وتراخى اليهود عن الإسهام فى حركة العلوم تراخياً لم يكن منه مناص ، بسبب الأحداث والتقلبات التى عاناها الشعب ، والتى طال أمدها . ولم يكن التعرض للخطر والفقر وعدم الاستقرار ، هى وحدها التى عوقت الجهود العلمية ، ولكن واحداً من أجل الأحبار وأعظمهم نفوذاً ، هو سليمان بن إبراهام بن أدريت ، فى برشلونه ، كان فى بداية هذه الفترة ، قد حرم — تحت طائلة « الحرم » أو الحرمان الدينى » — تدريس العلوم أو الفلسفة لأى

يهودى دون الخامسة والعشرين من العمر ، على أساس أن مثل هذا التعليم يفسد العقيدة الدينية . وعلى الرغم من ذلك لخص إسحق إسرائيلى الأصغر ، من طليطلة ، علم الفلك فى عصره (١٣٢٠) ، ووضح التقويم اليهودى والتسلسل الزمنى لتواريخ الأحداث . ووضع عمانويل بونفيس من تاراسكون ، جداول فلكية قيمة ، واستبق التفاضل والتكامل الأسى والعشرى . كذلك فإن إبراهام كرسكاس ، من ميورقه ، وهو « رئيس الخرائط والبوصلات لحكومة أراجون » ، وضع فى ١٣٧٧ خريطة للعالم ، اعترف فى جميع الأنحاء بأنها أحسن خريطة من نوعها حتى ذاك العهد ، إلى حد أن أراجون أرسلتها هدية ثمينة إلى شارل السادس ملك فرنسا ، وهى الآن من أثمن ما تقتنيه المكتبة الوطنية هناك . وكان يهوذا كرسكاس ، وهو ابن إبراهام سالف الذكر ، أول مدير لمرصد هنرى الملاح البحرى فى سجر Sagres ، وساعد فى رسم خريطة لمكتشفاته . ومهد كتاب بدرو نونز « رسالة عن الكرة الأرضية » الطريق أمام العالم الجغرافى مركيتور Mercator وفن رسم الخرائط الحديث . وحدد كتاب جراسيا دى أورتا عن « العقاقير الطبية » مرحلة متميزة فى علم النبات ، وأسس طب المناطق الحارة .

وكان أبراهام زاكوتو شخصية عظيمة فذة فى مجال العلم عند اليهود فى القرن الخامس عشر . وجمع عندما كان يقوم بالتدريس فى سلمنقه (١٤٧٣ — ١٤٧٨) كتابه « التقويم الدائم » وقد استعملت جداوله الفلكية ، كدليل للملاحة فى رحـــلات فاسكو دا جاما وكابرال وألبوكيرك ثم فى رحلات كولمبس بعد ١٤٩٦ . وكان زاكوتو من بين اللاجئين من أسبانيا (١٤٩٢) ، ووجد ملجأ مؤقتاً فى البرتغال ، وقد استشاره البلاط فى الإعداد لرحلة فاسكو دا جاما إلى الهند ، وكانت السفن مزودة بالإسطرلاب الذى أدخل عليه هو تحسينات . ولكن فى سنة ١٤٩٧ لم يمهله الاضطهاد وقذف به خارج البرتغال كذلك . وأخذ يضرب فى الأرض فقيراً معدماً لعدة سنوات حتى

انتهى به المطاف فى تونس ، وهناك تعزى فى أخريات حياته بكتابة تاريخ قومه . أما تلميذه يوسف فسنهو Vecinho ، طبيب جون الثانى ملك البرتغال ، فقد أرسل ليرسم خطوط العرض وانحراف الشمس على ساحل غينيا . وأثبتت الخرائط التى أعدت أنها ذات قيمة كبيرة لفاسكو دا جاما . وكان فسنهو عضواً فى اللجنة التى أحال إليها جون الثانى مقترحات كولمبس للبحث عن طريق من الغرب إلى جزر الهند (١٤٨٤) وشارك فى قرار الرفض[٨١] .

وظل الأطباء اليهود أفضل من يجد الناس فى البحث عنهم ويلتمسون عندهم البرء فى كل أوربا . وعلى الرغم من إزعاجهم بالإدانات والاتهامات الدينية والقيود الرسمية والمخاطرة بحياتهم فى معالجة ذوى الشأن من المسيحيين ، كانوا ذوى حظوة لدى البابوات والملوك . ولم تكن إضافاتهم آنذاك إلى علم الطب بارزة ، باستثناء إضافات دى أورتا إلى طب المناطق الحارة ، ولكن أماتوس لوسيتانوس ضرب مثلا لتقاليد مهنته وتقاليد قومه . وأخرجته محكمة التفتيش من البرتغال التى كان قد أخذ منها اسمه اللاتينى ، فعاش متنقلا من أنتورب إلى فيرارا إلى رومه ، ثم استقر به المقام فى أنكونا (١٥٩٤) حيث كان كثيراً ما يستدعى لعلاج نفس البابا جوليوس الثالث الذى ناضل من أجل تحطيم التلمود . وكان ، حتى آخر حياته ، يستطيع أن يقسم أنه لم يكن يهتم قط بالمكافأة ولم يقبل قط أية هدية قيمة ، وأنه كان يخدم الفقراء بلا أجر ، وأنه لم يكن يفرق فى ممارسة مهنته بين مسيحى أو يهودى أو تركى ، وأن أية صعاب ، مثل بعد المكان أو عدم ملاءمة الوقت ، لم تكن لتثنيه عن تلبية أى نداء . وكشفت سجلات عمله (١٥٦٣) عن سبعمائة حالة كان قد عالجها ، وكان الأطباء فى كل أوربا يدرسون هذه المذكرات ويقتنونها ، ودعا ملك بولندة أماتوس ليكون طبيباً خاصاً له ، ولكنه آثر أن يبقى فى أنكونا . ولكنه أرغم فى ١٥٥٦ على استئناف تجواله ، عندما طالب بول الرابع كل يهود إيطاليا بالتحول إلى المسيحية أو الإلقاء فى السجون .

وكان للقرار الذى أصدره الحبر ابن أدريت بتأجيل تدريس العلوم والفلسفة لليهود إلى سن الخامسة والعشرين ، أثر أقل على الفلسفة منه على العلم ، وفى فرنسا أقل منه فى أسبانيا . وكان أثر ابن ميمون لا يزال قوياً على اليهود الذين احتالوا على البقاء فى جنوب فرنسا وتجاسر يوسف كاسبى على كتابة رسائل فى المنطق وعلم الأخلاق لتوجيه ابنه ، ودافع عن التقليد الفلسفى المتحرر الذى كان ابن ميمون قد عرضه لأول مرة فى مؤلفه « دلالة الحائرين » وقد أنجب هذا الضرب من التقليد المتحرر مفكراً يهودياً عظيماً هو ليفى بن جرسون Ben Gerson الذى يعرف عند المسيحيين باسم جرسونيدس ، الذى عاش ، كما عاش معظم الفلاسفة اليهود ، على « الطبابة » أى مهنة الطب ، وحقق المثل الأعلى الذى قصده أبقراط فى الطبيب الفيلسوف . ولد ابن جرسون فى باجنول ١٢٨٨ ، فى أسرة من العلماء ، وعاش معظم سنى حياته فى أراجون وبربينان وأفنيون ، وانصرف إلى عمله آمناً مطمئناً فى ظل حماية البابوات ، ولا يكاد يوجد علم من العلوم لم يعالجه أو مسألة فلسفية لم يعرض لها . وكان على علم واسع بالتلمود ، وأسهم فى رياضيات الموسيقى ، ونظم الشعر .

وكان ابن جرسون من علماء عصره اللامعين فى الرياضيات والفلك ، وفى ١٣٢١ استبق الطريقة التى اتبعها فيما بعد موروليكو (١٥٧٥) وباسكال (١٦٥٤) فى إيجاد عدد التباديل البسيطة لعديد من الأشياء بالاستنتاج الرياضى ، ومهدت رسالته فى حساب « المثلثات » الطريق أمام رجيومونتانوس ، ولقيت تقديراً واسعاً إلى حد أن البابا كليمنت السادس أصدر تكليفاً بترجمتها إلى اللاتينية ، مثل de Sinibus ، Chordis و Arcubus (١٣٤٢) . وقد اخترع ، أو فى الواقع أدخل تحسيناً على العصا التصالبية لقياس ارتفاع النجوم ، وبقى هذا طوال قرنين من الزمان نعمة كبرى للملاحة ؛ وقد أجرى ملاحظاته الفلكية الخاصة به ، وأظهر

مقدرة كبيرة فى نقده لطريقة بطلميوس . وبحث ، ولكنه رفض ، الفرضية القائلة بأن الشمس هى مركز الكون بطريقة توحى بأن قلة قليلة من الناس كانت تشايعه فى عصره . وهذب آلة التصوير القاتمة واستخدمها مع العصا التصالبية ليحدد ، بشكل أدق ، الاختلافات فى القطر الظاهر للشمس والقمر .

وكما أن علوم بن جرسون نبعت عن الرياضيين والفلكيين العرب ، كذلك كانت فلسفته مبنية على دراسة نقدية دقيقة للتعليقات التى وضعها ابن رشد فى شروحه لفلسفة أرسطو . ودون ليفى فيما بين عامى ١٣١٩ — ١٣٢١ تعليقاته هو نفسه على تعليقات ابن رشد ، استوعب فيها رسائل أرسطو فى المنطق والفيزياء والفلك والأرصاد الجوية وعلم النبات وعلم الحيوان وعلم النفس والميتافيزيقا ، وأضاف إلى هـــذه الدراسات بطبيعة الحال قراءاته العديدة المتكررة لابن ميمون . وجمعت فلسفته ومعظم دراساته فى العلوم فى مؤلف بالعبرية وضع عنوانه بأسلوب عصره « معارك الله » Battles of the Lord (١٣١٧ — ١٣٢٩) ، وهو يأتى فى المحل الثانى بعد كتاب ابن ميمون « دلالة الحائرين » فى الفلسفة اليهودية فى العصور الوسطى ، ويتابع محاولة ابن ميمون فى التوفيق بين الفكر اليونانى والعقيدة اليهودية . فإذا تدبرنا الجهود المشابهة التى قام بها ابن رشد وتوماس الأكوينى للتوفيق بين الإسلام والمسيحية وبين أرسطو ، لكدنا نقول بأن أثر أرسطو على لاهوتيات العصور الوسطى كان فاتحة انحلالها وتفسخها ، وبداية الانتقال من عصر الإيمان إلى عصر العقل . وسعى جرسونيدس إلى التخفيف من امتعاض المتدينين بالإعلان عن استعداده للتخلى عن أفكاره وآرائه إذا ثبت أنها مناقضة للكتاب المقدس — وتلك حيلة أو مراوغة يلجأ إليها العلماء . على أنه استخدم العقل إلى مدى بعيد ، فى أبحاثه عن الله والكون وأبدية العالم وخلود النفس ، ولما تعارضت نتائجه مع الكتاب

المقدس ، فسره بعنف أدى بنقاده إلى تغيير اسم مؤلفه إلى « معارك ضد الله »(٨٢) . وقال ليفى إنه يجدر بنا ألا نأخذ بالمعنى الحرفى قصصاً مثل قصة يوشع الذى أوقف الشمس ، فهذه القصة وأشباهها من « المعجزات » ، ربما كانت أحداثا طبيعية نسيت أو لم تعرف أسبابها(٨٣) . وأخيراً أفصح عن مذهبه العقلانى دون قناع ، « إن التوراة لا يمكن أن تمنعنا من أن نعتبر حقاً ما يلح علينا عقلنا فى الإيمان به »(٨٤) .

واشتق جرسونيدس وجود الله مما قد يسميه هولباخ الملحد « نظـــام الطبيعة » فإن قانون الكون ونظامه يكشفان عن « عقل كونى » ، ويضيف هو إلى هذا ، الحجة الغائية : وهى أن معظم الأشياء فى الطبيعة الحيـــة تبدو مخصصة كوسيلة إلى غاية . وتزود العناية الإلهية كل كائن حى بوسائل حماية الذات والتطور والتكاثر . والعالم بوصفه كوناً أو نظاماً ، خلق فى الوقت المناسب ، ولكن ليس من العدم . فقد سبق أن وجدت منذ الأزل كتلة جامدة هامدة لا شكل لها ، وزودها الكون بالحياة وبالشكل . وهناك بين الله وبين الأشكال المخلوقة قوة وسيطة سماها جرسونيدس ، وهو فى هذا يحذو حذو أرسطو ، « عقلا نشـــيطاً أو خلاقاً » . ويوجه انبثاق الذكاء الإلهى كل الأشياء ، ويصبح النفس التى يحملها الإنسان بين جنبيه . ولما كانت النفس تعتمد على أحاسيس الإنسان فهى فانية : وبما أنها أى النفس ، تفهم الكليات وتعى نظام العالم ووحدته فإنها تصبح فصلاً جزءاً من « العقل » النشيط الذى هو خالد :

ورفض اليهود فلسفة جرسونيدس على أساس أنها فى جوهرها شكل من فلسفة ابن رشد ، عقلانية قد تودى فى النهاية بالعقيدة الدينية . ودرس المفكرون المسيحيون فلسفته ، وتأثر بها اسبينوزا : ولكن قلوب المفكرين اليهود وعقولهم ، عبر عنها فى إخلاص أكبر ، حسداى بن أبراهام كرسكاس

الذى كان قد تغذى بلبان « المحافظة » عند سليمان بن أدريت ، وقد ولد كرسكاس ١٣٤٠ فى برشلونه ، وعاش فى فترة اتسمت بالعداء الشديد للسامية ، وقبض عليه بتهمة تدنيس القربان ، وما لبث أن أطلق سراحه ، ولكن ابنه قتل ، وهو على وشك الزواج فى مذابح ١٣٩١ . وقوى الاضطهاد من عقيدة حسداى ، لأنه بفضل الإيمان بإله عادل وسماء تعوض عن كل أذى وشر ، استطاع أن يحتمل حياة ممتلئة بالجور والآلام . وبعد انقضاء سبع سنوات على استشهاد ابنه ، نشر بالأسبانية رسالة حاول فيها أن يفسر للمسيحيين لماذا ينبغى ألا يطلب إلى يهودى أن يتقبل المسيحية . وحاول فى كياسة واعتـدال أن يدلل على أن مبادئ المسيحية فى الخطيئة والتثليث والحبل بلا دنس والتجسد والكفارة وتحول دم القربان إلى دم المسيح ولحمه ، تنطوى على تناقضات لا يمكن تجاوزها واستحالات سخيفة مضحكة . ومع ذلك فإنه حين كتب مؤله العظيم « نور الرب » (١٤١٠) اتخذ فيه موقفاً كان يمكن أن يدافع المسيحيون من خلاله عن هذه النظريات : ذلك أنه أنكر العقل وألح فى إخضاعه للإيمان . ولم يكن حسداى حبراً رسميا ولكنه شارك الأحبار رأيهم بأن الاضطهادات المتكررة كانت عقابا إلهيا لتعريض الديانه التى جاءت عن طريق الوحى لخاخمة عقلانية . وإذا كان قد كتب فى الفلسفة ، فلم يكن ذلك إعجابا منه بها ، بل لإثبات ضعف الفلسفة والعقل ، وتوكيد الحاجة إلى الإيمان والعقيدة . وأنكر محاولات ابن ميمون وجرسون فى التوفيق بين اليهودية وأرسطو ، وتساءل : من هو ذلك الإغريقى الذى كان على الرب أن يتفق معه ؟ واعترض على فكرة أرسطو بأن أسمى صفات الله هى المعرفة ، بل هى الحب على الأرجح ، لأن الله هو الخير المطلق . وسلم كرسكاس بأن العقل لا يستطيع أن يوفق بين سـابق علم الله وحرية الإنسان ، ومن ثم يجب ألا نرفض الحرية

بل نرفض العقــل ؛ وينبغى أن نؤمن بالله ، وبالإرادة الحرة والخلود ، من أجل طمأنينة نفوسنا وهدوء بالنا وسلامة معنوياتنا ، وليس بنا من حاجة إلى الادعاء بإثبات هذه المعتقدات عن طريق العقل . ويجب أن نختار بين عقلنا الفخور الضعيف الذى يزعزع الإيمان ويورث اليأس ، وبين إيماننا المتواضع بكلمة الله : التى يمكن عن طريقها وحدها أن نحتمل ألوان المهانة والظلم فى الحياة .

وكان كرسكاس آخر هذه الصفوة اللامعة من فلاسفة اليهود فى العصور الوسطى ، ولم يقدره قومه حق قدره بين عشية أو ضحاها ، لأن تلميذه يوسف ألبو لفت أنظار قراء الفلسفة بكتابه الأكثر إمتاعاً « المبادئ الأساسية » ، الذى جمع بين ابن ميمون وكرسكاس عن طريق الانتقاء ، مما جعله أكثر انسجاماً من أى من الرجلين ، مع اليهودية الصحيحة التى لم تكن مستعدة للتسليم بعدم عقلانية الإيمان ؛ وبعد موت ألبو اعتزل اليهود الفلسفة ، والتاريخ تقريباً ، حتى جاء سبينوزا . إن المذابح ، والاضطرابات ، والفقر المدقع ، وقيود الإقامة والمناصب ، كانت قد حطمت روحهم وأنقصت عددهم إلى أدنى مستوى منذ سقوط أورشليم سنة ٧٠ م(٨٥) . ووجد الشعب المحتقر المنبوذ له ملجأ فى الأغانى الحزينة ، وفى رفاق المعبــد المواسين ، يراودهم الأمل فى مغفرة من عند الله ، وفى معذرة من أهل الأرض ، وفى الجنة التى فى السماء . وعكف العلماء بكليتهم على التلمود ، وحصروا تفكيرهم فى شرح قانون الخلاص ، على حــين اتبع بعضهم تعاليم « القبالة » فانصرفوا إلى التصوف الذى سما بالبؤس إلى

حد التوهم بأنهم يرقون به إلى السماء . وأحجم الشعر اليهودى عن الغناء ، ورفعت أثارة منه رأسها بين الحين والحين تتحدى العاصفة ، أو تلطف من سخرية القدر ، بالمرح الموسوم بالمرارة واللهفة والذكاء المشوب بالالتواء . وما كان لليهود أن يصحوا من سباتهم الطويل الناجع ، ويستعيدوا مكانهم فى ذهن عالم لا يحده زمان ، ولا مكان فيه للعنصرية ، حتى جسر يهودى أمستردام المتواضع أن يوحد بين اليهودية والسكولاستية (الفلسفة المدرسية) والديكارتية فى إدماج رفيع سام للدين والعلم :

الباب الرابع

ما وراء الستار

الفصل الثالث والثلاثون

حياة الناس

١٥١٧ - ١٥٦٤

---

١ - الاقتصاد

إن مسرحية الصراع الديني والسياسي والحربي الذى ملأ جبهة القرن السادس عشر ، كانت من بعض النواحي سطحية : ذلك أنها لم تظهر إلا انطلاقاً من مسرحية أعمق ، مثلت خلف مشاهد التاريخ أو تحت المسرح الفخم - أعني معركة الإنسان اليومية الأبدية مع التربة والعناصر (الماء والهواء والتراب والنار) والفقر والموت . وماذا كانت ، فوق كل شيء هبات ومراسيم البابوات والبروتستانت ، والسخافات المتزاحمة فى الأساطير القتالة ، وزهو الملوك والأباطرة وتعاقبهم ، وما كان ينتابهم من أمراض مثل النقرس والزهرى ، إذا قورن كل أولئك بالكفاح المرير من أجل الغذاء والمأوى والكساء والصحة والزوجة والولد والحياة ؟

إن قرى أوربا فى تلك الحقبة ، كان لا بد لها ليلا ونهاراً أن تحذر وتحترس من الذئاب والخنازير البرية ، أو أى خطر آخر يتهدد قطعانهم

ومساكنهم . لقد عمّرت مرحلة الصيد داخل عصر الزراعة ، وكان لزاماً على الإنسان أن يَقتل أو يُقتل ، ويسرت أسلحة الدفاع طريقة (روتين) الكدح والعمل . وكانت آلاف الحشرات ووحوش الغابة وطيور السماء تنافس الفلاح فى ثمار غرسه وكده ونصبه ، والأمراض الخفية تهلك القسم الأكبر من ماشيته . وربما أصبحت الأمطار سيولا جارفة أو فيضانات غامرة ، وربما انقطعت حتى تذبل الحياة كلها . وكان الجوع دائماً يتربص بالناس ، ولم يفارق الخوف من الحريق مخيلتهم قط . وكثيراً ما انتابتهم الأمراض ، والأطباء على مسافات بعيدة منهم : وفى كل عشر سنين تقريباً ربما اختطف الطاعون من الأسرة فرداً عزيزاً عليها أو له قيمته عند تعرض الأرض للخطر . وكان يموت فى سن الطفولة طفلان من بين كل خمسة أطفال ، ويموت ثالث قبل البلوغ[1] ، ومرة واحدة على الأقل فى كل جيل كان ضابط التجنيد يأخذ أحد الأبناء للجيش ، وكانت الجيوش تحرق القرى وتنهب الحقول ، وكان عشر المحصول بعد الحصاد يذهب إلى مالك الأرض ، وعشر ثان إلى الكنيسة . وكانت الحياة على الأرض تصبح جحيما لا يحتمله الجسم أو الروح ، لولا أن شيئاً من السعادة يتخلل ابتهاج الأطفال وألعاب المساء فى البيت ، وإطلاق الأغانى ولعب الخمر بالرءوس فى الحانات ، والأمل نصف المصدق ونصف المشكوك فيه حياة أخرى أكثر رحمة وشفقة . هكذا كان إنتاج الغذاء الذى أطعم البارونات فى الحصون والملوك فى قصورهم والكهنة فى محاريبهم ، والتجار والصناع فى المدن ، والأطباء والمعلمين والفنانين والشعراء ورجال العلم والفلاسفة ، وأخيراً ، وأقلهم شأناً ، رقيق الأرض أنفسهم . فالمدنية عالة على الإنسان الذى يحمل آلة العزق .

وكان علم الزراعة من خصائص هذا الزمان . ونشأ تقـــدم الإنتاجية أساساً من استبدال الملكية الكبيرة بالملكية الصغيرة . وأدخل مالكو الأرض

الجدد من التجار والرأسماليين إلى البقاع الريفية الراكدة لهفة شـديدة على الربح الذى زاد الإنتاج والبؤس كليهما معاً . وأدخل المستوردون المغامرون إلى أوربا مخصباً أو سماداً جديداً غنياً بالفوسفات والنتروجين – وهو روث الطيور الذى يجتمع على شـواطىء بيرو . وتأقلمت فى تربة أوربا نباتات وشجيرات من آسيا أو أمريكا ، مثل البطاطس وشجرة المغنولية (نبات جميل الزهر) ، والأغاف الأمريكى ، والفلفل والدهلية (زهر جميل) ، والكبوسين (أبو خنجر) . . . وأحضر التبغ من المكسيك إلى أسبانيا ١٥٥٨ . وبعد ذلك بسنة واحدة أرسل جان نيكوت السفير الفرنسى فى لشبونه بعض بذوره إلى كاترين دى مديتشى ، وقد جزى التاريخ هذا السفير خير الجزاء فأطلق اسمه على أحد السموم .

ونمت صناعة صيد السمك بازدياد السكان ، ولكن الإصلاح الدينى سدد ضربة قاضية إلى تجار السردين بإباحة اللحوم يوم الجمعة ، وتقدم التعدين بالتنظيم الرأسمالى . وكانت نيوكاسل تصدر الفحم فى ١٥٤٩ ، وضاعف أصحاب المناجم إنتاجها بحث العمال على بذل جهود أعظم وأكثر نظاماً ، وتحسين وسائل تنقية المعدن الخام . وفى هذه السطور ينقلنا جورج أجريكولا إلى منجم فى القرن السادس عشر :

> إن أهم أنواع العمال هم المعدنون ، الجرافون ، الرافعون ، الحمالون ، الفرازون ، الغسالون ، الصاهرون . . . وكانت ساعات الليل والنهار الأربع والعشرين ، تنقسم إلى ثلاث نوبات كل منها سبع ساعات ، والساعات الثلاث الباقية تتوسط النوبات ، ليدخل العمال فى أثنائها إلى المنجم أو يغادروه . وتبدأ النوبة الأولى الساعة الرابعة صباحاً ، وتنتهى فى الحادية عشرة . وتبدأ الثانية فى الساعة الثانية عشرة وتنتهى فى السابعة مساء . وهاتان نوبتان نهاريتان فى الصباح وبعد الظهر . أما الثالثة ، وهى النوبة الليلية ، فتبدأ فى

الثامنة مساء وتنتهى فى الثالثة صباحاً . ولا تفرض هـذه النوبة الثالثة على العمال إلا إذا دعت الضرورة إليها : وفى هذه الحالة . . كانوا يسهرون على ضوء المصابيح الليلية ، وحتى لا يغلبهم النعاس فى هذه الساعات المتأخرة ، أو لشدة التعب ، كانوا يخففون من وطأة هذا العمل الطويل الشاق بالغناء الذى كانوا مدربين عليه ، أو لم يكن غير سار لهم كلية . ولم يكن يباح فى بعض المناجم لأى من العمال العمل نوبتين متعاقبتين ، لأنه كان كثيراً ما يغلب عليه النعاس فى المنجم من شدة الإجهاد من كثرة العمل إلى حد مفرط : وكان يباح ذلك فى أماكن أخرى لأن العامل لا يستطيع العيش على أجر نوبة واحدة ، وخاصة إذا ارتفع ثمن الحاجيات .

ولا يشتغل العمال أيام السبت ، لأنهم يبتاعون فيها كل ما يلزمهم من ضرورات الحياة ، كذلك لا يعملون أيام الآحاد والأعياد السنوية . ولكنهم فى هـذه المناسبات يخصصون ساعات النوبة للأغراض الدينية . ومهما يكن من أمر فإن العمال لا يستريحون . . . إذا اقتضت الظروف أن يعملوا ، فقد يجبرهم عليه أحياناً اندفاع الماء أو انهيار وشيك الوقوع . وفى مثل هذه الحالات لا يعتبر العمل فى أيام العطلة أمراً لا يتفق مع الدين . وفوق ذلك ، فإن العمال من هذه الفئة أقوياء أشداء ألفوا هذا الكدح والمشقة منذ ولادتهم(٢) .

وفى ١٥٢٧ عين جوج أجريكولا طبيباً لمدينة جوتشمستال Goochimsthal . وفى مدينة التعدين انصرف جورج بين الحين والحين إلى التعدين ، وهناك ، وفى أماكن أخرى تحمس جورج وافتتن بدراسة تاريخ التعدين وعملياته وعلم المعادن ، وعكف على البحث عشرين عاماً ، أكمل بعدها (١٥٥٠) « رسالته عن المعادن » وهي رسالة ممتازة فى موضوعها بالنسبة لعصرها ، لها من القيمة

مثل ما لروائع كوبرنيكس وفيساليوس التى ظهرت فى نفس العقدين من السنين ، ولقد وصف فى تفصيل دقيق آلات التعدين والصهر وتقنياتهما وعملياتهما ، واستخدم الفنانين فى توضيحها بالرسوم . وهو أول من جزم بأن البزموت و لأنتيمون معدنان أوليان حقيقيان ، وميز نحو عشرين صنفاً من المعادن لم تكن معروفة من قبل . وكان أول من شرح تركيب عروق الخام فى طبقات الصخور من رواسب مغدنية خلفتها مجارى المياه التى تنساب فى الأرض وتحت الأرض(*)(٣) .

وحظى التعدين وعلم المعادن والمنسوجات بأكبر نصيب من التحسينات الآلية (الميكانيكية) التى ينسب الفضل فيها لهذا العصر . وإن أول سكاك حديدية لهى تلك التى كانت تجر أو تدفع عليها العربات التى تحمل الخام . وفى عام ١٥٣٣ أضاف جوهان جورجن إلى عجلة الغزل — التى كانت تدار حتى ذلك العهد باليد — ذراعا (دواسة) تدار بواسطة القـدم ، ومن ثم تكون يد الغزال طليقة ، وسرعان ما ضوعف الإنتاج بهذه الطريقة : وازداد الوثوق بدقة الساعات وصغر حجمها ، وزينت بالحفر والنقوش والجواهر وطليت بالمينا . واقتنى هنرى الثامن ساعة دقيقة الحجم ، تملأ مرة واحدة كل أسبوع . على أن أحسن ساعات العصر كان معدل الخطأ فيها نحو ١٥ دقيقة فى كل يوم (٤) :

وتعثرت المواصلات والنقل خلف التجارة والصناعة . وتوسعت الخدمات البريدية إلى حد نقل المراسلات الخاصة خلال القرن السادس عشر ، وحث الانقلاب التجارى على بناء السفن وصارت السفن أرفع وأعمق ، فساعد

(*) نبذ أجريكولا « عصا الاستنباء » أو الغصن المتشعب » (وهى التى كانت غالباً ما تستعمل آنذاك للتعرف على وجود المعادن تحت الأرض) باعتبارها غير ذات نفع . ولكن عادات جيجر تميل إلى تقدير هذه العصى المشجعة .

ذلك على ثباتها وازدياد سرعتها . وزاد عدد الصوارى من واحد إلى ثلاثة ، والأشرعة إلى خمسة أو ستة(٥) . ولم يقتصر السباق بين فرانسوا الأول وهنرى الثامن ، على الحرب والحب واللباس ، بل تعداه إلى ابتناء السفن ، وكان لكل منهما مركب فخم بنى بناء على طلبه لإشباع نزواته ، به دور علوى ، يرفرف عليه فى زهو واعتزاز علم البطولة الذى أرضى غرور كل منهما . وكانت سفينة أوائل القرن السادس عشر تستطيع أن تقطع فى البحر المتوسط عشرة أميال فى الساعة فى الطقس المعتدل ، ولكن السفن الثقيلة المصممة للمحيط الأطلسى كانت أسعد حظاً ، حيث كانت تقطع ١٢٥ ميلا فى اليوم . وكانت أسرع رحلة برية هى رحلة حامل البريد ، الذى كان يركب لمسافة خمسة وثمانين ميلا فى اليوم . ومع ذلك فإن الأنباء الهامة كانت عادة تصل من البندقية إلى باريس أو مدريد فى عشرة أيام أو أحد عشر يوماً . ولعل أحداً لم يقدر آنذاك أية راحة ينعم بها نتيجة لوصول الأنباء متأخرة إلى حد يتعذر معه اتخاذ أى إجراء بشأنها . وكان معظم السفر بالبر على ظهور الخيل ، ومن هنا جاءت الحلقة الحديدية الثقيلة المثبتة فى باب مدخل كل بيت ، يشد إليها حبل تقيد به الدابة . وتضاعف عدد العربات ، ولكن الطرق بلغت من الرخاوة حداً لا يصلح كثيراً لمرور العجلات ، ومن ثم كان لزاماً تزويد العربات بستة من الجياد أو أكثر لتجرها فى الأوحال التى يتعذر تفاديها ، وما كان يتوقع من العربات أن تقطع أكثر من عشرين ميلا فى اليوم ، وظلت المحفات التى يحملها الخدم تستعملها السيدات ذوات اليسار فى تنقلهن ، أما عامة الشعب فكانوا يسيرون على الأقدام عبر القارة .

وكان السفر مألوفاً رغم الطرق والخانات . وذهب إرزم إلى أن خانات فرنسا كانت مقبولة محتملة ، وعلى الأخص لأن النادلات الصغيرات « يقهقهن ويقمن بحيل وألعاب مرحة ، وإذا غادرت المكان كن يحيينك بالعناق » ،

« كل ذلك مقابل أجر زهيد » ولكنه رمى أصحاب الخانات الألمان بالفظاظة وغلظة الطباع والبطء والقذارة :

إذا فرغت من تدبير أمر جوادك تدخل إلى غرفة المدفأة ، بالحذاء العالى الساقين ، والأمتعة والأوحال وغيرها ، لأن هذه حجرة عامة لجميع القادمين . وفى غرفة المدفأة تخلع حذاءك ، وتلبس نعليك وتبدل قميصك إذا شئت : وهناك ترى رجلا يمشط رأسه وآخر : . . يتجشأ الثوم . . . وإنك لتسمع من فوضى اللغات واللهجات، كما لو كنت فى مبنى برج بابل : : : وفى رأيى أنه ليس ثمة شيء أخطر من التنفس فى مثل هذا الجو الخانق ، وخاصة إذا كانت أجسام الناس مفتحة بفعل الحرارة . . . وثمة شيء لا أرى ذكره . . . ثم النساء والأنفاس الكريهة المنتنة . : : ولا ريب أن كثيرين مصابون بالجدرى أو الزهرى الأسبانى ، أو كما يسمونه الفرنسى . ولو أنها أمراض منتشرة فى كل بلد[٦] .

إذا جرت الأمور على هذا النحو ، حقاً ، فى بعض الخانات ، فيمكن أن نغتفر خطأ أو اثنين للتجار المتجولين الذين يحطون رحالهم فى هذه الخانات ويحتماون متاعها فى عملية ربط القرية بالقرية ، والأمة بالأمة ، فى نسيج اقتصادى دائم الاتساع والانتشار . فقد فتح فى كل عقد من السنين طريق جديد ، براً كما فعل تشانسلر فى روسيا ، وبحراً كما تم فى آلاف الرحلات البحرية المغامرة . وقد اتجر (شيلوك شكسبير) أى اليهود مع إنجلترا والشبونة وطرابلس ومصر والهند والمكسيك[٧] . وكان لجنوة مستعمرات تجارية فى البحر الأسود وأرمينيه وسوريه وفلسطين وأسبانيا . فلقد عقدت الصلح مع الباب العالى ، وباعت الأسلحة إلى تركيا التى كانت فى حرب ضد العالم المسيحي : والتقطت فرنسا هذه الفكرة ، وعقدت اتفاقات خاصة بها مع

سلاطين تركيا . وبعد ١٥٦٠ سيطرت على تجارة البحر المتوسط ، وكانت أنتورب تتلقى البضائع فى كل لحظة ، وتنقلها بالسفن إلى كل مكان فى العالم .

ولمواجهة متطلبات هذا الاقتصاد المتوسع ، حسن رجال المصارف من خدماتهم وأساليبهم . ولما ارتفعت نفقات الحرب بالانتقال من فرق الإقطاع المجندة الذين أحضروا معهم أقواسهم وسهامهم ورماحهم وسيوفهم ، إلى جيوش وطنية أو جنود مرتزقة مزودين بالأسلحة النارية والمدافع ، وتدفع الدولة رواتبهم وأجورهم — اقترضت الحكومات مبالغ لم يسبق لها مثيل من أصحاب المصارف . وكانت الفائدة التى تدفعها الحكومات أو تعجز عن دفعها ، تقيم مؤسسة مالية ، أو تقوض أركان أخرى . وكان أصحاب المصارف يقترضون مدخرات الشعب نظير فائدة ، ليمولوا بها الصفقات الضخمة فى التجارة والصناعة . وكانت صكوك التبادل تحل محل الشحنات الثقيلة المرهقة من العملة المتداولة أو البضائع . واختلفت معدلات فوائد القروض ولم يكن هذا الاختلاف نتيجة لجشع المقرضين ، بقدر ما هو نتيجة للثقة فى المقترضين . ومن ثم كانت المدن الحرة الألمانية التى سيطر عليها تجار يتميزون بالدفع الفورى العاجل ، تستطيع أن تقترض بفائدة قدرها ٥٪ ، على حين أن فرنسوا الأول اقترض بفائدة قدرها ١٠٪ ، وشارل الخامس بفائدة قدرها ٢٠٪ . وانخفض سعر الفائدة تبعاً للاستقرار الاقتصادى :

وسكت مقادير وفيرة من العملة السائلة من معدنى الذهب والفضة اللذين استخرجا من مناجم ألمانيا والمجر وأسبانيا والمكسيك وبيرو ، وجاء المدد الجديد من المعادن النفيسة فى الوقت المناسب ، لأن البضائع كانت قد تزايدت أسرع مما تزايدت العملة . وكان جزء من ثمن واردات آسيا يدفع فى صورة صادرات ، والجزء الباقى نقداً من الذهب أو الفضة ، ومن ثم هبطت

الأسعار فى غضون السنين التى سبقت قيام كولمبس برحلاته ، إلى حد تعويق المغامرات والتجارة . وبعد تطوير المناجم فى أوربا واستيراد الذهب والفضة من أفريقية وأمريكا ، فاقت كميات المعادن النفيسة إنتاج السلع ، فارتفعت الأسعار ، وانتعشت الأعمال وابتهج أصحابها ، وزحزح الاقتصاد الجديد القائم على النقود المتحركة الاقتصاد القديم الذى تركز فى امتلاك الأرض أو سيطرة النقابات على الصناعة ، واحتل مكانه .

وكانت النقابات فى دور الانحلال . وكانت قد نشأت وقويت فى عهد تحكم المجالس البلدية وحماية الإنتاج المحلى ، ولم تكن على درجة من التنظيم تسمح لها بتقديم رأس المال . أو بالشراء بالجملة من الموارد النائية ، أو باستخدام أساليب المصانع وتقسيم العمل ، أو الوصول بمنتجاتها إلى الأسواق البعيدة . وكانت منذ القرن الثالث عشر وما بعده قد ضربت حولها نطاقاً من العزلة الأرستقراطية وسوأت ظروف العمل ، حتى بات من اليسير سوق العمال المهرة إلى أحضان رب العمل صاحب رأس المال ، وكان عامل الربح هو الذى يحركه ويزوده بالحيوية والنشاط ، ولكنه عرف كيف يجمع المدخرات إلى رأس المال ، وكيف ومن أين يشترى الآلات والمواد الخام ويدير المناجم ، ويؤسس المصانع ، ويجند لها العمال ، ويقسم العمل ، ويخصص العمال لكل فرع منه ، ويفتح الأسواق الأجنبية ويصل إليها ، ويمول الانتخابات ويسيطر على الحكومات . وكانت الإمدادات الجديدة من الذهب والفضة تدعو بصوت عال إلى استثمارات تدر الربح الوفير . وبات الذهب الأمريكى رأس مال أوربا . وخلقت الرأسمالية « سحر المنافسة » ، وحفزت إلى المغامرة ، وأنتجت السعى المحموم وراء المزيد من الطرق الاقتصادية للإنتاج والتوزيع ، ولم يكن ثمة مفر من أن تخلف وراءها القناعة الذاتيـــة التى اتسم بها رجال النقابات . وتركهم يتهادون فى أساليبهم النمطية الرئيسية القديمة . ولقد فاق النظام

الجديد فى إنتاجه النظام القديم كماً لا كيفاً ، لأن التجار كانوا ينادون بإنتاج كميات كبيرة ليسددوا بصادراتهم الصناعية ثمن الواردات من الشرق .

وكانت الثروة الجديدة محصورة إلى حد كبير ، فى أيدى التجار وأصحاب رءوس الأموال وأصحاب المصانع ، وحلفائهم فى الحكومة ، وظل بعض النبلاء يجمعون الثروة عن طريق الضياع الواسعة التى يستأجرها مئات المستأجرين ، أو الحظائر التى تمد صناعة النسيج بالصوف . على أن الغالبية من ملاك الأرض الأرستقراطيين وجدوا أنفسهم محصورين بين شقى الرحى : الملوك من جهة ، والمدن التى سيطر عليها رجال الأعمال من جهة أخرى ، وانحطت قوتهم السياسية : وكان عليهم أن يقنعوا بكرم المحتد وشرف الأرومة . وشاركت الطبقة الكادحة النبلاء مصائب التضخم ، فمن سنة ١٥٠٠ إلى سنة ١٦٠٠ ارتفع ثمن القمح الذى صنع منه الفقراء رغيف الخبز إلى ١٥٠ ٪ فى انجلترا ، و٢٠٠ ٪ فى فرنسا ٣٠٠ ٪ فى ألمانيا : وفى سنة ١٣٠٠ كان سعر البيض فى انجلترا ٤ بنسات لكل ١٢٠ بيضة ، وارتفع ثمن المقدار نفسه إلى ٥ بنسات فى سنة ١٤٠٠ ، وإلى ٧ بنسات فى سنة ١٥٠٠ ، وإلى ٤٢ بنسا فى سنة ١٥٧٠[٨] . وارتفعت الأجور ، ولكن فى بطء أكثر ، لأن الحكومات كانت تتولى تنظيمها . وحدد قانون ١٥٦٣ فى انجلترا الأجر السنوى للفلاح المستأجر بمبلغ قدره ١٢ دولاراً ، ولعامل المزرعة ٩٫٥٠ ، وللخادم الرجل ٧٫٢٥ ، علماً بأن القوة الشرائية لهذه المبالغ فى سنة ١٥٦٣ تفوق مثيلتها فى ١٩٥٤ خمساً وعشرين مرة ، فوصلت الأجور إلى نحو ١٨٠ دولاراً سنوياً . على أننا يجب أن نلاحظ أن الطعام والإقامة كانتا تضافان إلى هذه الأجور ، وجملة القول أن التغييرات الاقتصادية فى القرن السادس عشر تركت الطبقات العاملة أفقر نسبياً

وأضعف سياسياً ، من ذى قبل . فقد أنتج العمال السلع التى كانت تصدر ثمناً للكماليات المستوردة التى جعلت حياة نفر قليل من الناس مشرقة باسمة ناعمة .

واتسم الصراع بين الطبقات بمرارة ، قل أن عرف لها مثيل منذ عهد سبارتاكوس (.زعيم ثورة العبيد ٧١ ق . م .) وخير شاهد على ذلك ثورة الأهالى فى أسبانيا ، وحرب الفلاحين فى ألمانيا ، وثورة كت Ket فى انجلترا . وكثرت الإضرابات ، ولكنها كانت تخمد بائتلاف أرباب العمل مع الحكومة . وفى ١٥٥٨ قررت نقابة عمال النسيج التى كان يسيطر عليها السادة أن أى عامل يرفض العمل بمقتضى الشروط التى يضعها رب العمل يسجن لأول مخالفة ، ثم يضرب بالسياط ويوصم بالعار فى الثانية : وكانت قوانين التشرد فى عهد هنرى الثامن وإدوارد السادس من القسوة والوحشية إلى حد أن قلة قليلة من العمال تجاسروا على أن يوجدوا متعطلين بلا عمل . ونص قانون ١٥٤٧ على أن أى عامل قادر من الناحية الجسمانية يترك عمله ليتسكع فى البلاد كالمتشردين ، يجب أن يدمغ صدره بحرف "V" (الحرف الأول من Vagabond متشرد) ، ويدفع به بوصفه عبداً رقيقاً إلى أحد المواطنين فى الجهات المجاورة ، لمدة عامين ، ليعيش على « الخبز والماء وقليل من الشراب وحثالة اللحم » ، فإذا لم يرتدع وتكرر منه التشرد ، دمغ على خده أو جبهته بحرف "S" (Slave عبد) وحكم عليه بالاسترقاق طيلة حياته(٩) . وبفضل الشعب الإنجليزى ، وكان فخراً وشرفاً له ، أنه لم يمكن تطبيق هذه الإجراءات وسرعان ما أبطلت ، ولكنها تكشف عن طباع حكومات القرن السادس عشر . وأصدر جورج دوق سكسونيا قراراً بألا ترفع أجور عمال المناجم فى منطقته ، وألا يسمح لعامل بترك عمله للبحث عن عمل فى مكان آخر ، وألا يستخدم رب العمل عاملا كان قد أثار الاستياء فى منجم

آخر ، وأجاز القانون صراحة أو ضمنا تشغيل الأطفال : وقام الأطفال فى فلاندرز بصناعة المخرمات برمتها ، وحرم القانون اشتغال البنات فوق سن الثانية عشرة فى هذه المهنة[١٠] . أما قوانين الاحتكارات والمضاربات والربا فكان مصيرها التجاهل أو المراوغة فى التنفيذ .

وتصادف ظهور الإصلاح الدينى مع قيام الاقتصاد الجديد . وكانت الكنيسة الكاثوليكية تناهض « الأعمال والمشروعات والتجارة » فى حساسية بالغة . فلم يتفق كل هذا مع مزاج الكنيسة . وكانت قد أدانت فوائد القروض ، وأجازت من الناحية الدينية قيام النقابات ، وقدست الفقر وانتقدت الثراء ، وأعفت العمال من العمل أيام الآحاد والعطلات التى كانت كثيرة ، إلى حد أنه فى ١٥٥٠ بلغ عدد الأيام التى لا عمل فيها ١١٥ يوماً فى السنة فى الأقطار الكاثوليكية[١١] . وربما كان لهذا أثره فى الإبطاء بالتصنيع والإثراء فى هذه البلاد . ودافع رجال اللاهوت ، بموافقة الكنيسة ، عن فكرة تحديد « أسعار عادلة » لضرورات الحياة بمقتضى القانون ، وكان توماس الأكوينى قد وصم السعى إلى المال ، بعد الوفاء بحاجيات الإنسان ، بأنه « جشع آثم » ، وحكم بأن أية مقتنيات أو مدخرات فائضة عن الحاجة ، « تخصص بمقتضى القانون الطبيعى لإغاثة الفقراء واسعافهم »[١٢] . وشارك لوثر فى هذه الآراء ، ولكن التطور العام للبروتستانتية تعاون ، دون وعى ، مع الانقلاب الرأسمالى . وألغيت عطلات القديسين ، وكان من نتيجة ذلك زيادة العمل ورأس المال معاً . ولقى المذهب الدينى الجديد تأييداً ودعما من رجال الأعمال ، وجزاء مجاملة مجاملة مثلها ، فنظر البروتستانت إلى الثروة بعين الإجلال والإكبار ، وأثنوا على التدبير والاقتصاد ، وشجعوا العمل على أنه فضيلة ، وارتضوا الفائدة على أنها مكافأة مشروعة لمخاطرة المرء بمدخراته .

٢ ــ القانون

لقد كان عصراً قاسياً رهيباً ، انسجمت قوانينه مع اقتصاد لا يرحم ، وإملاق مخزٍ وفن كئيب ، ولاهوت تخلى ربه عن المسيح وتبرأ منه .

وكانت الجريمة أمراً طبيعياً ، بين سكان كتب على معظمهم الفقر والفاقة في الدنيا ، واللعنة في الآخرة . وكان القتل منتشراً بكثرة في كل الطبقات . وتدلى الخنجر من حزام أي رجل ذي وزن ، أما الضعفاء فقد اعتمدوا على القانون في إصلاح أخطائهم . وكانت جرائم الهوى والانفعال كثيرة جداً قدر كثرتها في روايات شكسبير . فلم يكن بعد في زمرة الرجال أي « عطيل » أخفق في ذبح زوجته التي اشتبه في سلوكها . واعتبر المسافرون قطع الطرق أمراً مفروغاً منه أو قضية مسلماً بها ، فساروا في جماعات . وكان عدد اللصوص في المدن التي لم تزل غير مضاءة ليلا ، وفيراً قدر وفرة العاهرات . وكان لزاماً أن يكون بيت الرجل حصناً منيعاً . وفي أوج عظمة فرنسوا الأول ، أعملت السلب والنهب في باريس في وضح النهار عصابة من اللصوص أطلق عليها اسم « الأولاد الأشرار » . ويروي لنا برانتوم ، رواية غير موثوقة كما تعودنا منه ، كيف أن شارل التاسع رغب في أن يعرف كيف ينفذ النشالون أفانينهم ، « فأمر شرطته بدعوة بعضهم إلى حفلة راقصة ملكية ، وطلب بعد انتهاء الحفل أن يرى غنائمهم ، فوجد أن ما جمعوه من نقود وحلى وملابس بلغ دون تباه أو تفاخر ، في هذا المساء ، ما قيمته عدة آلاف من الدولارات ، مما ظن معه أن الملك سيموت من كثرة الضحك » . ورخص لهم في الاحتفاظ بحصيلة فنهم ودراستهم ، ولكنه ضمهم إلى الجيش لأن مماتهم خير من بقائهم على قيد الحياة(١٣) . فإذا صنفنا ، باعتبارها جرائم ، الغش في السلع ، والمغالطة التي تتسم بها حيل رجال الأعمال ، وتفشي الرشوة في المحاكم ، والاستيلاء على أملاك الكنيسة ، وتوسيع الحدود بالغزو

والفتح ، نقول إذا صنفنا هذه كلها فى عداد الجرائم ، لوجدنا أن واحداً من بين كل اثنين فى أوربا لص ، وقد نضفى على بعضهم الحصانة الأكليريكية ، وقد نسلم بوجود حرفى أمين هنا أو هناك . فإذا أضفنا إلى ذلك شيئاً من إحراق المبانى عمداً ، وبعضاً من حوادث اغتصاب الفتيات ، وقليلا من الخيانة ، لبـــدأنا ندرك المشاكل التى تواجهها قوات النظام وحماة القانون .

وقد نظمت قوات النظام والقانون هذه ، لتوقيع العقاب ، أكثر منها لمنع الجرائم ، وكان رجال الشرطة فى بعض المدن الكبرى ، مثل باريس ، هم حفظة الأمن ، وكان لكل قسم فى المدينة مراقبوه وحراسه ، ولكل أبرشية شرطتها . ولكن ضبط الأمن والنظام كان فى المدن سيئاً إجمالا . وأجهد رجال الحكم أنفسهم فى مكافحة الطبيعة البشرية ، وأخيراً قدروا أنه من الأفضل والأقل تكلفة ، الحد من الجرائم بفرض عقوبات بالغة الشدة وتنفيذها علنا أمام أعين الناس . . وكان هناك عشرات من الجرائم الرئيسية : القتل ، الخيانة ، الهرطقة ، تدنيس المقدسات والمعابد ، السحر ، السلب ، التزوير ، التزييف ، التهريب ، الإحراق عمداً ، الحنث بالقسم ، الزنى ، اغتصاب الفتيات (إذا لم يسو بالزواج) ، اللواط ، « الانغماس فى الشهوات البهيمية » ، غش الموازين والمقاييس ، إفساد الطعام ، تخريب الممتلكات ليلا ، الهروب من السجن ، الإخفاق فى محاولة الانتحار ، وقد تكون العقوبة ضرب العنق بدون ألم أو تعذيب نسبياً ، وهذا امتياز اختص به عادة السيدات وأفاضل الرجال ، أما من هم أقل مكانة فكانوا يشنقون . أما الهراطقة وقتلة الأزواج فكانوا يحرقون . أما السفاحون البارزون فكانوا يشدون أطراف الواحد منهم (يديه ورجليه) إلى أربعة خيول يجرى كل منها فى اتجاه مضاد حتى يتمزق جسم المجرم . وأصدر هنرى الثامن فى ١٥٣١ قانوناً يعاقب من يدس السم ، بالغلى حياً(١٤) ، كما نفعل نحن الأكثر وداعة ورقة بالمحار أو السمك .

ولص قانون محلى فى مسالزبرج بأن يحرق المزور أو يغلى حتى الموت . وأن يقطع لسان الحانث فى اليمين من رقبته . أما الخادم الذى يضاجع زوجة سيده أو ابنته أو شقيقته فيضرب عنقه أو يشنق[١٥] ؛ وأحرقت جولين رابو فى آنجرز (١٥٣١) لأنها كانت قد قتلت طفلها أثر ولادة مؤلمة[١٦] . وهناك أيضاً ، إذا صدقنا ما رواه بودن ، عدة أفراد أحرقوا أحياء لتناولهم اللحم يوم الجمعة ، ورفضهم الندم على ما فعلوا ، أما الذين أظهروا الندم فكانت عقوبتهم مجرد الشنق[١٧] ؛ وكانت العادة أن تترك جثة المشنوق معلقة حتى تنهش الغربان لحمها ، ليكون عظة وعبرة للأحياء ، وفى الجرائم الصغرى كان يجلد الرجل أو المرأة أو تقطع إحدى يديه أو قدميه أو أذنيه ، أو أنفه ، أو تفقأ إحدى عينيه أو كلتاهما ، أو يكوى بالحديد المحمى ؛ وهناك جنح أخف كان عقابها السجن الذى تختلف فيه ظروف المعاملة بين المجاملة والخشونة ، أو تعذيب المذنب بآلة خشبية ذات ثقوب تقيد فيها رجلاه ويداه ، أو إدخال أيدى المذنب ورأسه فى آلة خشبية تسمى « المشهرة » ، أو الجلد ، أو التعذيب على كرسى التغطيس . وكان السجن وفاء للدين معروفاً شائعاً فى جميع أنحاء أوربا . وبصفة عامة كان قانون العقوبات فى القرن السادس عشر أشد قساوة منه فى العصور الوسطى ، ولقد عكس الفوضى الأخلاقية فى ذاك العصر .

ولم يكن الناس يستاءون من هذه العقوبات الصارمة ، بل لقد أحسوا ببعض السرور والابتهاج فى مشاهدة تنفيذها وساعدوا فى بعض الأحيان فى التنفيذ . ولما اعترف مونتكوكولى تحت وطأة التعذيب ، بأنه كان قد سمم ، أو حاول أن يسمم ، فرانسيس ، الابن العزيز المحبوب لفرانسوا الأول ، مزقت أوصاله حياً ، بربط أطرافه إلى أربعة خيول جرت فى أربعة اتجاهات ، (ليون ١٥٣٦) وقيل إن الجمهور مزق بقايا جسمه إلى قطع

صغيرة ، وفقت أنفه ، واقتلع عينيه ، وحطم فكيه ، ومرغ رأسه فى الوحل ، وجعله يموت ألف مرة قبل أن يفارق الحياة[١٨] .

وهناك إلى جانب القوانين التى شرعت للجرائم ، وضعت « القوانين الزرقاء أو قوانين المتطهرين » ضد اللهو والتسلية التى يظن أنها تجافى التقى والورع ، أو البدع التى تنافى العرف بشكل حاد ، فقد اقتضى القانون العرفى فى العالم الكاثوليكى أكل السمك فى أيام الجمعة ، كما اقتضته قوانين الدولة فى انجلترا البروتستانتية فى عهد إدوارد السادس دعماً لصناعة صيد الأسماك ، وتدريباً للرجال على ركوب البحر من أجل الأسطول[١٩] . وكان الميسر دائماً غير مشروع ، ودائماً شائعاً مرغوباً فيه . وأمر فرانسوا ، الذى عرف أساليب اللهو والتسلية ، بالقبض على من يلعبون الورق أو النرد فى الحانات أو نوادى الألعاب (١٥٢٦) ولكنه أباح إقامة « يانصيب » عام (١٥٣٩) . وقلما كان القانون يعاقب على إدمان الخمر ، على حين اعتبر البطالة والخمول جريمة رئيسية تقريباً . أما قوانين التبذير أو الإنفاق بسخاء — وهى التى وضعت لضبط الأغنياء الجدد الذين ينفقون إنفاقاً مريباً يدعو إلى الاشتباه ، والمحافظة على فوارق الطبقات ، فقد حددت هذه القوانين ، الأزياء والزينة والأثاث ووجبات الطعام وواجبات الضيافة . ويقول لوثر « عندما كنت صبياً كانت الألعاب محرمة ، حتى أن صانعى أوراق اللعب ، والعازفين على المزمار والممثلين لم يكن يسمح لهم بشهود الأسرار المقدسة . أما من كانوا قد اشتركوا فى الألعاب ، أو حضروا حفلات الألعاب أو الروايات ، فكانوا يجعلون هذا موضوع اعتراف أمام القسيس »[٢٠] . وعاشت هذه المحرمات بعد الإصلاح الدينى . وبلغت ذروتها فى أخريات القرن السادس عشر .

وثمة بعض العزاء فى أن التطبيق قل أن كان على قدر صرامة القانون ،

وكان التهرب أمراً ميسوراً . وكم من قاض أو محلف ، بدافع الشفقة أو التخويف أو بفضل الرشوة — أطلق سراح كثير من الأوغاد مقابل عقوبة يسيرة أو غرامة . وكانت قوانين اللجوء إلى الكنيسة لا يزال معمولا بها فى عهد هنرى الثامن ؛ وكانت المرونة فى التطبيق ، على أية حال ، تتوازن مع استعمال التعذيب لانتزاع الاعترافات أو البيانات . وهناك كانت قوانين هنرى الثامن ، على الرغم من كونها أقسى القوانين فى تاريخ انجلترا — نقول كانت متقدمة عن زمانها[٢١] ، لأنها حرمت التعذيب إلا إذا روعى أن الجريمة علاقة بالأمن القومى[٢٢] ، ويمكن أن يكون الإبطاء فى محاكمة المتهم تعذيباً أيضاً . فقد شكا كورتيز الأسبانى إلى شارل الخامس من أن المتهمين ، حتى بأخطاء يسيرة ، طال بقاؤهم فى السجن عشر سنين أو نحوها ، قبل أن يحاكموا ، وأن المحاكمات قد تتلكأ لمدة عشرين عاماً[٢٣] .

وترعرع المحامون وتضاعف عددهم مع اضمحلال جماعة الكهنة ، وملأوا مناصب السلطة القضائية والبيروقراطية العالية ، ومثلوا الطبقات الوسطى فى الجمعيات الوطنيـــة والبرلمانات الإقليمية ، وحتى الطبقة الأرستقراطية ورجال الدين اعتمدوا على المحامين فى القضايا المدنية ، وتكونت منهم فى فرنسا طبقة جديدة : « نبلاء الرداء — الروب » ، أو على حد قول رابليه الهجاء الفرنسى « القطط ذوات الفراء » . واختفى القانون الكنسى فى الأقطار البروتستانتية . وحلت فلسفة التشريع محل اللاهوت « كأداة للمقاومة » فى الجامعات . وعاد القانون الرومانى إلى الحياة فى الأقطار اللاتينية ، وسيطر على ألمانيا فى القرن السادس عشر ، وعاش القانون المحلى معه جنبا إلى جنب فى فرنسا . أما فى انجلترا فقد فضلوا عملية « القانون العرفى » . ولكن كان لقوانين جستنيان بعض الأثر فى تشكيل وتدعيم الحكم المطلق الذى أقامه هنرى الثامن . على أنه فى

بلاط هنرى الثامن نفسه ، ألف قسيسه الخاص توماس ستاركى (١٥٣٧) « حواراً » كانت الفكرة الأساسية فيه أن القوانين يجب أن تفرض إرادة الملك ، وأن الملوك يجب أن يخضعوا للانتخاب والعزل .

> لا يمكن أن يطول حكم هذه البلاد حكماً صالحاً ، أو الاحتفاظ فيها بسياسة حكيمة ، طالما أنها تحكم بإرادة فرد لم يتم اختياره بطريق الانتخاب ، بل أتى إلى العرش بالتعاقب الطبيعى . فقلما شهدنا أن الذين يأتون إلى العرش أو الممالك عن طريق هذا التعاقب ، كانوا جديرين بتولى هذه المناصب السامية والسلطات العالية .... وأى شىء أبغض إلى الطبيعة من أن تحكم أمة بأمرها وفق إرادة أمير ؟؟ وأى شىء أكثر تنافياً مع العقل من أن شعباً برمته يحكمه من يعوزه العقل عموماً ؟؟ ... وليس ثمة إنسان يستطيع أن يخلق أميراً حكيماً عاقلا ممن ينقصه الذكاء والحصافة بالطبيعة .... ولكن فى مقدور الإنسان أن ينتخب ويختار من يتوفر فيه العقل والعدالة معاً ، فينصبه أميراً ، ومن ثم يخلع الطاغية المستبد(٢٤) .

وكان موضع العجب والغرابة أن يموت ستاركى موتاً طبيعياً بعد عام واحد من كتابة « حواره » الذى لم يطبع إلا بعد ٣٣٤ سنة من تدوينه .

٣ — الأخلاق

كيف كان سلوك الناس فى العالم المسيحى اللاتينى ؟ إنه لجدير بنا ألا يضللنا جهرهم بالإيمان بالدين ، حيث لم يكن ذلك فى الغالب إلا ولعاً بالشقاق والمشاكسة ، أكثر منه ورعاً وتقوى . فإن نفس الشخص العنيد الذى يستطيع أن يتشدد فى إيمانه يستطيع أن يكون عنيفاً كذلك فى تجديفه ، وإن البنات اللائى ينحنين متظاهرات بالرزانة والاحتشام أمام تماثيل العذراء ،

أيام الأحد ، ليصبغن وجناتهن بالحمرة ويتجملن طيلة الأسبوع يحدوهن الأمل ، وكثيرات منهن انزلقن تحت تأثير الإغراء والغواية ، لمجرد عرض فكرة الزواج . وما كان من الميسور حماية العذارى وعذرتهن وبتولتهن إلا بالتمسك بكل أهداب العرف والأخلاق والقانون والدين وسلطة الوالدين والتعليم ، و « حدود للشرف » . ولكن ما كان أكثر الاحتيال على الانزلاق .
إن الجنود الذين عادوا من الحملات التى كان الخمر والنساء فيها عزاءهم وتسليتهم الأساسية ، وجدوا من المؤلم لهم ومن العسير عليهم أن يروضوا أنفسهم على العفة والامتناع عن شرب الخمر . وانغمس الطلبة فى الفسق والفجور ، واحتجوا بأن الزنى خطيئة عرضية تغتفر»[٢٥] ، ويمكن أن يتجاوز عنها المشرعون المستنيرون . ولقد أعلن روبرت جرين أنه فى كمبردج كان قد « أفنى زهرة شبابه بين أوغاد فاجرين لا يقلون عنه دعارة »[٢٦] . وكثيراً ما ظهر الراقصات على المسرح ، أو فى أى مكان آخر ، « عاريات تماماً »[٢٧] . ومن الواضح أن هذه بدعة من أقدم البدع فى الدنيا — ولقد نظر الفنانون بازدراء إلى قواعد السلوك الجنسى ونظمه[٢٨] ، واتفق اللوردات والسيدات مع الفنانين فى ذلك . وكتب برانتوم : « إن الطبقات العليا استخفت بقواعد السلوك عند العذارى وما يحوم حولهن من شكوك ، وكم من آنسات أعرفهن فى دنيا العظماء ، لم يأخذن معهن بكارتهن إلى فراش الزوجية »[٢٩] . ولقد لحظنا نوع القصة التى بدا أن مرجريت نافار الجميلة سمعتها دون أن تحمر وجنتاها خجلا . وكم زخرت المكتبات بكتب الأدب الخليع المكشوف ، التى تدفع فيها أثمان عالية فى نهم شديد[٣٠] . وكان لأرتينو (هجاء لاذع فى إيطاليا فى القرن الخامس عشر) فى باريس شعبية قدر شعبيته فى روما ، ولم يحس رابليه ، الكاهن بأنه من الجائز أن ينقص المبيع من ملحمته « جارجنتوان Gargantuan » بحشوها بكلام جعل أرتينو يسـارع لإخفائه . ووجد

الفنانون سوقاً رائجة للصور الجلسية ، بل حتى للانحرافات المصورة[٣١] ، وكان الباعة المتجولون فى الشوارع ، وحماة البريد واللاعبون الجوالون يبيعون روائع الصور التى من هذا القبيل ، حتى فى المعارض والأسواق الخيرية الكبرى[٣٢] : لقد وجدت كل ألوان الابتذال والانحراف لها مكاناً فسيحاً فى تلك الحقبة[٣٣] ، مثلما وجدته فى الصفحات التى دونها برانتوم والتى تتسم بالأرستقراطية[٣٤] .

وزاد الدخل من البغاء وارتفع شأنه . وحدث فى هذا العصر أن أطلق على من يمارسنه « سيدات البلاط » — (فى مقابل رجال البلاط) : وقدم بعض القواد البغايا إلى جيوشهم ، حرصاً منهم على حماية سيدات البلاد التى يحتلونها[٣٥] . ولكن نسبة الأمراض السرية ارتفعت إلى حد الوباء تقريباً . وكم أصدرت الحكومة تلو الحكومة من تشريعات ضد « بنات الهوى » التعيسات . وعلى حين أكد لوثر أن الرغبة الجنسية أمر طبيعى ، نراه قد كافح للإقلال من البغاء ، وبتحريض منه حرمته كثير من مدن ألمانيا اللوثرية[٣٦] . وفى ١٥٦٠ جدد ميشيل دى لوبيتال مستشار فرنسا قوانين لويس التاسع ضد هذه الرذيلة ، والظاهر أن أوامره نفذت .

وفى الوقت نفسه نجد أن الشهوة الحمقاء للجسد من أجل الجسد ، أورثت ظمأ النفس إلى النفس ، وإلى كل ما كان يزدان به التودد والحب الرومانتيكى من رقة وكياسة ، وتدفقت الدماء التى تغلى فى العروق فى النظرات المختلسة والرسائل الغرامية والقصائد الغنائية والمقطوعات الشعرية والأناشيد والقطع الغزلية والهدايا المشجعة واللقاءات السرية . ورحبت بعض الشخصيات المهذبة أو السيدات اللعوبات من إيطاليا وكاستايونى ، بالتسلى بحب أفلاطونى تكون فيه السيدة والرفيق المتودد إليها صديقين حميمين ، ولكن محافظين على الطهارة والعفة ، ولكن مثل هذا اللون من كبح جماح النفس لم يكن من شيمة هذا العصر . فقد كان الرجال شهوانيين بطريقة مكشوفة ، وأحب النساء هذه

الحلة فيهم ، وكثر شعر الغرام ، ولكنه كان مقدمة لافتناص النساء .

وبالنسبة للزواج ، بقى الآباء واقعيين إلى حد عدم السماح للمحب باختيار رفيقة الحياة ، فقد كان الزواج فى شريعتهم زفافاً إلى الضيعة أو الثروة أو المكانة الاجتماعية (زواج المصلحة) ، ونصح إرزم الذى كان شديد الإحساس بمفاتن المرأة ، لا بالزواج ، نصح الصغار بالزواج ممن يختاره الكبار ، على أن يتركوا الحب ينمو بالمزاملة والمرافقة أفضل من أن يذبل ويذوى بإشباع الشهوة(٣٧) ، واتفق رابليه معه فى هذا الرأى(٣٨) . وعلى الرغم من هؤلاء الثقاة ، ثار عدد متزايد من الشباب ، مثل جان د ألبرت ، على الزيجات المبنية على الثروات والعقارات الثابتة . ونعى روجر أسكام معلم المليكة اليصابات : « أن عهدنا بعيد جداً عن النظام والامتثال القديمين : حتى أن الشبان ، بل والبنات أنفسهن — أصبح الجميع يجرؤون على الزواج رغم أنف الأب والأم والرب والنظام السليم وكل شىء(٣٩) . وفزع لوثر حين علم بأن ابن ميلانكتون خطب لنفسه عروساً دون استشارة أبيه ، وأن أحد صغار القضاة فى وتنبرج أعلن صحة هذه الخطبة ، ورأى المصلح الدينى (لوثر) أن هذا سيسىء حتما إلى سمعة وتنبرج . وفى ٢٢ يناير ١٥٤٤ كتب فى الجامعة :—

> إن لدينا عدداً وفيراً من الشبان من مختلف البلاد ، وان سباق البنات ليشتد ، وانهن ليجرين وراء الرفاق فى حجراتهم وقاعاتهم : وحيثما استطعن إليهم سبيلا ، ليعرضن عليهم حبهن الطليق . ولقد سمعت أن كثيراً من الآباء أمروا أبناءهم بالعودة إلى بيوتهم . . . قائلين إننا نعلق الزوجات حول رقاب أبنائهم . . . وفى يوم الأحد التالى ألقيت عظة قوية أدعو الرجال إلى اتباع السبيل القويم والقاعدة اللتين وجدتا منذ بدء الخليقة . . . أعنى أن يزوج الآباء أبناءهم بعضهم من بعض بروية وحسن نية ، دون أن يرتبط الأبناء بارتباط

تمهيدى . . فإن مثل هذه الارتباطات من ابتداع البابا الممقوت ، أوحى بها إليه الشيطان ليحطم ويمزق سلطة الآباء التى منحها الله إياهم وأوصى بها لهم بصفة جدية[٤٠] .

وكان يمكن تنظيم عقود الزواج للأولاد والبنات ابتداء من سن الثالثة ، ولكن كان من الميسور فسخها إذا لم تتحقق . وكانت السن الشرعية للزواج الرابعة عشرة الولد والثانية عشرة للبنت ؛ وكان من المستطاع التجاوز عن العلاقات الجنسية بعد الخطبة وقبل الزفاف ، وحتى قبل الخطبة ، فى السويد وفى ويلز ، كما كان فى بعض المستعمرات الأمريكية فيما بعد ، وكان يسمح للحبيبين بالاشتراك فى فراش واحد دون أن يخلعا ملابسهما ، ولكنهما كانا يذكران بالاحتفاظ بملاءة بينهما حتى لا يلتصق جسماهما[٤١]. ولم يعد الزواج فى البلاد البروتستانتية سراً مقدساً ، وما حل عام ١٥٨٠ حتى بات الزواج المدنى يزاحم الزواج على يدى الكاهن . وارتأى لوثر وهنرى الثامن وإرزم والبابا كليمنت السابع أن الزواج من امرأتين يمكن أن يرخص فيه تحت شروط معينة ، وخاصة إذا كان بديلا للطلاق . واتجه رجال الدين من البروتستانت شيئاً فشيئاً إلى إباحة الطلاق ، وكان ذلك فى أول الأمر بسبب الزنى فحسب ، وكانت هذه الجريمة أكثر شيوعاً فى فرنسا ، على الرغم من عادة قتل الزوجة الزانية هناك . وكان الحب غير المشروع جزءاً من الحياة العادية للسيدات الفرنسيات ذوات المركز الاجتماعى المرموق[٤٢] . وكان البيت الذى يضم زوجاً وزوجتين أمراً مألوفاً كثيراً فى فرنسا ، مثال ذلك البيت الذى كان يضم هنرى الثالث وكاترين دى مديتشى وديان دى بواتييه ، وكانت الزوجة الشرعية (المعقود عليها) ترتضى هذا الوضع فى كياسة مرة ساخرة ، كما يحدث أحياناً فى فرنسا اليوم .

وباستثناء الطبقة الأرستقراطية ، كانت المرأة قبل الزواج معبودة

و إلهة ، وبعده خادمة . وكانت الزوجة تقوم بواجبات الأمومة خير قيام أدون صعوبة أو تردد ، وتبتهج وتفاخر بكثرة الأولاد ، وتحتال على أن تسوس رب البيت . وكان النساء قويات معتادات على العمل الشاق من طلوع الشمس إلى مغربها ، ويقمن بحياكة معظم الملابس اللازمة لأسراتهن . وكن في بعض الأحيان يعملن مع المقاولين الرأسماليين . وكان النول جزءاً أساسياً من البيت ؛ وفي إنجلترا كان معظم النساء غير المتزوجات غزّالات ، أما سيدات البلاط الفرنسي فكن شيئاً آخر ، ولقد شجعهن فرانسوا الأول على تجميل أجسامهن وملابسهن ؛ واستطعن في بعض الأحيان تحويل السياسة الوطنية بفعل « القذائف الموجهة » التي تطلقها مفاتنهن . وورد من إيطاليا على فرنسا ، حركة نسائية ، ولكنها لم تلبث أن خمدت ، لأن النساء أدركن أن قوتهن وشهرتهن شيء مستقل عن السياسة والقانون . وكان كثير من نساء الطبقة العليا على درجة عالية من الثقافة . وفي باريس ، وفي غيرها ، بدأ الصالون الفرنسي آنذاك يتشكل ، حيث جعلت السيدات المثقفات ذوات اليسار من بيوتهن ملتقى رجال الدولة والشعراء والفنانين والعلماء والأساقفة والفلاسفة ، وثمة مجموعة أخرى من السيدات الفرنسيات بقين متمسكات بأهداب الفضيلة ، في هدوء ، وسط العاصفة الهوجاء — عاصفة الجنس — مثل آن أوف فرانس ، وآن أوف برتياني ، وكلود ، ورينيه . وبصفة عامة ، فإن الإصلاح الديني الذي نبت في تربة تيوتونية (ألمانيا وشمال أوربا) عمل على تدعيم فكرة المجتمع الأبوي وسلطان الأب على المرأة والأسرة . كما وضع الإصلاح حداً لتمجيد المرأة في عصر النهضة ، بوصفها نموذجاً للجمال وعاملة على تمدين الرجل ، كما أدان الكنيسة بالتساهل في الانحرافات الجنسية ، ومهد الطريق بعد موت لوثر لجفاء المتطهرين (الحركة البيوريتانية) .

وتدهورت الأخلاق الاجتماعية بنشوء الروح التجارية وشدة الاهتمام بالربح ، والإحجام المؤقت عن أعمال البر والإحسان والصدقات ؛ ووجد

الخداع والتضليل والخيانة — وهى أمور طبيعية فى الإنسان — أساليب وفرصاً جديدة ، منذ حلت اقتصاديات المال محل النظام الإقطاعى ، ومنذ تملك الأغنياء الجدد السندات المالية أكثر مما تملكوا الأرض ، وكانوا قليلا ما يرون الأفراد الذين أفادوا من كدهم وعرقهم ، فإن هؤلاء الأغنياء لم يكن لديهم من تقاليد المسئولية والكرم ما كان قد ذهب وولى مع الثروة القائمة على امتلاك الأرض[٤٣] . وكانت التجارة والصناعة فى العصور الوسطى قد ارتضتا الضوابط الأخلاقية المتمثلة فى توجيهات النقابات والمجالس المحلية والكنيسة ، ولكن الرأسمالية الجديدة رفضت كل هذه القيود ، وجرت الناس إلى منافسة عنيفة طوحت بالقوانين القديمة عرض الحائط[٤٤] ، وحلت الحيل التجارية محل الحيل الموسومة بالتقى والورع . وضجت نشرات الإعلان فى ذاك الزمان بالتحذيرات من غش الأطعمة وسائر المنتجات بالجملة . وشكا مجلس الديت فى انسبروك ١٥١٨ ، من أن المستوردين « يضيفون الآجر المسحوق إلى الزنجبيل ، ويخلطون الفلفل بمواد غير صحية »[٤٥]. ولحظ لوثر أن التجار « عرفوا كيف يحتالون على زيادة وزن التوابل — مثل الفلفل والزنجبيل والزعفران — بوضعها فى أقبية رطبة ، وأنه ليس ثمة سلعة واحدة لا يستطيعون أن يجنوا من ورائها أرباحاً طائلة بالغش فى الكيل أو العد أو الوزن أو استحداث ألوان مصطنعة . . . وليس ثمة نهاية لحيلهم »[٤٦] . ووصم سناتو البندقية حمولة سفينة من الأصواف الإنجليزية بأنها مغشوشة من حيث الوزن والصنع والحجم[٤٧] .

وكان الناس فى الأقطار اللاتينية لا يزالون يقبلون على أعمال البر والإحسان والصدقات بصدور منشرحة ، كما كان الحال فى العصور الوسطى ، وأنفقت الأسرات النبيلة جزءاً كبيراً من دخولها فى الهبات والصدقات[٤٨] . وورثت ليون عن القرن الخامس عشر منظمة ضخمة للصدقات المحلية أمدها المواطنون بالأموال بسخاء عن طيب خاطر[٤٩] . أما

فى ألمانيا وانجلترا فلم تكن الأيدى مبسوطة إلى هذا الحد . وبذل لوثر كل ما فى وسعه ليعيد لظام الصدقات الذى كان قد اختل بمصادرة الأمراء لأملاك الأديرة ، ولكنه اعترف بأن جهوده لم تكلل بالنجاح . ورثى « لأن الناس فى عهد البابوية كانوا محسنين وتصدقوا عن طيب خاطر [٥٠] ، ولكنهم فى ظل شريعة الإنجيل لم يعودوا يعطون شيئاً ، وبات كل فرد يسلب الآخر . . . ولن يتصدق أحد بفلس واحد »[٥١] ؛ ونقل إلينا لاتيمر (من رجال الإصلاح الدينى البروتستانتى فى انجلترا فى القرن السادس عشر) رواية مشابهة : « لم يقس قلب لندن قط كما هو حالها الآن ، فإذا مات أحد الأغنياء فى الأزمنة الغابرة ، كان ذووه يرصدون مبالغ كبيرة من المال لإغاثة الفقراء . . . أما الآن فقد تجمدت المروءة وانقضى عهدها[٥٢] . وأبلغ الكاردينال بول لندن ، أن مدينتين فى إيطاليا تصدقتا بأكثر مما تصدقت به انجلترا بأسرها[٥٣] . وانتهى فرود إلى أنه « لما انتشر الصدق ، تقلص البر والعدل فى انجلترا »[٥٤] ؛ ويحتمل أنها ليست البروتستانتية ، ولكنها الروح التجارية والكفر هما اللذان أنقصا الصدقات والإحسان .

واشتد الفقر حتى أصبح يشكل أزمة اجتماعية ، فإن المستأجرين المطرودين والعمال المهرة العاطلين والجنود المسرحين هاموا على وجوههم فى الطرقات أو الأكواخ المصنوعة من القش يسألون الناس أو يسلبونهم ليعيشوا : وقدر عدد المعوزين فى أوجزبرج بسدس السكان وفى همبرج بخمسهم ، وفى لندن بربعهم[٥٥] : وصاح المصلح الدينى توماس لفر يوما « يا رب يا رحيم ! ما هذا العدد الضخم من الفقراء والضعفاء والعرج والعمى والمقعدين والمرضى . . . والذين يرقدون أو يزحفون فى الشوارع الموحلة ! »[٥٦] وكان لوثر الذى امتلأ قلبه بالرحمة قدر ما اتسم لسانه بالقسوة ، من أول من أدركوا أن الدولة يجب أن تتولى عن الكنيسة رعاية المعوزين وإنقاذهم . وفى حديثه « إلى أشراف المسيحية فى الأمة الألمانية » (١٥٢٠) اقترح

أن تتكفل كل مدينة بالمعوزين فيها . وفى أثناء تغيبه فى ورتبرج ، نظم أتباعه المتطرفون فى وتنبرج — صندوقاً جماعياً لرعاية الأيتام ، ودفع مهور البنات الفقيرات ، وترتيب منح دراسية للطلبة المحتاجين ، وإقراض الأموال للأسرات التى أخنى عليها الدهر ، وفى سنة ١٥٢٥ أصدر لوثر توجيهاً بإنشاء صندوق عام . حث فيه المواطنين ورجال الدين فى كل قسم على أن يفرضوا على أنفسهم ضريبة يسهمون بها فى تكوين رصيد يقدمون منه قروضاً بدون فائدة للمحتاجين أو غير القادرين على العمل(٥٧) . وفى ١٥٢٢ عينت أوجزبرج ستة « حماة الفقراء » ليشرفوا على توزيع المساعدات عليهم ، وتبعتها نورمبرج فى الحال ، ثم ستراسبورج ويرسلاو (١٥٢٣) ، وراتسبون ومجدبرج (١٥٢٤) .

وفى تلك السنة كتب أسبانى من دعاة الحركة الإنسانية ، جوان لويس فيفز لمجلس مدينة بروجز نشرة عنوانها : « إعانة الفقراء » . وقد لحظ انتشار الفقر وسط نمو الثروة ، وأنذر بأن الإفراط فى عدم المساواة فى المملكة قد يولد ثورة مدمرة ؛ وكتب يقول : « كما أنه من الخزى والعار على رب الأسرة فى بيته الهانئ أن يسمح لفرد فيـــه أن يعانى مهانة العرى أو الأسمال البالية ، فإنه كذلك ليس من اللائق بولاة الأمور فى المدينة أن يحتملوا حالة مواطنين يتضورون جوعاً وبؤساً »(٥٨) . ووافق فيفز على أن يجبر على العمل كل قادر عليه ، وألا يسمح لأحد بالتسول ، ولكن ما دام كثيرون غير قادرين على العمل فعلا ، فيجب أن يدبر لهم مأوى فى الملاجئ أو المستشفيات أو المدارس التى تنفق عليها البلديات « على أن يقدم لهم الطعام والرعاية الطبية والتعليم الابتدائى مجاناً ، ويجب أن تتخذ تدابير خاصة للمتخلفين عقلياً . وجمع ايبر Ypres بين أفكار فيفز والسوابق الألمانية فى هذا المجال ، ونظم فى ١٥٢٥ صندوقاً جماعياً وحد أموال

الصدقات فى رصيد واحد ووكل توزيعها إلى رياسة واحدة . وطاب شارل الخامس (١٥٣١) نسخة من خطة ايبر . وأرسل هنرى الثامن توجيهاً مماثلا إلى أبرشيات انجلترا (١٥٣٦) . واحتفظت الكنيسة فى البـلاد الكاثوليكية بإدارة أموال الصدقات .

وبقى الخلق السياسى مطبوعا بالمكيافللية : واعتبر نظام الجاسوسـية أمراً مسلما به . وكان من المتوقع أن يبلغ جواسيس هنرى الثامن فى رومه عن أخطر محادثات الفاتيكان وأكثرها سرية[٥٩] . وكانت الرشوة عملية تقليدية ، وتدفقت فى سخاء أكثر بعد تدفق الذهب من أمريكا . وتسابقت الحكومات على نقض المعاهدات . ونافست الأساطيل المسيحية والتركية بعضها بعضا فى أعمال القرصنة . وبعد تدهور نظام الفروسية انحطت أخلاقيات الحرب إلى ما يشبه الهمجية ونهبت أو أحرقت المدن التى كانت قد أخفقت فى مقاومة الحصار ، وذبح الجنود المستسلمون أو استعبدوا حتى تدفع عنهم الفدية . أما القوانين والمجاملات الدولية التى كانت سائدة فى حالة خضوع الملوك أحياناً لتحكيم البابوات ، فقد اختفت فى فوضى التوسع القومى والعداء الدينى . واعترف المسيحيون ببعض الضوابط الخلقية تجاه غير المسيحيين ، وبادلهم الأتراك نفس المعاملة . وأسر البرتغاليون زنوج أفريقية واستعبدوهم . ونهب الغزاة الأسبان المواطنين الأمريكيين واستعبدوهم وقتلوهم ، دون أن يخفوا عزمهم الأكيد على تحويل الدنيا الجديدة إلى المسيحية ، وكانت حياة الهنود الحمر فى أمريكا فى ظل الحكم الأسبانى مريرة تعيسة إلى حد انتحار الآلاف منهم[٦٠] ، بل حتى فى العالم المسيحى نفسه فى ذاك العصر كثرت حوادث الانتحار إلى درجة مروعة[٦١] . واغتفر بعض دعاة الحركة الإنسانية إهلاك النفس . ولكن الكنيسة حكمت بأنه يؤدى إلى الجحيم مباشرة ، ومن ثم يكون المنتحر كالمستجير من الرمضاء بالنار .

إن كل ما فى الاصلاح الدينى ، ولو أنه فى نهاية الأمر أصلح من

الأخلاق فى أوربا — دمر الفضائل العلمانية . ولقد نعى بركهيمر وهانز ساكس — وكلاهما متعاطف مع لوثر — أن فوضى السلوك العشوائى غير المنظم قد سادت بعد انهيار السلطة الدينية[٦٢] : وكان لوثر كعادته ، صريحا جداً فى هذه النقطة :

كلما تقدمنا إلى الأمام ، ازداد العالم سوءاً . . . . فمن الواضح جداً كيف أن الناس أصبحوا نهمين قساة بذيئين وقحين شريرين أكثر بكثير مما كانوا عليه فى ظل البابوية[٦٣] ... فنحن الألمان اليوم موضع سخرية كل الأقوام والشعوب ووصمة عار لهم ، ونحن نعتبر قطيعا مخزيا كئيبا من الخنازير . . . . نحن نكذب ونسرق ، ونفرط فى الطعام والشراب ، وننغمس فى كل رذيلة[٦٤] . . . . وإن الشكوى عامة من أن شبان اليوم منحلون فوضويون تماما ، وأنهم لا يستبيحون لأنفسهم أن يزدادوا علما ومعرفة . ويروح نساء وتتبرج وبناتها ويجئن فى كل مكان عاريت ، وليس هناك من يعاقبهن أو يصحح أخطاءهن ، ساخرات من « كلمة الرب » هازئات بها[٦٥] .

ووصف واعظ لوثرى ، أندريا مسكولوس ، عصره (١٥٦٠) بأنه فاسق غير أخلاقى ، إذا قورن بالألمان فى القرن الخامس عشر[٦٦] . واتفق معه فى ذلك كثير من زعماء البروتستانت[٦٧] . وتأوه كلفن قائلا « إن المستقبل يفزعنى ، ولست أجرؤ على التفكير فيه . إن الهمجية سوف تجرفنا إلا إذا هبط الرب من السماء[٦٨] . وأنا لنسمع شيئاً من هذا القبيل عن اسكتلندة وإنجلترا[٦٩] . ولخص فرود ، وهو النصير المتحمس لهنرى الثامن ، الموضوع باعتدال وإنصاف ، فقال :

إن الحركة التى بدأها هنرى الثامن ، بالحكم عليها بنتائجها الحالية

(١٥٥٠) أسلمت البلاد آخر الأمر إلى مجرد مغامرين . إن الناس استبدلوا بخرافة من أكبر مساوئها أنها فرضت ظلا من الاحترام والطاعة ، خرافة أخرى ، مزجت الطاعة بإيمان متسم بطابع المضاربة . وتحت هذا التأثير المميت ، بدأت تختفى ، لا أسمى فضائل التضحية بالنفس فحسب ، بل أبسط واجبات الاستقامة والأمانة والفضيلة والأخلاق . وأصيبت الحياة الخاصة بدنس بدا لخلاعة رجال الدين الكاثوليك أنه البراءة والطهر . . . . ومن بين الفئة الصالحة التى لم يمسها الدنس ، لا يزال من الممكن العثور على أفاضلهم فى جانب الإصلاح(٧٠) .

وقد لا يكون من اليسير أن تنسب هذا الانحطاط الخلقى فى ألمانيا وإنجلترا ، إلى فك لوثر لقيود الجنس ، وازدرائه « للأعمال الصالحة » ، أو إلى المثل السيئ الذى ضربه هنرى الثامن بانغماسه فى المغامرات الجنسية وقسوته البالغة ، فقد ساد فسوق مشابه — ومن بعض النواحى أكثر انطلاقاً — فى إيطاليا البابوية فى ظل البابوات فى عصر النهضة ، وفى فرنسا الكاثوليكية تحت حكم فرانسوا الأول . وربما كان السبب الرئيسى فى انحلال الخلق فى أوربا الغربية هو نمو الثروة . وثمة سبب أصيل يدعم هذا ، هو تزعزع الإيمان ، لا فى المبادئ الكاثوليكية فحسب ، بل فى أساسيات وأصول العقيدة المسيحية كذلك . فقـــد رثى أندريا مسكولوس « أنه ليس هناك من يعبأ بالجنة أو الجحيم ، ولا يفكر أحد فى الله أو فى الشيطان »(٧١) . وينبغى فى مثل هذه التصريحات الصادرة عن الزعماء الدينيين ، أن تتجاوز عن مبالغات المصلحين اليائسين من ضآلة التحسينات التى أدخلتها إصلاحاتهم الدينية على الحياة الأخلاقية . وإذا كان لنا أن نصدق الوعاظ ، فإن الناس لم يكونوا أفضل بكثير فيما مضى ، وقد لا يكونون أفضل بكثير فى القرون التالية . فى مقدورنا أن نتبين فى عصرنا هذا كل خطايا القرن السادس عشر وآثامه ،

وأن نتبين خطايانا وآثامنا فى كل ما اقترفه الناس فى ذلك القرن ، طبقاً لما تيسر لديهم من وسائل وأساليب .

وإنا لنجد فى نفس الوقت أن الكاثوليكية والبروتستانتية كلتيهما ، كانتا قد أقامتا ودعمتا أساسين لانبعاث الروح المعنوية والأخلاقية : تهذيب سلوك رجال الإكليروس بالزواج أو بالزهد والتعفف ، والتوكيد على أن البيت هو الملاذ الأخير للإيمان والحشمة واللياقة . وقد يؤتى الإصلاح حقاً ثماره على مدى الأيام ، حتى إلى حد التطرف ، وقد يأتى اليوم حين يرجع الرجال والنساء بأبصارهم إلى الوراء ، فى حسد خفى ، إلى القرن السادس عشر ، حيث كان أسلافهم أشراراً وأحراراً إلى الحد الذى كانوا عليه يومذاك .

٤ – آداب السلوك

كان الحكم على الناس آنذاك ، مثل ما هو حادث اليوم ، بعاداتهم أكثر منه بأخلاقهم . لقد تجاوز الناس ، بقدر أكبر من طيب النفس ، عن الخطايا التى ارتكبت بأقل قدر من الوحشية ؛ وأعظم قدر من الكياسة . وفى هذا المجال كانت إيطاليا هى الرائدة ، شأنها فى كل شىء باستثناء المدفعيـــة واللاهوت . وكان الناس شمال جبال الألب ، فيما عدا القشرة الرقيقة الخارجية فى سكان فرنسا وإنجلترا ، أفظاظاً غلاظاً ، إذا قورنوا بالإيطاليين ، بل كان هؤلاء يسمون الأولين متبربرين همجيين ؛ واتفق مع الإيطاليين فى هذا ، كثير من الفرنسيين الذين سحرت ألبابهم فتوحاتهم فى إيطاليا فى ميادين الحرب وآداب السلوك ، ولكن المتبربرين الهمجيين كانوا يتوقون إلى التمدن وارتقاء سلم الحضارة ؛ وحذا رجال البلاط وسيداته والشعراء والمفسدون فى الأرض من الفرنسيين حذو الإيطاليين ونهجوا نهجهم ؛ وسار الإنجليز الهوينا خلفهم ؛ وترجم كتاب كاستليونى « رجل البلاط » (١٥٢٨) إلى الفرنسية فى ١٥٣٧ ، وإلى الإنجليزية فى ١٥٦١ ، واختلفت الدوائر الأدبية

على تعريف الرجل المهذب ، ولقيت كتيبات آداب السلوك رواجاً كبيراً . ولقد ألف إرزم واحداً منها ، وأصبح الحديث فناً فى فرنسا ، كما كان فيما بعد فى حانة مرميد فى لندن (كان يجتمع فيها بن جونسون وشكسبير وغيرهما من الكتاب . فى عصر اليزابيث) ، وعبرت مباريات الأجوبة البارعة السريعة جبال الألب من إيطاليا حول الوقت الذى انتقل فيه كذلك فن المبارزة بالسيف . وكان الحديث أكثر صقلا وتهذيباً فى فرنسا عنه فى ألمانيا . وكان الألمان يسحقون الرجل بالفكاهة ، أما الفرنسيون فكانوا يخزونه فى ذكاء وفطنة . وكانت حرية الكلام وسيطاً أساسياً فى ذاك العصر .

ومنذ كان تحسين المظهر الخارجى أيسر من تهذيب النفس ، فإن الطبقات الصاعدة فى المدنيات الناشئة فى الشمال أولت ملابسها قسطاً أكبر من العناية . وارتدى عامة الناس ملابس بسيطة للغاية — كما نرى فى جماهير بروجل (مصور فلمنكى) : قبعات على شكل الفنجان ، وبلوزات فضفاضة ذوات أكمام منتفخة ، وسراويل (بنطلونات) ضيقة تصل إلى الأحذية المريحة ، ويتركز هذا التشكيل البشع على حقيبة قبيحة ، مزدانة بزخارف براقة ، تتدلى أمام انفراج ساقى الرجل . أما الرجال الموسرون فى ألمانيا فقد غلفوا أجسامهم الجبارة فى طيات كثيرة فضفاضة من القماش ، تعلوها قبعات عريضة تبدو فوق الرأس وكأنها فطيرة ذات مصاطب أو طبقات . أما نساء ألمانيا ، فالظاهر أنه كان محرماً عليهن أن يلبسن إلا زى مديرات النزل أو الطباخات . وفى إنجلترا أيضاً كانت ملابس الرجال أجمل وأكثر بهجة من ملابس النساء ، حتى جاءت الملكة اليزابيث فبزتهم بما ارتدته من أزياء لا يحصيها العد . وجرى هنرى الثامن شوطاً بعيداً فى الإسراف فى ملابسه ، وكان يجملها ويزينها بالألوان والحلى والأنسجة الثمينة . ويقول هولنشد إن دوق بكنجهام كان يرتدى — فى زواج الأمير آرثر من كاترين أوف أراجون — عباءة

من شغل الإبرة ، مغطاة بفراء السمور ، قدرت بنحو ١٥٠٠ جنيه (١٥٠٠٠٠ دولار؟) ، وحرمت القوانين على أى رجل دون رتبة فارس ، أن يقلد فخامة الملابس التى يرتديها من هم أعلى منه مكانة . وغطت الإنجليزيات أجسامهن بالملابس الضيقة من العنق إلى أخمص القدم ، ذات أكمام تصل إلى المعصم ، مع زركشة بالفراء على حروف الثياب ، وأحزمة مثبتة بحلى معدنية ، وقلادة أو مسبحة ، وكانت النساء بصفة عامة تلبس من المجوهرات أقل مما يلبس الرجال :

وفى عهد فرانسوا الأول الذى كان يقدر الشيء حق قدره ، فتحت النساء الفرنسيات الجزء الأعلى من ثيابهن وكشفن عن صدورهن المنتفخة ، وشققن أرديتهن إلى آخر فقرة من ظهورهن . وإذا لم ينتفخ الصدر الطبيعى إلى حد كاف ، وضعن عليه مشداً يجعله عاليا منتفخا[٧٢] ، وضيقت الملابس وأحكمت فيما تحت الثديين ، وضغطت على الخصر[٧٣] ، مع أكمام منتفخة ، وانتشرت من التنورة أسلاك من الخلف وعلى الحافة . واضطرتهن الأحذية العالية الكعوب إلى المشية المتبخترة الرشيقة . وكان يباح للمرأة ذات المكانة العالية — وليس لغيرها — أن يكون لثوبها ذيل ، وكلما ارتفع قدرها زاد طول الذيل . وقد يطول الذيل ، إذا سمحت مرتبة الشرف ، إلى سبع ياردات ، وكان يمشى وراء السيدة وصيفة أو خادم ليمسك به ويرفعه عن الأرض ، وفى طراز آخر الأزياء قد تغطى السيدة رقبتها بطوق أحكم شده بأسلاك ، وعذب الرجال أنفسهم بشيء غريب مماثل فى المناسبات الرسمية ، وفى ١٥٣٥ لحظ سرفيتس « أنه لنساء أسبانيا عادة قد يظن فى فرنسا أنها همجية ، تلك هى أنهن كن يثقبن آذانهن ويعلقن فيها أقراطا ذهبية غالباً ما تكون مرصعة بالأحجار الكريمة »[٧٤] . وما جاءت سنة ١٥٥٠ حتى كانت نساء فرنسا تلبس الأقراط ، بل حتى الرجال كذلك[٧٥] . واستمرت الجواهر والحلى

محتفظة بسلطانها منذ زمن سحيق . وارتدى الرجال فى فرنسا قمصانا من الحرير مع صدارات من القطيفة ، وحشوا أكتافهم ، وكسوا أرجلهم بسراويل قصيرة ضيقة ، وحافظوا على رجولتهم بحقيبة منضدة بالأشرطة أو الجواهر أحيانا . وعلى النقيض من عادات القرن الخامس عشر قصروا شعر الرأس وأرخوا لحاهم . أما النساء فقد احتفظن بشعرهن فى تصفيفات متنوعة لا تشجع على وصفها . فكان مضفراً معقوصاً ملفوفاً فى شباك ، مليئاً بالضفائر العارية ، مزداناً بالأزهار ، براقاً بالجواهر ، مضمخا بالزيوت العطرية ، مصبوغا ليتمشى مع الأناقة وأسلوب العصر ، ومرفوعاً على شكل أبراج أو أهرام فوق الرأس ؛ وكان من غير الممكن أن تستغنى السيدة الأنيقة عن الحلاق فى هذا الزمان ، فإن تقدم العمر بدا آنذاك قدراً محتوما أسوأ من الموت .

وإلى أى حد كانت الأجسام نظيفة تحت هذه اللفائف والزخارف ؟ لقد تحدث كتاب من القرن السادس عشر عنوانه « مقدمة للسيدات الشابات » عن « نساء لم يعنين قط بنظافة أجسامهن ، اللهم إلا الأجزاء التى يمكن أن تقع عليها العين . . . أما ماتحت قمصانهن الكتانية فقد بقى قذراً »[٧٦] . وثمة مثل ساخر يقول بأن العاهرات هن الوحيدات اللائى غسلن أكثر من وجوههن وأيديهن[٧٧] . وربما ازدادت النظافة بازدياد الفسق والفجور . فقد كشفت النساء من أجسامهن عن أجزاء أكثر من ذى قبل ، وجعلنها نهباً لأنظار الكثير من الناس . ومن ثم اتسع نطاق النظافة ؛ وأصبحت آنذاك كثرة الاستحمام ، مع تفضيل الماء المعطر ، وخاصة فى فرنسا ، جزءاً من العادات الطيبة ؛ وقل عدد الحمامات العامة بتضاعف عدد الحمامات الخاصة ، ولم تكن هذه عادة مزودة بالمياه الجارية ، بل اعتمد فيها على السلطانية (الكوز) والحوض . وظلت شائعـــة مستحبة فى القرن

السادس عشر ، حمامات البخار التي كانت قد جاءت إلى أوربا الغربية بعودة الصليبيين إليها فى القرن الثالث عشر .

وفى البلاد البروتستانتية حل البيت تقريبا محل الكنيسة ، كمركز العبادة والصلوات . وأدى الوالد مهمة الكاهن فى الصلوات اليومية وتلاوة الإنجيل والترانيم ، وعلمت الأم أبناءها مبادئ العقيدة الدينية . وفى الطبقات المتوسطة سارت الرفاهية جنبا إلى جنب مع التقوى والتدين . فهذا هو العصر الذى تطورت فيه المنضدة ذات الحوامل والألواح الخشبية الملتحمة بعضها ببعض إلى وحدة ذات أرجل متينة ، وتطور المقعد الخشبي والوسائد إلى كرسى مريح « منجد » وسرير منقوش ذى أربعة قوائم ، فوقه ظلة — وأصبح كل أولئك رمزا للاستقرار الأدبى واليسار المالى . وصنع الأثاث والأطباق والمدافئ وأدوات المطبخ لتحتمل بل وتحتفظ ببريقها لعدة أجيال . وحلت الأطباق المعدنية محل الأطباق الخشبية ، كما حلت الملاعق المصنوعة من القصدير أو الفضة محل تلك المصنوعة من الخشب . وكانت البيوت واسعة فسيحة لأن الأسرات كانت كبيرة ، لأن النساء كن يلدن فى كل عام تقريبا ، ولكن دون جدوى ، لأن نسبة الوفيات بين الأطفال كانت عالية . وكان جون كولت أكبر اثنين وعشرين طفلا . وحين بلغ سن الثانية والثلاثين ، كان كل إخوته قد ماتوا . وكان لأنطون كوبرجر صاحب المطبعة فى نورمبرج — خمسة وعشرون طفلا ، وقد عمر هو بعد موت اثنى عشر منهم ، وكان ديرر واحداً من ثمانية عشر طفلا ، يبدو أن ثلاثة منهم فقط بلغوا سن الرشد(٧٨) . واستكمالا للأسرة كانت هناك حيوانات منزلية مدللة كثيرة قدر كثرة عدد الأولاد تقريبا . وكانت الببغاوات قد جاءت من جزر الهند الغربية . وكانت القردة التى أحضرت من الهند أليفة أثيرة فى البيت(٧٩) . وكان هناك كثير من الكتب التى تعلم النساء والأطفال طرق العناية بالكلاب والطيور وتربيتها .

وكانت وجبات الطعام هائلة . ولم تكن الخضروات مستساغة ، بل كان الناس يزدرونها ، ثم أقبلوا عليها شيئاً فشيئاً . وشاع آنذاك أكل الكرنب والجزر والخس والراوند والبطاطس والفول والفريز . وكانت الأكلة الرئيسية فى الساعة الحادية عشرة صباحاً وتأخر العشاء إلى السابعة مساء ، وكلما سمت الطبقة تأخرت ساعة تناول العشاء . وكانت الجعة والنبيذ هما المشروبان الرئيسيان فى كل وجبات الطعام حتى الإفطار . وكان من طرق توماس مور إلى الشهرة أنه تناول الماء بديلا عنهما . وحوالى ١٥٥٠ استحضر الأسبان الشكولاته (الكاكاو) من المكسيك ، ولم يكن البن قد تقاطر بعد من بلاد العرب إلى أوربا الغربية . وفى ١٥١٢ حددت أسرة دوق نورثمبرلاند ربع جالون من الجعة لكل فرد فيها فى كل وجبة طعام حتى للأولاد فى سن الثامنة . وكان استهلاك الجعة فى كوفنترى فى القرن السادس عشر ربع جالون يومياً لكل رجــل وامرأة وولد[٨٠] . وقد اشتهرت مصانع الجعة فى ميونيخ منذ القرن الرابع عشر[٨١] . وكان شرب الخمر شائعاً فى انجلترا حتى جاءت « مارى اللعينة » (مارى تيودور ١٥١٦ — ١٥٥٨) فاستهجنته . ولكنه ظل مألوفاً فى ألمانيا ، وتناول الفرنسيون الخمر فى اتزان أكثر ، لأن الجو عندهم لم يكن بارداً إلى هذا الحد .

وعلى الرغم من الفقر والظلم ، استمر الناس يتمتعون بكثير من نعم الحياة ، وحتى الفقراء أنفسهم كان لهم حدائق ، وأصبحت زهرة التيوليب هواية وطنية فى هولندة ، وكان قد أحضرها لأول مرة حوالى ١٥٥٠ بوسبك سفير الإمبراطور فى القسطنطينية . وكانت البيوت الريفية نمطاً سارّاً فى انجلترا وفرنسا . وظل القرويون يحتفلون بأعيادهم الموسمية فى عيد الربيع (أول مايو) ، عيــد الحصاد ، عيد كل القديسين ، وغيرها كثير ، واحتفل الملوك بعيد الربيع وتوجوا أنفسهم بأكاليل

الزهور ، وكان فيما يتسلى به سراة القوم أحياناً مهرجانات مثيرة للفقراء ، من ذلك عندما دخل هنرى الثامن ليون فى احتفال مهيب فى ١٥٤٨ ، وربما كان جمهور الشعب يشهد على مسافة معقولة ، اللوردات فى مباريات السيوف — وقد بطلت هذه الرياضة بعد موت هنرى الثانى . وأصبحت المواكب الدينية أكثر وثنية ، عند اقتراب عهد هنرى الثامن من عصر إليزابث ، وفى القارة أباحت الأخلاقيات المتساهلة للنساء العرايا أن يمثلن بعض الشخصيات التاريخية أو الأسطورية ، واعترف ديرر بأنه هو نفسه افتتن بمثل هذا العرض فى أنتورب ١٥٢١ [٨٢] .

وكانت هناك الألعاب ، وقد أفرد رابليه فصلا لتسجيلها ، فعلية أو خيالية . وصور بروجل نحو مائة منها فى إحدى لوحاته . وكان فى تعذيب الدببة ومصارعة الثيران ومصارعة الديكة تسلية للجمهور ، وروضت كرة القدم ولعبة الكرات الخشبية والملاكمة والمصارعة شباب العامة ، وطردت عنهم الأرواح الشريرة ، وكان فى باريس وحدها ، للطبقة الأرستقراطية ، فيها ١٥٠٢ من الملاعب للتنس ، فى القرن السادس عشر [٨٣] . ومارست كل الطبقات الصيد ، ولعبت الميسر ولعبت بعض السيدات النرد ، ولعب بعض الأساقفة الورق بنقود [٨٤] . وتجول الممثلون المهرجون والبهلوانات واللاعبون فى الريف ، وعرضوا أفانينهم وألعابهم على اللوردات نظير جعل يتقاضونه . وفى داخل البيوت لعب الناس الورق والشطرنج والنرد وعشرات من الألعاب غيرها ، وكان الرقص أحب أنواع التسلية . ويقول رابليه « وذهب الجميع بعد العشاء إلى الأيكة ، الممتلئة بالصفصاف ، يلاحق بعضهم بعضاً ، وهناك على العشب الأخضر ، على الأنغام الشجية من المزمار وموسيقى القرب رقص الجميع برشاقة ، فكانت رياضة لطيفة سماوية يلذ للإنسان مشاهدتها [٨٥] » . وفى يوم عيد الربيع فى إنجلترا كان أهل القرية يتجمعون حول « عمود مايو »

المزين بالأزهار والأشرطة بشكل بهيج ، ورقصوا رقصاتهم الساذجة الممتلئة حيوية ، ويبدو أنهم بعد ذلك راحوا يقبلون ويعانقون بعضهم بعضاً مما يذكر بعيد فلورا إلهة الزهور عند الرومان . وكانت ألعاب عيد مايو في عهد هنري الثامن تشمل « الرقص العربي » الذي كان قد جاء من عرب أسبانيا عن طريق الرقصة الإسبانية « فندنجو » بالصنوج . ورقص الطلبة في أكسفورد وكمبردج في مرج بالغ الصخب ، إلى درجة أنه كان لا بد من أن يحرم وليم ويكهام هذا العبث بالقرب من تماثيل الكنيسة : وأقر لوثر الرقص ، واستساغ بنوع خاص « الرقصة التربيعية ، مع الانحناءات الودية والعناق والتمايل الرقيق ، بين المشتركين في الحلبة »(٨٦) ورقص ملانكتون الوقور . وفي ليبزج في القرن السادس عشر أقام الآباء في المدينة بانتظام حفلات راقصة حتى يتمكن الطلبة من التعرف على « أشرف وأجمل بنات ذوي المكانة وأعضاء السناتو والمواطنين »(٨٧) . وكثيراً ما ترأس شارل السادس حفلة الرقص في البلاط الفرنسي : واستقدمت كاترين دي مديتشي إلى فرنسا راقصات إيطاليات ، وهناك في أخريات أيام الملكة الأم التعسة ظهرت رقصات أرستقراطية جديدة : وقال جان تابورو ، في كتاب من أقدم الكتب عن فن من أقدم الفنون : « إن الناس كانوا يمارسون الرقص ليروا هل يتمتع الحبيبان بصحة جيدة ، وهل يناسب كل منهما الآخر ، وفي نهاية الرقص كان يسمح للشاب أن يقبل خطيبته ليستوثق من أن رائحة أنفاسها طيبة . . . . وبهذه الطريقة يصبح الرقص ضرورياً لبساس المجتمع سياسة حسنة(٨٨) : وتطورت الموسيقى بفضل مصاحبة الرقص ، من الأشكال الصوتية وجوقة المنشدين إلى استخدام الآلات وتأليف الألحان ، مما جعلها فناً بارزاً ذا شأن في عصرنا :

الفصل الرابع والثلاثون

الموســيقى

١٣٠٠ — ١٥٦٤

١ — الآلات

إن شعبية الموسيقى فى تلك القرون لتصحح وتلطف من النغمة الكئيبة الحزينة التى يميل التاريخ إلى أن يضفيها على تلك الحقبة ويقرنها بها . وإنا لنسمع الناس ، من آن لآن ، يغنون فى غمرة الثورة الدينية وما اتسمت به من إثارة ومرارة : وكتب صاحب المطبعة العاطفى اتيين دوليه « إنى لا أعبأ بشىء من ملذات الطعام والألعاب ، والحب ، ولكن الموسيقى وحدها ... تأسرنى وتأخذ بمجامع قلبى ، وتذيبنى فى نشوتها »[1] . ومن النغمات الصافية المنبعثة من صوت إحدى الآنسات أو مزمار جيد ، إلى فن مزج الألحان المتعددة الأصوات عند دبريه Deprés أو بالسترينا ، عوضت كل الأمم وكل الطبقات بالموسيقى عن الروح التجارية وعن اللاهوت فى ذاك العصر . ولم يغن كل فرد فحسب ، ولكن فرانتشيسكو لانديتو شكا من أن كل فرد لحن وألف[2] . وبين الأغانى الشعبية البهيجة أو الحزينة فى القرية إلى القداسات الكبيرة المهيبة فى الكنيسة ، ظهرت مئات الأشكال الموسيقية التى استخدمت إيقاعاتها فى الرقص والحفلات والولائم والمغازلات والبلاط والمواكب والمهرجانات والصلوات . لقد غنى العالم بأسره .

وكان يواكب تجار أنتورب كل يوم إلى السوق المالية فرقة موسيقية ، ودرس الملوك الموسيقى ، لا باعتبارها امتيازاً لطيفاً أو ميكانيكياً ، بل لأنها

سمة المدنية ومنبع من منابعها . وتحمس ألفونسو العاشر ملك أسبانيا وثابر على جمع الأغانى للسيدة العذراء ، وتودد جيمس الرابع ملك اسكتلنده إلى مارجريت تيودور بموترة المفاتيح (آلة موسيقية تعتبر الأصل الذى نطور عنه البيانو Clavichord) والمزهر (العود) . واصطحب شارل الثامن ملك فرنسا معه فرقة المنشدين الملكية فى حملاته على إيطاليا . وغنى شارل الثانى عشر بأعلى صوته مع فرقة المنشدين فى البلاط ؛ وألف ليو العاشر بعض الأغانى الفرنسية[٣] . أما هنرى الثامن وفرانسوا الأول فقد تودد كل منهما إلى الآخر وتحداه باستخدام فرق المنشدين المتنافسة فى ساحة Cloth of Gold . ووصف لويس ميلان البرتغال فى ١٥٤٠ بأنها « بحر حقيقى من الموسيقى »[٤] . وكان لبلاط ماتياس كورفينوس فى بودا فرقة منشدين قدروا أنها تعادل فرقة البابا ، وكان فى كراكاو على عهد سجسمند الثانى مدرسة عظيمة للموسيقى ، وكانت ألمانيا تعج بالغناء عندما كان لوثر شاباً ؛ كتب الإسكندر أجريكولا ١٤٨٤ يقول : « إن عندنا هنا فى هيدلبرج مغنين يرأسهم رجل يستطيع أن يلحن لثمانية أصوات أو اثنى عشر صوتاً »[٥] . وفى ماينز ونورمبرج وأجزبورج وغيرها من المدن ظل « راعى الشعر والموسيقى » يزين الأغانى الشعبية والقطع الإنجيلية بأبهة المتحذلقين وزخارف فن مزج الألحان ، وربما كانت الأغانى الشعبية الألمانية أفضل مثيلاتها فى أوربا . وكانت الموسيقى فى كل مكان مهماز التقى وشرك الحب :

وعلى الرغم من أن كل الموسيقى تقريباً كانت فى هذا العصر صوتية ، فإن الآلات المصاحبة كانت متنوعة قدر تنوعها فى الفرق الموسيقية الحديثة . وكانت هناك آلات وترية مثل الشنطير (آلة موسيقية قديمة تشبه القانون) ، والقيثار ، والقانون ، والشوم (آلة موسيقية خشبية قديمة) ، والعود ، والفيول (وهو نوع من الكمان) . ثم آلات النفخ مثل الناى ، والمزمار ،

والزمخر (مزمار ذو أنبوبة خشبية مز دوجةوفم معدنى ملتو) ، والبوق ، والمترددة (الترومبون) والبوق (شكل قديم آخر) ومزمار القرب ، ثم آلات النقر مثل الطبل والجرس ، والمصفقة والمخشخشة والصنوج بأنواعها ، ثم الآلات ذات المفاتيح مثل الأرغن ، وموترة المفاتيح ، والبيان النميثارى ، والسبينت (تشبه البيان) ، والعذراوية (شبيهة ببيان صغير ليس له قوائم) ، وكانت هناك أنواع أخرى كثيرة ، وكان للعديد منها متنوعات فاتنة شتى اختلفت باختلاف الزمان والمكان ، وكان فى كل بيت مثقف واحدة أو أكثر من الآلات الموسيقية . وكان فى بعض البيوت خزائن خاصة لحفظها : وكثيراً ما كانت هذه الآلات تحفاً فنية منقوشة نقشاً محببا يرضى الخيال والذوق ، تتوارثها الأسرات جيلا بعد جيل بوصفها ذخائر وتذكارات ثمينة ؛ وكانت بعض الأراغين مصنوعة بشكل بارع محكم ، قدر البراعة والإحكام فى واجهات الكاتدرائيات القوطية . وخلد ذكر الرجال الذين صنعوا الأراغين لبعض الأسرات الحاكمة الألمانية فى نورمبرج لمدة قرن من الزمان ؛ وكان الأرغن هو الآلة الموسيقية الرئيسية المستخدمة فى الكنيسة ، وإن لم تكن الوحيدة ، بل كان هناك أيضـــا المزمار ، وموسيقى القرب والطبول والمترددة (الترومبون) ، بل حتى الطبلة النقارية ، وكلها تدعو بأدواتها المتنافرة إلى الصلاة والعبادة .

وكان العود هو الآلة المفضلة لمصاحبة مغن واحد ، وهو من أصل آسيوى ، شأنه فى ذلك شأن كل الآلات الوترية ، جاء مع المغاربة إلى أسبانيا ، وهناك ، مثل الفهيولا ، (نوع من الكمان) ارتفع شأنه حتى صار الآلة الوحيدة المستعملة ، التى ألفت من أجلها أقدم موسيقى آلية خالصة معروفة . وصنع جسمه عادة من الخشب والعاج ، على شكل الكمثرى ، وزود تجويفه بثقوب على شكل وردة ، وكان له ستة ،

وفى بعض الأحيان اثنا عشر زوجا من الأوتار تنقر بواسطة الأصابع ، وكان عنقه مقسما بعتبات من النحاس إلى سلم مدرج ، وملواه منحرف إلى الخلف من العنق . وإذا أمسكت غادة حسناء بالعود فى حضنها وداعبت أوتاره بأناملها وأضافت صوتها إلى أنغامه لاستطاع كيوبيد أن يوفر سهماً . ومهما يكن من أمر فقد كان من العسير الاحتفاظ فى العود بدرجة النغم الصحيحة لأن استمرار شد الأوتار يسبب التواءها وتشويهها . وقال أحد الظرفاء إن عازف عود عجوز بلغ من العمر ثمانين عاماً ، قضى منها ستين عاماً فى ضبط النغم فى عوده(٦) .

واختلف الكمان (الفيول) عن العود فى امتداد أوتاره على مشط ، وأن العزف عليه بواسطة قوس ، ولكن القاعدة الأساسية واحدة فيهما — ذلك أن ذبذبات الشد ترتطم بالأوتار فوق صندوق ذى ثقوب لتعميق الصوت . وصنعت الفيول على ثلاثة أحجام : الكبير وهو باس فيولا داجامبا » ، وكانوا يمسكون به بين الأرجل مثل البديل الحديث له — الفيولونسيل Violoncello ، والصغير وهو الفيول العالى النغم (فيولا دابراكسيو) ، ويمسكون به على الذراع . وأخيراً الفيول المثاث ، وفى القرن السادس عشر تطور النوع الثانى (فيولادابراكسيو) إلى الكمان . وفى القرن الثامن عشر بطل استعمال الفيولا .

وكان الاختراع الأوربى الوحيد فى الآلات الموسيقية هو لوحة المفاتيح التى تطرق بواسطتها الأوتار بطريق غير مباشر ، بدلا من نقرها أو حنيها مباشرة ، وأقدم الأشكال المعروفة ، وهى موترة المفاتيح Clavichord ظهرت لأول مرة فى القرن الثانى عشر ، وقد عمرت حتى عدلها جوهان سباستيان باخ : وأقدم نموذج باق لها (١٥٣٧) محفوظ فى متحف المتروبوليتان فى نيويورك ، وصنع فى القرن الخامس عشر نوع أقوى هو

البيان القيثارى harpsichord ، وقد مكن من تعديل الأنغام باختلافات الضغط ، وأضيف فى بعض الأحيان لوحة ثانية للمفاتيح ، لتوسيع سلم النغم . وساعدت الوقفات والتفرقات على إبداع معجزات الصوت ، وكان الأسبينت Spinet والعذراوية Virginal — والأول إيطالى والثانية شبه إنجليزية شكلين مختلفين من البيان القيثارى ، وكانت الآلات ذات المفاتيح مثل الفيول والعود ، تحظى بأعظم التقدير لجمالها ونغماتها معاً . وكانت تشكل عنصراً جميلا من عناصر البهجة والزينة فى بيوت الأغنياء .

ولما تقدمت الآلات من حيث مدى النغم ونوعيته ، ومن حيث تعقد عملها ، تطلب النجاح فى العزف عليها المزيد من المران والمهارة ، وازداد عدد الجمهور فى الحفلات التى يكون العزف فيها على آلة واحدة أو أكثر ، دون أن يكون فيها غناء ، وبرز عازفون على الأرغن والعود . وارتحل كونراد بومان Paumann (المتوفى ١٤٧٣) عازف الأرغن الضرير فى نورمبرج من بلاط إلى بلاط ، وأقام حفلات موسيقية ، استحق لبراعته وامتيازه فيها لقب فارس . وشجعت أمثال هذه التطورات على تأليف الموسيقى من أجل الآلات وحدها . ومن الواضح حتى القرن الخامس عشر ، أن كل الموسيقى الآلية تقريباً كان قد قصد بها أن تصاحب الغناء أو الرقص ، ولكن هناك فى هذا القرن عدة لوحات تعرض بعض الموسيقيين يعزفون دون أن يرى فيها أثر لغناء أو رقص ، وأقدم ما بقى من الموسيقى للآلات وحدها هى « جاميساندى Gamisandj » (١٤٥٢) ، وهى لكنراد بومان ، وقد ألفت فى الأصل لتوجيه العزف على الأرغن ، ولكنها شملت أيضاً عدداً من القطع للعزف المنفرد ، وأنقص تطبيق أوتافيانو دى بتروسكى للحروف المعدنية المتحركة فى طبع الموسيقى (١٥٠١) تكاليف نشر تآليف الموسيقى الآلية وغيرها ، واقتصرت الموسيقى الموضوعة للرقص على عروض مستقلة ، ومن ثم كان تأثير أشكال الرقصات على الموسيقى الآلية . وأدت ألحان « الحركات »

المؤلفة لسلسلة متعاقبة من الرقصات إلى ظهور السيمفونية والموسيقى الرباعية ، التي احتفظت أجزاؤها أحياناً بأسماء الرقصات ، وفضل العود والفيول والأرغن والبيان القيثارى للعزف المنفرد أو عزف الأوركستر ، وتمتع ألبرتو داريبا فى بلاط فرنسوا الأول وهنرى الثانى بشهرة عظيمة كعازف على العود ، إلى حد أنه عندما توفى أنشد شعراء فرنسا التراتيم الحزينة على قبره .

٢ ــ سيطرة الموسيقى الفلمنكية

١٤٣٠ — ١٥٩٠

كانت الأغانى والرقصات الشعبية هى المعين الذى لا ينضب الذى اشتقت منه أشكال الموسيقى غير الكنسية أصولها وصيغها وموضوعاتها الرئيسية ، حتى القداسات ، ربما اشتقت منها بعض الأغانى القصيرة مثل « وداعاً يا أحبائى » ، وتنوعت الأغانى الفرنسية من الأغانى التوقيعية للمغنين فى الشوارع ، وأغانى الشعراء الغنائيين البسيطة (التروبادور) إلى أغانى غليوم دى ماشو وجوسكوين دبريه المعقدة المتعددة الأصوات .

وكان ماشو (١٣٠٠ — ١٣٧٧) سيد ذلك « الفن الجديد » الذى كان قد بسطه وشرحه فيليب دى فيترى فى ١٣٢٥ — وهو عبارة عن موسيقى استخدمت الإيقاع الثنائى بالإضافة إلى الإيقاع الثلاثى ، وهو ما أقره « الفن القديم » والكنيسة . وكان ماشو شاعراً وعالماً وموسيقياً وكاهناً فى كاتدرائية ريمس ، وربما كان كذلك رجلا مماوءاً حماسة وغيرة ، لأنه كتب بعض قصائد الحب الغنائية التى لم تهدأ حرارتها بعد . وبرع فى اثنى عشر شكلا موسيقياً من الأغانى الراقصة والعاطفية ، والقصائد الغنائية ذات اللازمة المتكررة والقصائد الغزلية ، والقصائد الدينية ، وموسيقى القداس ، ويعزى إليه أقدم قداس متعدد الأصوات ــ لحنه رجل واحد . وأسهم ، ولو أنه من

رجال الكنيسة ، فى حركة صبغ الموسيقى المتعددة الأصوات بالصبغة العلمانية وإخراجها من حيز إيقاع القصائد الدينية والقداس إلى الإيقاع الأكثر انطلاقاً ومرونة فى موسيقى الأغانى العلمانية .

وفى تلك القرون كان الإنجليز موسيقيين ، ولكنهم لم ينافسوا الإيطاليين فى اتساق الأصوات فى اللحن (ومن ذا الذى ينافسهم ؟) ، ولا الفلمنكيين فى تعدد الأصوات ، ولكن أغانيهم ، بين الحين والحين ، بلغت من العذرية والرقة حداً لا يضارعهم فيه إلا أعمق الأغانى الفرنسية . وقوبل المغنون الإنجليز فى مجاس كنستانس بالتهليل والهتاف ، وفى هذا الجيل ألف هنرى الخامس بطل أجنكورت ، قداساً لا يزال يحتفظ بعظمته وقداسته . وكانت المقطوعات التى ألفها جون دنستابل (١٣٧٠ — ١٤٥٣) تعزف فى كل البقاع من اسكتلانده إلى رومه . ولعبت دورا فى تشكيل أسلوب المدرسة الفلمنكية .

وكما كانت الفلاندر قد استهلت فن التصوير فى القرن الخامس عشر ، كذلك شهدت الموسيقى فيها عصراً من أبهى وأعظم عصورها ، فى وسط النبلاء والمواطنين الأثرياء المحبين للفنون . وكتب جوهانس فروير Johannes Verwere حوالى ١٤٩٠ يقول : « عندنا اليوم — إلى جانب العدد الكبير من مشاهير المغنيين ، يظهر إلى الوجود ، عدد لا حصر له تقريباً ، من الملحنين الذين تتميز أعمالهم بعذوبة الصوت ، وما سمعت أو نظرت إلى تآليفهم إلا ابتهج قلبى(٧) » . وربما وضع المعاصرون دوفاى وأوكيجم ودبريه فى مرتبة سواء من سلم العبقرية والخير ، مع جان فان إيك وكلاو سلوتر وروجيبر فان درويدن ، وهنا فى تعدد الأصوات فى المدرسة الفلمنكية ، عاشت أوربا الغربية آخر طور من أطوار الروح القوطية فى الفن : الورع الدينى الذى لطفه المرح الدنيوى والأشكال المتينة فى قاعدتها وتركيبها ،

الغضة الرقيقة فى تطويرها وزخرفتها . وحتى إيطاليا التى كانت معادية للفن القوطى ، انضمت إلى أوربا الغربية فى الاعتراف بتفوق الموسيقى الفلمنكية وسموها ، وفى الاسترشاد بالفلاندرز فى تحسين موسيقى فرق المرتلين الأسقفية ، وفرق بلاط الأمراء . وألف الإمبراطور مكسيمليان الأول ، وقد سحرته موسيقى بروكسل ، فرقة للمرتلين فى فيينا ، على نسق الفرق الفلمنكية ، وأخذ شارل الخامس موسيقيين فلمنكيين إلى أسبانيا ، وأخذ الأرشيدوق فرديناند نفرا منهم إلى النمسا ، وأخذ كريستيان الثانى مجموعة أخرى منهم إلى الدنمرك . وقال كافللى البندقى « إن منبع الموسيقى فى فى الأراضى المنخفضة »(٨) . وبهذه السيطرة الفلمنكية اجتازت الموسيقى الاحترافية الحدود الضيقة التى وضعتها القومية فى ذاك العصر .

وقاد الطريق غليوم دوفاى ، الذى ولد فى هينوت Hainaut (١٣٩٩) وتدرب كتلميذ منشد فى كاتدرائية كمبراى ، وسما بفرقتها إلى مراتب الشهرة العالمية : وكانت القداسات التى أنشدها هناك ، تنشدها كل الأوساط الموسيقية فى جميع أنحاء العـالم المسيحى اللاتينى . وقد تبدو الألحان الباقية منها ثقيلة بطيئة فى الآذان المرهفة الإحساس بخفة الحياة الحديثة وسرعتها ، ولكنها ربما كانت صالحة فى الكاتدرائيات الضخمة وفرق المنشدين البابوية المهيبة . وهناك أغنية أكثر التئاماً مع ذوقنا ، وهى أغنية متعددة الأصوات تنساب أنغامها الحزينة انسياباً رقيقاً « ولى النهار » The Day is going to sleep وقد نتخيل فرقة بملابسها الرسمية تغنى مثل هذه الأغنية فى الأروقة القوطية فى كمبراى ، أو إيبر أو بروكسل ، أو بروجز أو غنت أو ديجون ، ونحس أن العمارة والتصوير والملابس والموسيقى وآداب السلوك فى ذاك العصر الحماسى الزاهى النابض بالحياة ، شكلت جميعها كلا متراكبا فنيا متسقا ، على حين أنها جميعها متنوعات تنتشر فيها فكرة رئيسية واحدة .

وتطورت أساليب درفاى وأذاعها فى كل أنحاء أوربا أعظم معلمى الموسيقى أثراً ، وربما فى أى عصر من العصور ، جوهانس أوكيجم ، الذى ولد فى فلاندرز (١٤٣٠) ، وقضى معظم سنى حياته يقدم الموسيقى ويعلمها فى بلاط فرنسا . وكان يهيم شغفاً بمقطوعة اسمها « canon » وهى شكل من أشكال الفوجة ، يشكل فيه الصوت (المغنى) الأول الكلمات واللحن ، ويتلوه بعض الفواصل ، ثم يكرره الصوت الثـــانى ، ويتلوه فاصل ، ثم الصوت الثالث وهكذا ، فى طباق مناسب ، تحدى تعقيده المجهد المغنين ، وسحر الملحنين ، وقد هرع إليه هؤلاء وأولئك من كل أقطار العالم الكاثوليكى لينهلوا من فيض مهارته الفنية وينقلوها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، وكتب مؤرخ قديم : « لقد نقل عن طريق تلاميذه إلى جميع الأقطار فن تعدد الأصوات الطباقى وشكل الفوجه سالف الذكر Canon وينبغى أن يعتبر أوكيجم — لأن ذلك يمكن إثباته بالتسلسل « الأسلوبى » — يعتبر مؤسس كل المدارس ابتداء من مدرسته إلى مدارس العصر الحالى[٩] . ولكن مذ كتب هذا فى ١٨٣٣ ، فإن أوكيجم لا يعتبر مسئولا عن موسيقى القرن العشرين ، وعند وفاته ١٤٩٥ ألف موسيقيو أوربا مقطوعات حزينة تخليداً لذكراه ، وكتب له إرزم مرثية . إن الأسماء ، حتى أسماء الخالدين ، مكتوبة على الماء :

وأصبح تلاميذ أوكيجم زعماء الموسيقى فى الجيل التالى ، وقد قدم جوسكين دبريه من هينوت إلى باريس ، وتتلمذ لعدة سنوات على أوكيجم ، ثم اشتغل « رئيس فرقة الكنيسة » فى فلورنسه وميلان وفيرارا ، وكتب للدوق أركول الأول مقطوعة اسمها Miserere سرعان ما دوى صيتها فى كل أوربا الغربية ، وبعد سنوات ست قضاها فى فرقة كنيسة سستين عاد إلى باريس (١٤٩٤) ليعمل رئيساً لفرقة لويس الثانى عشر . ومن أنبل أعماله « الحزن على جوهانس أوكيجم » وهى رثاء لأستاذه المتوفى ، وقد حذا

حذوه لبعض الوقت فى تلحين القداسات والقصائد الدينية فى شكل الفوجه التى أسلفنا ذكرها ، وهو يجمع الصوت على الصوت ، فيما يشبه المسائل الرياضية من حيث التتابع والاتساق . فلما اكتملت مهارته ، واستتبت له السيادة فى « فن الموسيقى » بلا منازع ، ترك التقنية ، وكتب قصائد وتراتيل دينية وأغنيات علمانية فى طراز من الألحان أكثر بساطة ، أعقبت فيه الموسيقى الكلمات وزينتها ، بدلا من إرهاقها ، فى فوجه سريعة التغير ، أو بدلا من مد المقطع إلى أغنية ، ولما قضى المعلم وتلميذه نحبهما ، أصبح من العادة أن يسمى أوكيجم « دوناتللو » ، وأن يسمى دبريه « ميكلأنجو » الفن الموسيقى .

ورعى البلاط الفرنسى الموسيقى وشجعها باعتبارها زهرة الثروة والقوة ، ولقد صورت سجادة قديمة يرجع تاريخها إلى حوالى سنة ١٥٠٠ ، وهى الآن محفوظة فى متحف جوبلين فى باريس ، أربعا من السيدات وثلاثة من الشبان وراهباً أصلع ، مجتمعين فى بستان حول نافورة ، وكان أحد الصبية يعزف على العود ، وإحدى البنات على القيثار ، وكانت سيدة وقورة تعزف على أرغن سهل الحمل ، ولقد قصد الشعراء الفرنسيون أن تكون قصائدهم صالحة للغناء . وخصصت « أكاديمية القصر » لإحكام الاتحاد بين الموسيقى والشعر ، وحتى فى عصرنا هذا ، لا يبدو الواحد منهما كاملا بدون الآخر ، وتفوق كليمنت جانكين — وهو أحد تلاميذ دبريه — فى الأغانى الوصفية . ولا تزال أغنيته « أغنية القُبَّرة » (١٥٢١) تصدح فوق عدة قارات .

وعكست الموسيقى الأسبانية تقوى الشعب وبسالته ، لقد تراوح هذا الفن — بعد تهجينه وإخصابه بما دخل عليه من مؤثرات عربية وإيطالية وبروفانسية وفرنسية وفلمنكية — تراوح بين القصائد الأندلسية الحزينة التى ينشدها صوت واحد (المونودية) ، والقداسات العظيمة المتعددة الأصوات بالأسلوب الفلمنكى . وسما واحد من أعظم ملحنى القرن السادس عشر ،

هو كريستوبال مورال بفن تعدد الأصوات إلى درجة عالية ، ونقل فنه إلى تلميذه الأكثر شهرة توماس لويس دى فكتوريا . وسار كل في اتجاه مضاد ، فأنتج التراث العربى الألحان الصالحة للعود ، ولحن لويس دى ميلان ومجول دى فونللانا Miguel de Fuenllana ، للكمان ، وعزف عليها أغنيات زاحمت الأغانى الألمانية فى مداها وقوتها .

واستمر الموسيقيون الفلمنكيون يقتحمون إيطاليا حتى ظهر بالسترينا ؛ واستقدم لورنزو دى مديتشى إلى فلورنسه هنريخ إيزاك بعد أن استوعب فن الطباق الموسيقى فى الفلاندرز ، ليعلم أبناء العظماء ، ومكث هناك أربع سنوات ، وألف موسيقى لأغانى لورنزو . ولما أقض مضجعه الغزو الفرنسى لإيطاليا ، انتقل إلى خدمة مكسيمليان الأول فى أنسبروك ، حيث ساهم فى تشكيل الأغنية الألمانية ، وعاد إلى إيطاليا فى عام ١٥٠٢ ، وخصص له الإمبراطور ليو العاشر تلميذه السابق معاشاً ، ووضعت قداساته وقصائده الدينية وأغانيه فى مرتبة أعظم موسيقى العصر ، وعلى الأخص ثمان وخمسين مقطوعة ذات أربعة أجزاء ، لاحتفالات القداس طوال السنة الدينية .

وسما أورلاندو دى لاسو بالمدرسة الفامنكية إلى الذروة ، وضرب بتوفيقه فى مهنته وحياته أروع الأمثال ، لاتساع مجال الموسيقيين فى عصر النهضة وارتفاع مستواهم الاجتماعى ؛ وعندما كان تلميذاً فى فرقة المنشدين فى موطنه هينوت سحر سامعيه ، إلى حد أن خطفه مرتين أولئك الذين تمنوا أن يستفيدوا من صوته ، وأخيراً ، وهو فى سن الخامسة عشرة (١٥٤٥ ؟) ؛ سمح أبواه لفرديناند جونزاجا أن يصحبه معه إلى إيطاليا ؛ وفى سن الرابعة والعشرين أصبح رئيس فرقة المنشدين فى كنيسة سانت جون لاتيران فى رومه . وفى ١٥٥٥ استقر به المقام فى أنتورب ، ونشر « أول كتاب فى القصائد الغزلية الإيطالية » ، وهى قصائد غنائية علمانية أضفى عليها كل

زخارف فن مزج الألحان الفلمنكي . وفى نفس العام أصدر مجموعة من أغان من أصل نابوليتانى (من مدينة نابلى) ومن الأغانى الفرنسية ، وأربع قصائد دينية قصيرة ، ولقد عكست هذه المجموعة التقلب المتسم بالحكمة فى حياة دى لاسو ، بين المتعة الدنيوية والقوة الشجية ، وإنا لنجد لمحة عن بيئته فى أنتورب فى إهدائه إحدى قصائده إلى الكاردينال بول ، وأخرى إلى الكاردينال جرانفيل وزير فيليب الثانى فى الأراضى المنخفضة . وربما كان جرانفيل هو الذى هيأ للملحن الشاب العمل فى إدارة فرقة المنشدين للدوق فى ميونخ (١٥٥٦) . وأحب أورلاندو بافاريا قدر حبه إيطاليا ، واتخذ له زوجة من أحد البلدين ، كما اتخذ اسمه من البلد الآخر ، وعمل لدى أدواق بافاريا حتى الممات .

وضاعف أورلاندو السعيد ، موزار القرن السادس عشر ، الألحان الستمائة والستة والعشرين التى ألفها نظيره ، ودرس سلم النغم فى كل الأشكال الموسيقية السائدة ، وأحرز فى كل منها شهرة فائقة فى كل أنحاء أوربا ، وبدا أنه على نفس القدر من المعرفة والبراعة فى غزليات الحب النقى ، وأغانى الحب الطائش ، وقداسات الورع الصوفى . وعين فى ١٥٦٣ رئيس فرقة المنشدين فى الكنيسة ، وألف آنذاك لألبرت الخامس لحناً موسيقياً لمزامير التوبة السبعة ، وأعجب الدوق بهذه الموسيقى حتى أنه كلف الفنانين بتسجيلها على الورق « البرشمان » وزخرفتها بالمنمنمات ، وتجليدها بجلد الماعز الأحمر الفاخر فى مجلدين من القطع الكبير ، محفوظين الآن ضمن أثمن مقتنيات مكتبة الدولة فى مدينة ميونيخ المحبة للفنون .

واجتذبت أوربا كلها النجم الجديد ، وعندما زار دى لاسو باريس (١٥٧١) عرض عليه شارل التاسع ١٢٠٠ جنيه سنوياً (٣٠٫٠٠٠ دولار ؟) سنوياً ، ليبقى عنده ، فرفض ، ولكنه أهدى شارل وكاترين دى مديتشى

كتاباً فى الأغانى الفرنسية ، يقول عنه برانتوم إنه من أعذب ما سمعت باريس ، وقد روت إحدى الأغنيات مناقب العاصمة الفرنسية فى حبها للعدالة والسلام — وكان هذا قبل مذبحة سانت برثلميو بعام واحد . ولما عاد دى لاسو إلى ميونيخ أهدى إلى آل « uggers » مجموعة من القصائد اللاتينية القصيرة والغزليات الإيطالية والأغانى الألمانية والأغانى الفرنسية ، إن هذا الملحن لم يكن صعلوكاً رومانتيكياً ، بل كان خبيراً بأساليب الحياة فى الدنيا . وفى عام ١٥٧٤ سافر إلى رومه على نفقة الدوق ألبرت ، وأهدى جريجورى الثالث عشر مجلداً من القداسات ، وتسلم منه « وسام المهماز الذهبى » بل إن الله خص أعمال دى لاسو بأعظم التقدير ، ذلك أنه فى يوم عيد الجسد (١٥٨٤) هبت عاصفة هوجاء هددت بإلغاء الموكب الدينى الذى اعتاد اجتياز شوارع ميونيخ ، وعندما عزفت فرقة المنشدين مقطوعة أورلاندو « تأمل وانظر كيف أن الله كريم » ، انقطع المطر وأشرقت الشمس . وفى مثل هذا اليوم ، فيما بعد ، كانت تلك المقطوعة تعزف ، لتضمن سماحة السموات .

وفى ١٥٨٥ عندما كبرت سن دى لاسو ، وثاب إلى التوبة ، نشر « كتابه الخامس فى الغزليات » الذى طبق فيه الشكل على الموضـــوعات الروحية ، وهى من أعظم ألحانه إثارة للمشاعر . وبعد ذلك بخمس سنوات ، التاث عقله وغاب عنه وعيه ، فلم يعد يعرف زوجته . وكاد لا يتحدث فى شىء إلا الموت ، ويوم الحساب الأخير ، وزيادة الراتب : وحظى بهذه الزيادة ، ومات (١٥٩٤) فائزاً ظافراً مخبولا .

٣ — الموسيقى والإصلاح الدينى

كان الإصلاح الدينى ثورة فى الموسيقى ، قدر ما كان ثورة فى اللاهوت والطقوس وعلم الأخلاق والفن : لقد كانت الطقوس الكاثوليكية

أرستقراطية ، أو شعائر فخمة متأصلة فى تقاليد منيعة لا تنتهك حرمتها ، متعالية تعالياً صريحاً عن الشعب ، فى اللغة والملابس والرموز والموسيقى ؟ وبهذه الروح ، عرّف رجال الدين أنفسهم بأنهم الكنيسة ، وذهبوا إلى أن الناس قطيع يساق إلى حسن الخلق والخلاص بالخرافات والأساطير والعظات والمسرحيات وكل الفنون . وبهذه الروح كان القداس سراً خفياً مقصوراً فهمه على فئة قليلة ، واتصالا خارقاً بين الكاهن والرب . وكان الكاهن يرتل القداس ، ومعه فرقة المنشدين من الذكور ، منعزلة عن المصلين . ولكن فى الإصلاح الدينى فرضت الطبقات الوسطى وجودها وحقوقها ، وأصبح الشعب هو الكنيسة ، ورجال‌الدين ممثليه ، والقداس باللغة الوطنية ، وكان لا بد أن تكون الموسيقى واضحة مفهومة ، يمكن أن تقوم فيها جماعة المصلين بدور فعال ، أصبح فى آخر الأمر قيادياً ؟

وأحب لوثر الموسيقى ، وقدر فن تعدد الأصوات والطباق الموسيقى ، وفى ١٥٣٨ كتب متحمساً يقول :

« إذا شحذ الفن الموسيقى الطبيعية وصقلها يبدأ الإنسان يدرك فى عجب ودهشة حكمة الله العظيمة البالغة حد الكمال ، فى موسيقاه الرائعة ، حيث يقوم صوت واحد بدور بسيط ، ويغنى حوله ثلاثة أو أربعة أو خمسة أصوات أخرى ، تثب وتنطلق هنا وهناك ، تزين الدور البسيط ، وكأنها رقصة تربيعية فى السماء إن هذا الذى لا يجد فى هذا معجزة تفوق الوصف من عند الله ، ليس إلا غبياً حقيراً لا يستحق أن يعتبر إنساناً »(١٠) .

وكان لوثر فى نفس الوقت تواقاً إلى موسيقى دينية يمكن أن تحرك مشاعر الناس ، بالتحام الإيمان بالغناء عن طريق الموسيقى : وفى ١٥٢٤ تعاون مع جوهان والتر ، رئيس فرقة المنشدين فى الكنيسة لدى الأمير

فردريك الحكيم لإنتاج أولى التراتيل البروتستانتية التى وسعت وأدخل عليها تحسينات كثيرة فى الطبعات المتعددة . وكان جزء من كلماتها مأخوذا من الترانيم الكاثوليكية ، وجزء آخر مقتبساً من أغانى رئيس فرقة المنشدين ، وجزء ثالث مكتوباً بقلم لوثر الشاعرى تقريبا ، وجزء آخر مأخوذاً من الأغانى الشعبية بعد نقلها إلى موضوعات دينية . ويقول لوثر « ليس للشيطان حق فى كل الألحان الجيدة »(١١) : وألف لوثر بعض الموسيقى ، وألف والتر جزءاً آخر ، واقتبس قسم ثالث من المقطوعات الكاثوليكية المعروفة آنذاك ، واستمرت الكنائس اللوثرية لمدة قرن تقريبا ، تدخل القداسات المتعددة الأصوات فى طقوسها ، ولكن حلت اللغة الوطنية محل اللاتينية شيئا فشيئا ، ونقص دور القداس ، وزاد غناء المصلين ، وانتقلت أغانى فرقة المنشدين من الطباق إلى شكل إيقاعى متناسق أيسر ، سعت فيه الموسيقى إلى متابعة الكلمات وتفسيرها ، ومن موسيقى فرقة المنشدين التى ألفها لوثر ومعاونوه لمصاحبة تلاوة قصص الإنجيل ، جاءت الموسيقى العظيمة فى الكنيسة البروتستانتية فى القرن الثامن عشر ، وبلغت الذروة فى موشحات هاندل وقداساته وموشحات جوهان سباستيان باخ وتراتيله .

ولم يكن كل مؤسسى البروتستانتية يحبون الموسيقى مثلما أحبها لوثر ، فإن زونجلى ، ولو أنه هو نفسه موسيقار ، استبعد الموسيقى كلية من الصلوات الدينية ، وحرم كلفن كل الموسيقى الكنسية ، فيما عدا غناء المصلين المتساوى النغمات . ولكنه أباح الغناء الطباقى المتعدد الأصوات فى البيت ، فاستمد أتباعه الهيجونوت فى فرنسا جزءاً من قوتهم وشجاعتهم من إنشاد المزامير والترانيم على أنغام الموسيقى بأصوات متعددة . ولما ترجم كليمنت مارو المزامير إلى اللغة الفرنسية شعراً ، أعجب بها كلفن إلى حد أنه تجاوز عن المقطوعات الطباقية التى وضعها كلود جوديمل ، وقد أضفت حقيقة أن هذا الملحن البروتستانتى لقى حتفه فى مذبحة سانت برتلميو ،

مزيداً من القدسية على كتاب مزاميره المقدس . وبعد مارو بعام ، لم يخف أسقف كاثوليكي حسده للدور الذي كانت قد لعبته هذه الترجمات والمقطوعات فى الإصلاح الديني الفرنسي : « وكان حفظ المزامير عن ظهر قلب ، لدى الهيجونوت سمة الطائفة التى ينتمون إليها ، وفى المدن التى يكثر عديدهم فيها ، يمكن أن تسمع النغمات المنبعثة من أفواه للعمال ، وفى القرى من أفواه الكادحين الذين يفلحون الأرض[١٢] » . لقد ميزت الصبغة الديمقراطية التى صبغت بها الموسيقى الدينية البلاد التى عم فيها الإصلاح الدينى حيث سترت هذه الصبغة الديموقراطية قتام العقيدة ببهجة الموسيقى التى تسرى عن النفس .

٤ ـ بالسترينا : ١٥٢٦ ـ ١٥٩٤

ظلت الكنيسة الكاثوليكية الراعى الرئيسى للموسيقى مثل غيرها من الفنون ، وتقدمت الموسيقى الكاثوليكية ، شمال جبال الألب ، على الأسس التى وضعتها المدرسة الفلمنكية ، وثبت هذا التقليد إيزاك فى النمسا ودى لاسو فى بافاريا . ووجه لوثر فى ١٥٥٠ خطاباً من أكرم خطاباته إلى لودفيج سنفل يحييه فيه ويطرى موسيقاه التى كان يؤلفها فى ميونيخ ، ويثنى على الأدواق الكاثوليك هناك لأنهم « يرعون الموسيقى ويجلونها »[١٣] .

وكان فريق المنشدين . كنيسة سستين هو النموذج الذى احتذاه الملوك والأمراء فى تأسيس كنائسهم طوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وحتى بين البروتستانت كان أروع شكل للتأليف الموسيقى هو القداس . وكانت فرقة المنشدين البابوية هى التى تقوم بالقداس فى أروع أشكاله . وكان أعظم ما يطمع فيه أى مغن هو أن يلتحق بهذه الفرقة ، التى كانت لذلك قادرة على أن تضم إليها أحسن أصوات الذكور فى أوربا الغربية .

وكان الكاستراتى ، الذين كانوا يسمون آنذاك « الخصيان » — أول من أدخلوا إلى فرقة سستين ، حوالى ١٥٥٠ ، وسرعان ما ظهر بعد ذلك غيرهم فى البلاط البافارى ، وكانوا يخصون الأولاد بموافقتهم ، وكانوا يغرونهم بأن أصواتهم العذبة الندية ستكون أكبر نعمة وتعويض لهم عن الإنجاب والإخصاب — تلك ميزة وحشية كانت فى متناول كل من يطلبها بصفة عامة .

وكانت الكنيسة — مثل أى نظام قديم معقد ، لا بد أن يخسر كثيراً بأية بدعة غير موفقة — كانت تتسم بروح المحافظة فى الطقوس والشعائر ، حتى أكثر منها فيما يتعلق بالعقيدة . أما المؤلفون فكانوا على النقيض من ذلك ، يضيقون ذرعاً بالأساليب القديمة ، كما كانوا كذلك فى كل العصور ، وكان التجريب فى نظرهم هو حياة فنهم . وكافحت الكنيسة فى كل هذه القرون ، لمنع التكلف فى الفنون الجديدة ، ورقة الطباق الفلمنكى ، من أن يضعفا وقار القداس الكبير وعظمته . وفى سنة ١٣٢٢ أصدر البابا جون الثانى والعشرين قراراً صارماً ضد البدع الموسيقية والزخرفة ، وأمر بأن تلتزم موسيقى القداس بالأغنية البسيطة الوحيدة ، أى الأغنية الجريجورية ، كأساس لها ، ولا تبيح إلا التناغم الذى يمكن أن يكون مفهوماً للمصلين ، ويعمق التقوى فى نفوسهم أكثر مما يلهيهم عنها . وظل الأمر مطاعاً لمدة قرن من الزمان ، ثم جاءت المراوغة فى تنفيذه من أن بعض المنشدين كانوا ينشدون الجهير (الصوت العميق الخفيض) أعلى من المكتوب بجواب واحد . وأصبح هذا الجهير الزائف هو الخدعة المفضلة فى فرنسا . وظهرت التعقيدات من جديد فى موسيقى القداس ، وبدأ إنشاد خمسة أو ستة أو ثمانية أجزاء بالفوجه والطباق ، جرت فيها كلمات الطقوس الدينية الواحدة عقب الأخرى فى فوضى احترافية ، أو غرقت فى زخارف موسيقية وضعها المغنون وفق أهوائهم . وأدى تكييف أنغام شعبية للقداس ، حتى إلى إقحام كلمات بذيئة على النص المقدس . واتفق أن عرفت بعض القداسات بمصادرها العلمانية مثل قداس

« وداعاً يا أحبائى » أو قداس « فى ظل الشجرة »(١٤) : واستاء إرزم المتحرر نفسه من زيف « فن القداس » حتى أنه احتج على ذلك فى ملاحظة دونها فى طبعته التى نشرها « للعهد الجديد » :

إن الموسيقى الكنسية الحديثة ألفت بحيث لا يستطيع أحد من جماعة المصلين أن يتبين كلمة واحدة متميزة . إن المنشدين أنفسهم لا يفهمون ما ينشدون . . . لم يكن ثمة موسيقى (كنسية) أيام القديس بولص ، حيث كانت الكلمات تنطق بوضوح : إن الكلمات اليوم لا تعنى شيئاً . إن الناس يذرون أعمالهم ويقصدون إلى الكنيسة ليستمعوا إلى جلبة وضجيج لم يكن لهم بهما عهد فى المسارح اليونانية والرومانية . ينبغى أن تسلك النقود لشراء الأراغين وتدريب الأولاد على إطلاق الصيحات والصرخات(١٥) :

واتفقت جماعة الإصلاح فى الكنيسة مع إرزم فى هذه المسألة : فمنع جيبرتى أسقف فيرونا استعمال أغانى الحب أو الألحان الشعبية فى أبرشيته ، كما حرم مورون أسقف مودينا كل الموسيقى « المصورة » أى المزخرفة بكل تفاصيل الإثارات والأفكار الرئيسية . وحث المصلحون الكاثوليك فى مجلس ترنت على استبعاد كل الموسيقى المتعددة الأصوات من كل حفلات الكنيسة ، وعلى العودة إلى الإنشاد الجريجورى ذى الصوت الواحد ، ولكن ربما كان من الممكن أن يساعد ميل البابا بيوس الرابع إلى قداسات بالسترينا ، على إنقاذ « تعدد الأصوات » فى الكنيسة الكاثوليكية .

لقد اشتق جيوفنى لويجى بالسترينا اسمه من اسم مدينة صغيرة فى الريف الرومانى كانت قد دخلت التاريخ فى العصور القديمة تحت اسم « برايندستى » ؛ وإنا لنجده فى ١٥٣٧ ، وهو إذ ذاك فى الحادية عشرة من عمره ، بين تلاميذ فرقة المنشدين فى سانتا ماريا مجيورى فى رومه ، ولم يكن قد بلغ

الحادية والعشرين حين عين رئيساً للفرقة فى كاتدرائية مسقط رأسه . فلما توطد مركزه على هذا النحو ، تزوج من لوكريشيا دى جوريس ، وكانت على شىء من اليسار ، وعند ما تقلد أسقف بالسترينا منصب البابوية تحت اسم جوليوس الثالث ، اصطحب معه رئيس فرقته إلى رومه ، وعينه رئيس معبد جوليا فى كنيسة القديس بطرس ، الذى كان يتدرب فيه المنشدون لكنيسة سستين . وأهدى الملحن الشاب إلى البابا الجديد أول كتاب له فى « القداسات » (١٥٥٤) عرض أحدها معزوفة ثلاثية الألحان بمصاحبة ملمشد واحد لأغنية بسيطة ، وأحب البابا هذه القداسات إلى حد أنه منح بالسترينا عضوية فرقة المنشدين فى كنيسة سستين ، وبدا موقف جيوفنى شـــاذاً ، بوصفه رجلا متزوجاً ، وسط هذه الجماعة التى كان أفرادها مترهبين عادة ، مما أثار بعض المعارضة . وكان بالسترينا على وشك أن يهدى البابا كتاباً فى الغزليات ، لولا أن جوليوس عاجله الموت (١٥٥٥) .

ولم يعمر مارسلس الثانى أكثر من ثلاثة أسابيع بعد ارتقائه عرش البابوية . وأهدى الملحن إلى ذكراه (١٥٥٥) مقطوعته الشهيرة « قداس البابا مارسلس » التى لم تنشر ، أو هكذا كانت تسمى حتى ١٥٦٧ : وطرد البابا بول الرابع ذو المبادئ البيوريتانية الجامدة الثلاثة الأعضاء المتزوجين فى فرقة ملشدى سستين ، وخصص لكل منهم معاشاً ضئيلا . وما لبث بالسترينا أن عين رئيساً لفرقة المنشدين فى كنيسة سان جون لاتيران ، ولكن هذه الوظيفة ، ولو أنها سدت رمقه ، لم توفر له نفقات نشر تآليفه الموسيقية : وعاد العطف البابوى يظلله بارتقاء بيوس الرابع عرش البابوية (١٥٥٩) . وتأثر بيوس أيما تأثر بمقطوعة **Improperia** التى أعدها بالسترينا لاحتفال « الجمعة الحزينة » ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت هذه المقطوعة جزءاً لا يتجزأ من الطقوس فى كنيسة سستين ، وظل زواج

بالسترينا يحول بينه وبين فرقة سستين ، ولكن ارتفع شأنه بتعيينه (١٥٦١) رئيساً لفرقة سانتا ماريا مجيورى :

وبعد ذلك بعام واحد بحث مجلس ترنت الذى انعقد ثانية ، مشكلة تنظيم الموسيقى الكنسية ، لتتسق مع روح الإصلاح الجديدة ؛ ورفض الاقتراح القائل بمنع « تعدد الأصوات » منعاً باتاً : وأقر حل وسط يحث السلطات الدينية « على أن تستبعد من الكنائس كل موسيقى ؛؛؛ تقدم شيئاً من الدنس أو الفجور ، حتى يظل بيت الله مشهوداً له بأنه بيت التعبد والصلاة(*) ، وعين بيوس الرابع لجنة قوامها ثمانية من الكاردينالات لتنفيذ هذا القرار فى أبرشية رومه . وتروى قصة لطيفة أن اللجنة كانت على وشك تحريم الموسيقى المتعددة الأصوات ، حيث توسل أحد الأعضاء وهو الكاردينال شارل بوروميو ، إلى بالسترينا أن يؤلف قداساً يمكن أن يظهر الانسجام الكامل بين تعدد الأصوات والتقى والتدين ، واستجاب بالسترينا وألف ، وأنشدت الفرقة ثلاثة قداسات أمام اللجنة ، أحدها « قداس البابا مرسلس » . ولم ينقذ « تعدد الأصوات » من الحكم عليه بالفناء إلا الاتحاد الوثيق بين السمو الدينى والبراعة الفنية المهذبة فى الموسيقى فى هذه القـــداسات . على أن قداس البابا مرسلس كان قد مضى على تأليفه آنذاك عشر سنوات . ومهما يكن من أمر فإن العلاقة الوحيدة المعروفة بين بالسترينا وهذه اللجنة ، هى أنها زادت من راتبه[١٦] : على أننا مع ذلك قد نؤمن بأن الموسيقى التى كان بالسترينا قد قدمها فى فرق روما ، بفضل إخلاصها للكلمات ، وتجنبها للمثيرات الدنيوية وإخضاعها الفن الموسيقى للمقاصد الدينية ، قد لعبت دوراً كبيراً فى توجيه اللجنة إلى إجازة الموسيقى المتعددة الأصوات[١٧] : وثمة حجة أخرى تضاف تأييداً « لتعدد الأصوات » تلك هى أن تآليف بالسترينا الدينية استغنت ، بشكل طبيعى ،

(*) أحس بيوس العاشر (١٩٠٣) ، وبيوس الثانى عشر (١٩٥٥) أنه من الضرورى تكرار هذه التعليمات .

عن « زخارف الآلات » ، وكانت مكتوبة دائماً تقريباً بالأسلوب الكنسي ، أي الأصوات فقط .

وفي ١٥٧١ أعيد تعيين بالسترينا رئيساً لفرقة كنيسة جوليا ، وبقي في هذا المركز حتى موته : وفي نفس الوقت كان إنتاجه غزيراً بلا حدود بلغ في جملته ٩٣ قداساً ، و٤٢٦ ترنيمة تجاوبية ، وتقدمه للذبيحة الإلهية ، وأغنية دينية ومزموراً وعدداً كبيراً من الغزليات : وكان بعض هذه مبنياً على موضوعات علمانية . ولكن بالسترينا لما تقدمت به السنون ، حول حتى هذا الشكل إلى أغراض دينية . وتضمن « كتابه الأول في الغزليات الروحية » (١٥٨١) بعضاً من أجمل مقطوعاته . وربما لونت المآسي الشخصية موسيقاه أو شوهتها ، فقد توفي ابنه أنجلو في ١٥٧٦ ، تاركاً في رعايته حفيدين عزيزين ، ماتا بعد ذلك بسنوات قليلة . وتوفي ابن آخر له حوالي ١٥٧٩ . ولكن موت زوجته في ١٥٨٠ دفعه إلى التفكير في أن يترهب . على أنه تزوج ثانية في بحر سنة واحدة .

إن وفرة إنتاج بالسترينا ونوعيته المذهلتين رفعتاه إلى مرتبة الزعامة على الموسيقى الإيطالية ، إن لم تكن الأوربية بأسرها : إن وضعه نشيد الإنشاد Song of Solomon في تسع وعشرين قصيدة دينية (١٥٨٤) ، و « مراثي أرمياء » ١٥٨٨ ، و Stabat Mater and Magificat ١٥٩٠ ، ثبتت شهرته وقوته الصامدة . وفي ١٥٩٢ اشترك منافسوه الإيطاليون في إهدائه « مجموعة من مزامير المساء » : وكرموه بأنه « الأب المشترك لكل الموسيقيين » : وفي أول يناير ١٥٩٤ أهدى كريستينا دوقة تسكانيا العظيمة « الكتاب الثاني من الغزليات الروحية » التي جمع فيها ثانية بين الإخلاص الديني والبراعة الموسيقية : وبعد ذلك بشهر واحد قضى نحبه وهو في التاسعة والستين من العمر ، ونقش على قبره تحت اسمه « أمير الموسيقى » ؟

وينبغي ألا نتوقع أن نقدر بالسترينا اليوم حق قدره ، إلا إذا كانت

نفوسنا نحن متشبعة بالروح الدينية . وإننا لنسمع اليوم موسيقاه فى وضعها السليم بوصفها جزءاً من طقوس مهيبة ، وحتى فى هذه الطقوس قد تتركنا جوانبنا الفنية مشدوهين أكثر منا متأثرين . وبالمعنى الحرفى ، أى فى واقع الأمر ، إن الوضع الصحيح لا يمكن أن يعود أبداً ، لأن موسيقى بالسترينا كانت موسيقى الإصلاح الكاثوليكى ، فهى النغمة الكئيبة للنكسة الصارمة ضد الابتهاج الحسى فى النهضة الوثنية ، أو قل هى ميكلأنجلو باقياً على قيد الحياة بعد رافائيل ، أو بول الرابع يحل محل ليو العاشر ، أو ليولا يحل مكان بمبو ، أو كلفن يخلف لوثر . إن ترجيحاتنا المعاصرة ليست إلا معياراً عابراً غير معصوم من الخطأ ، وذوق الفرد — وخاصة إذا أعوزته القدرة الفنية والتصرف والإحساس بالخطيئة — إنما هو أساس واه نقيم عليه مقياساً للحكم فى الموسيقى واللاهوت . ولكن نستطيع أن نتفق جميعاً على أن بالسترينا ، بلغ بفن « تعدد الأصوات » الدينى درجة الكمال ، فى عصره . وأنه ، مثل معظم كبار الفنانين ، وقف على قمة حد من التطور فى الإحساس والتقنية ، وتسلم تقاليداً فأتمه وأكمله ، لقد ارتضى النظام ، وعن طريقه زود موسيقاه بتركيب وبنية ، أو رسوخاً معمارياً فى وجه أعاصير التغيير الهوجاء . ومن يدرى ، فربما جاء عصر ليس ببعيد ، أرهقته أصوات الأوركسترا العالية الطنانة ورومانسيات الأوبرا — ليجد فى موسيقى مثل موسيقى بالسترينا عمقاً فى الإحساس ، وانسياباً عميقاً هادئاً فى الألحان ، يصلحان بطريقة أفضل للتعبير عن النفس الإنسانية المتطهرة من غرور العقل والقوة ، رابضة مرة ثانية ، فى تواضع وخشوع وخشية ، أمام الوجود الأبدى الغامر الذى يطبق عليها ؟

المراجع

NOTES

CHAPTER XXIX

1. Waliszewski, *Ivan the Terrible*, 95.
2. Rambaud, *Hy of Russia*, I, 286.
3. Waliszewski, *Ivan*, 68.
4. Eckhardt, Russia, 29.
5. Réau, *L'art russe*, I, 244.
6. Kluchevsky, *Hy of Russia*, 275.
7. Pokrovsky, *Hy of Russia*, 104.
8. Vernadseky, *Hy of Russia*, 55.
9. Rambaud, I, 253.
10. Kluchevsky, I, 75, 95.
11. Pokrovsky, 144.
12. Rambaud, I, 266; Waliszewski, *Ivan*, 267.
13. Ibid., 268, 272.
14. Pokrovsky, 157.
15. Waliszewski, 258.
16. Rambaud, I, 300.
17. Réau, I, 272.
18. Waliszewski, 374.
19. Roeder, *Catherine de' Medici*, 495.
20. Waliszewski, 381.

CHAPTER XXX

1. Browne, E. G., *Literary Hy of Persia*, III, 43.
2. Lamb, H., *Tamerlane*, 293.
3. Clavijo, *Embassy to Tamerlane*, 153.
4. *Bulletin of the American Institute for Iranian Art*, *June*, 1938, 248-52.
5. Arnold, M, W., *Painting in Islam*, 93.
6. Browne, III, 289.
7. Ibid., 277.
8. Hafiz, tr. Streit, 80.
9. In Gottheil, ed., *Literature of Persia*, I, 408.
10. Hafiz, tr. Streit, stanzas 10, 11, 19, 21, 49.
11. Bell, G., *Poems from the Divan of Hafiz*, xxiii.
12. Ouseley, G., *Biographical Notices of Persian Poets*, 23 f.
13. In Grousset, R., *Civilizations of the East*, I, 338-9.
14. Hafiz, tr. Streit, 65.
15. Ibid., stanza 38.
16. Bell, stanza xliii.
17. Clavijo, 181.
18. Ibid., 137.
19. Browne, III, 185, Some assign Timur's lameness to a later period; so Clavijo, 210, and Sykes, P., *History of Persia*, II, 121.
20. Timur, *Mulfuzat*, v, 26.
21. Browne, III, 186.
22. Ibid., 178; Lamb, 150.
23. Browne, III, 189.
24. Ibid., 190.
25. Clavijo, 132.
26. Ibid., 151, 278.

27. Ibid., 249.
28. Pope, A, U,, *Masterpieces of Persian Art*, 149.
29. Dawlatshah in Browne, III, 501.
30. Ibn Khaldun, *Les Prolegomènes*, I, p, lxxii.
31. Lane-Poole, S., *Cairo*, 50.
32. Gibbons, H, A., *Foundation of the Ottoman Empire*, 150.
33. Freissart, J., *Cbronicles*, iv, 90.
34 Lane-Poole, S., *Story of Tutkey*, 97.
35. *Cambridge Modern History*, IV, 705.
36. Vambery, A,, *Story of Hungary*, 282.
37. Gibb, E., J., *Ottoman Literature*, 3.
38. Ibid., 209 f.
39. Browne, III, 455.
40. *Jami, Mulla Nuru d-Din*, tr, E. Fitzgerald, 69.
41. Pope. *Masterpieces*, 146.
42. Davise, F, H., *Persian Mystics : Jami*, 71.
43. Clavijo, 153.
44. Saladin, H., et Migeon, G., *Manuel d'ort musulmane*, I, 357.
45. Cf. Pope, A. U., *Survey of Persian Art*, IV, 428 f.
46. Ibid., III, 1324.
47. Sykes, II, 155.
48. In Dimand, M, S., *Handbook of Muhommadan Art*, 42.
49. Arnold, T., and Guillaume, A., *Legacy, of Islam*, 96.
50. Ibn Battuta, M., *Travels*, tr. H, A., Gibb, 148.
51. Ibid., 57.
52. Sarton, G., *Introd, to the History of Science*, II-2, 1100.
53. Arnold, *Legacy of Islam*, 340.
54. Ibn Khaldun, *Prolegomènes*, I, p. xxx.
55. Ibid., lxxiii.
56. Ibid., 4.
57. 71.
58. 12.
59. 67.
60. Boer, T., *History of Philosophy in l' Islam*, 203.
61. Ibid., 205.
62. De Vaux, C., *Les penseurs de'lIslam*, I, 288.
63. Ibn Khaldun, I, 175.
64. Ibid., 176 f.
65. 170 f.
66. Ibid., Introd., xxxii.
67. Ibid., 95.
68. Introd., xxxii.
69. Ibid,, 324.
70. Ibid., III, 44.
71. I, 303.
72. I, 345; III, 300-5.
73. I, 333, 354.
74. III, 227, 233, 240.
75. III, 115-20, 184, 188; I, 218.
76. De Vaux, I, 282.
77. Ibn Khaldun, III, 249; I, 347.
78. III, 456.
79. III, 125.
80. Issawi, C., *An Arab Philosophy of History*, 21.
81. Toynbee, A., *A Study of History*, III, 321.
82. Sarton, III-2, 1770.

CHAPTER XXXI

1. *Cambridge Mod, Hy*, III, 112.
2. Sykes, II, 164; Browne, IV, 21.
3. Browne, IV, 62.
4. Ibid., 51.
5. Hughes, T. P., *Dictionary of Islam*, 572.
6. Doughty, Chas., *Arabia Deserta*, I, 59.
7. Sykes, II, 163.
8. Pope, A. U., *Introduction to Persian Art*, 224.
9. Browne, IV, 93.
10. Sykes, II, 168-9.
11. Dimand, M. S., *Guide to an Exhibition of Islamic Miniature Painting*, 34.
12. Pope, A. U., *Catalogue of a Loan Exbibiion of Early Oriental Carpets*, 39.
13. Merriman, R. B, *Suleiman the Magnificent*, 33.
14. Ibid., 190.
15. *Camb. Mod. Hy*, I. 92.
16. Guicciardini, F., *History of the Wars in Italy*, VIII, 12; Schevill, F., *History of the Balkan Peninsula*, 217; *Camb. Mod.* Hy I, 93.
17. Merriman, 60.
18. Ibid., 61.
19. Bury, J, B., in *Camb, Mod*, Hy, I, 93.
20. Merriman, 72.
21. *Camb, Mod.* Hy, 94-5,
22. Ibid., 95,
23. Ranke, L. von, *History of the Reformation in Germany*, 579.
24. Merriman, 124.
25. Ibid., 141-2.
26. *Camb, Mod*, Hy, III, 123.
27. Gibbons, *Foundation of the Ottoman Empire*, 81; Schevill. 240.
28. Schevill, 233.
29. Merriman, 171.
30. Bury in *Camb, Mod, Hy*, I, 101.
31. Merriman, 202.
32. Ibid., 165.
33. *Camb, Mod*, Hy, I, 101.
34. Creasy E, S., *History of the Ottoman Turks*, 113; Merriman, 148.
35. Robertson, Wm., *History of the Reign of Charles V*, II 367,
36. Schevill, 238.
37. Creasy, 109.
38. Lane-Poole, S., *Saladin*, 36.
39. Hitti, P, K, *History of the Arabs*, 19.
40. Merriman, 203.
41. Gibbons, 74; Creasy, 106.
42. Bacon, Fr., *Philosophical Works*, ed Robertson, 749.
43. Creasy, 113.
44. Gibb, *Ottoman Literature*, 233.
45. *Camb, Mod*, Hy, VI, 420.
46. Creasy, 108.
47. Ibid., 109.
48. Gibb, 123-8.
49. Luther, *To the Christian Nobility*, in *Works*, II, 149.
50. Froude, J, A., *The Reign of Henry VIII*, II, 184n,
51. Lang. A., *History of Scotland*, II, 78.

52. Gibb, 218.
53. Merriman, 185-93; Robertson, *Charles V*, II, 365-73

CHAPTER XXXII

1. Percy, Thos., *Reliques of Ancient English Poetry*, II, 116; Jewish Encyc., XII, 462.
2. Marcus, J., *The Jew in the Medieval World*, 395-7,
3. Graetz, H., *History of the Jews*, IV, 272.
4. Erasmus, Letter to Capito, March, 13, 1518.
5. Graetz, IV, 296; Abbott, G, F., *Israel in Europe*, 198-9.
6. Abott, 203.
7. Baron, Salo, *Social and Religious History of the Jews*, II, 58 f.
8. Sarton, *Introduction to the History of Science*, III-1, 57.
9. Graetz, IV, 220.
10. Ibid., 407.
11. Pasror, L., *History of the Popes*, VIII, 444,
12. Id., X, 372.
13. Roth, C., in Finkelsetein, L., ed., *The Jews*, 239.
14. Waxman, M., *History of Jewish Literature*, II, 66.
15. Roth, C., *Tbe Jewish Contribution to Civilization*, 92.
16. Thompseo, J, W., *Economic and Social History of Europe in tbe Later Middle Ages*, 30.
17. Newman, L, J., *Jewish Influence in Christian Reform Movements*, 436-50.
18. Dubnow, S. M, *History of the Jews in Russia and Poland*, I, 61
19. Ibid, 85-7,
20. Abrahams, Israel, *Jewish Life in tbe Middle Ages*, 403.
21, Newman, 483.
22, Ibid., 473.
23. Graetz, IV, 549 51.
24. Finkelstein, 241.
25. Coulton, G., *Medieval Panorama*, 185.
26. Sarton, III-2, 1059.
27. Coulton, G, G., *From St. Francis to Dante*, 110.
28. Janssen, J, *History of the German People at the Middle Ages*, II, 73.
29. Roth, *Jewish Contribution* 25.
30. Graetz, IV, 286.
31. Ibid., 245.
32. Cf, e.g., Coulton, *Life in the Middle Ages*, II, 147.
33. Graetz, IV, 253.
34. Ibid, 55-7; Baron, II, 29.
35. Monmarché, M, ed., *Châteaux of the Loire*, 190.
36. Graetz, IV, 98.
37. Lea, *Inquisition in Spain*, I, 101; Abbott, 103; Graetz, 103.
38. Ibid, 101.
39. Abrahams, *Jewisb Life*, 331.
40. Marcus, 44.
41. *Cambridge Medieval History*, VII, 657.
42. Baron, II, 29.
43. Lea, *Inquisition in the Middle Ages*, II, 379.
44. Graetz, 109.10.

45. Thompson, *Economic and Social History*, 214.
46. Kastein, J., *History and Destiny of tbe Jews*, 321.
47. Janssen, II, 78.
48. Ibid, 76.
49. Jew, Encyc, III, 554.
50. Graetz, 302-7.
51. Ibid., 513.
52. Ibid, 515.
53. Ibid., 520-1.
54. Ibid., 523,
55. Prescott, W, H., *History of the Reign of Ferdinand and Isabella*, I, 517; Abbott, 191.
56. Burckhardt, J., *Civilization of the Renaissance in Italy*, 488.
57. Sombart, W., *The Jews and Modren Capitalism*, 17,
58. Finkelstein, 240.
59. Roth, *Jewish Contribution*, 210.
60. Graetz, 500.
61. Ibid., 515
62. Ibid., 525-7.
63. Ibid., 567. Pator, XIV, 271.4.
64. Abbott, 103; Abarhams, *Jewish Life*, 67.
65. Pastor, XIV, 274.
66. Abbott, 204; Robertson, W., *History of the Reign of Charles V*, I, 206-7,
67. Pastor, i.c.
68. Graetz, 361-2.
69. Ibid.,
70. Ibid., 356.
71. Robertson, W, *Charles V*, I, 207.
72. Burton, R, F., *The Jew, the Gypsy, and El Islam*, 65.
73. Graetz, III, 511,
74. Durant, W., *Age of Faith*, 374.
75. Finkelstein, 229.
76. Abrahams, *Jewish Life*, 160.
77. Abbott, 202.
78. Marcus, 170 f.
79. Abrahams, I., *Chapters on Jewish Literature*, 226.
80. Waxman, II, 258.
81. Jew, Encyc, XII 404.
82. Baron, II, 132.
83 Husik, I, *History of Medieval Jewish Philosophy*, 360; Waxman, 256.
84. Jew, Encyc., VIII, 29.
85. Baron, 85.

CHAPTER XXXIII

1. Mattingly, G., *Catherine of Aragon*, 109.
2. Agricola, *De re metallica*, 99, 100.
3. Ibid., xiii, 46-7, 52.
4. Usher, 274.
5. Toynbee, A., *A Study of History*, IX, 365-6.
6. Erasmus, "Diversoria", in *Colloquies*, I, 288 f.
7. *Merchant of Venice* III, iv, 271.
8. Smith, *Reformation*, 473.
9. Froude, *Edward VI*, 41-2; Marx, *Capital*, 808.
10. Smith, *Reformation*, 554-5,
11. Ibid, 469.
12. Thomas Aquinas, *Summa theologica*, II, IIae, lxvi, 7; cxviii, 1.
13 Lacroix, *Manners, Customs and Dress during the Middle Ages*, 479.

14. *Camb Mod Hy*, II, 436.
15. Kesten, *Copernicus*, 33.
16. Coulton, *Medieval Village*, 338.
17. Lecky, *Rationalism*, II, 113.
18. Hackett, *Francis, I*, 406.
19. Smith, *Reformation*, 483.
20. Beard, *Luther*, 126.
21 Froude, *Edward VI*, 2.
22. Pollard, *Henry VIII*, 432.
23. Armstrong, *Chales V*, I, 59.
24. Starkey, Thos, *Dialogue between Reginald Pole and Thomas Lupset*, London, 1871, in Allen, *Political Thought*, 149.
25. Smith, *Erasmus*, 27.
26 Bakeless, *Tragicall Hy of Christopber Marlowe*, 50.
27. Friedländer, *Roman Life and Manners*, II, 93.
28. Janssen, XI, 239.
29 Brantôme, *Lives of Gallant Ladies*, 65, 68.
30. Maulde, 391.
31. Lacroix, *Prostitution*, II, 1151.
32. Janssen, XI, 233.
33. Lacroix, Prostitution II, 1151f.
34. Brantôme, 133.
35. Lacroix, II, 1189.
36. Smith, *Reformation*, 321.
37. Erasmus, *Colloquies*, I, 342.
38. Rabelais, iii, 48.
39. Ascham' *The Scholemaster*, 50.
40. In Smith, *Reformation*, 412.
41. Turner, *Hy of Courting*, 45-7; Briffault, *The Mothers*, III, 415 ; Smith, *Modern Culture*, I, 531.
42. Sichel, *Catherine de' Medici*, 6.
43. Cf, Lippmann, W, *The Public Philosophy*, 117.
44. Cf, O'Brien, *Enonomic Effects of tbe Reformation*, 75.
45. Schapiro, *Social Reform*, 31.
46. Ibid ,
47. Froude, *Edward VI*, 166.
48. Maulde, 66.
49. Sichel, *Women*, 230.
50. O'Brien, 55.
51. Janssen, III, 367.
52. Froude, *Edward VI*, 69.
53. Prescott, *Mary Tudor*, 327.
54. Froude, l.c.
55. Smith, *Reformation*, 559.
56. Ashley, II, 369.
57. Ibid., 342.
58. Watson, F., *Luis Vives*, 61.
59. Froude, *Henry VIII*, II, 372,
60. Lecky, *Hy of European Morals*, II, 54.
61. Ibid., 55.
62. Janssen, IV, 60 f.
63. *Werke* (Erlangen), I, 14, in Maritain, *Three Reformers*, 186.
64. O'Brien, 51, transposed.
65. Janssen, VI, 275; Smith, *Lutber*, 416.
66. Janssen, VII, 301.
67. Lea, *Auricular Confession*, III, 428.
68. Calvin, Preface to the Geneva Catechism.
69. Lang, *Hy of Scotland*, II, 402.
70. Froude, *Edward VI*, 265.
71. Trail, III, 160.

72. Lacroix, *Prostitution*, II, 1213-4.
73. Maulde, 217.
74. Sch ff, *Swiss Reformation*, 722.
75. Wright, Thos, *Womankind in Western Europe*, 325.
76. Lacroix, *Prostitution*, II, 1205.
77. Ibid., 1204.
78. Allen, P, S., *Age of Erasmus*, 203-4; *Smith Reformation*, 510.
79. Wright, Thos., *Domestic Manners*, 491.
80. Coulton, *Social Life*, 376; *Medieval Panorama*, 313
81. Baedeker, *Munich*, 12.
82. Huizinga, *Waning of Middle Ages*, 289.
83. Smith *Reformation*, 500,
84. Wright, *Domestic Manners*, 485-8.
85. In Nock & Wilson, *Rabelais*, 41.
86. In Bainton, *Here I Stand*, 343.
87. Rashdall, *Universities*, III, 422.
88. In Lacroix, *Manners*, 241.

CHAPER XXXIV

1. Sichel, *Women*, 246.
2. Lang, *Music in Western Civilization*, 300.
3. Einstein, A., *The Italian Madrigal*, I, 7.
4. Grove, *Dictionary of Music and Musicians*, III, 459.
5. Whitcomb, *Literary Source Book of the German Renaissance*, 22.
6. Grove, III, 254.
7. Mc Kinney and Anderson, *Music in History*, 210.
8. Blok, II, 377.
9 Kiesewetter, *Hy of Music*, in Grove, III, 684.
10. Bainton, *Here I Stand*, 343.
11, McKinney, 303.
12. Guizot, *Hy of France*, III, 123.
13 Bainton, *Here I Stand*, 344.
14. Janelle, *Catholic Reformation*, 218.
15. Froude, *Erasmus*, 122.
16. Grove, IV, 20 f.
17. Cf. *Oxford Hy of Music*, II, 243.

لقد رأينا الثورة الصناعية تبدأ بذلك السيل المتدفق من المخترعات التي قد تحقق قبل أن نصل إلى الألف الثاني للميلاد - حلم أرسطو بالآلات التي تحرر البشر من كل عناء يدوي. ولقد سجلنا المراحل التي خطتها علوم كثيرة صوب فهم للطبيعة وتطبيق أجدى لقوانينها. ولقد رحبنا بانتقال الفلسفية من أفضل الميتافيزيقا العقيمة إلى اجتهادات العقل في شئون البشر الدنيوية. ولقد علمتنا أن نقيم حكومة عادلة قادرة وأن نوفق بين جهود الساسة والفلاسفة الديموقراطية وبين بساطة البشر وعدم مساواتهم الطبيعية. ولقد استمتعنا بمختلف إبداعات الجمال في الباروك والفن الكلاسيكي المحدث وانتصارات الموسيقى.واستمتعناأيما استمتاع بثروة القرن التاسع عشر في الأدب والعلم والفلسفة والموسيقى والفن والتكنولوجيا والحكم.لقد أتممنا على قدر استطاعتنا قصة الحضارة هذه ومع أننا كرسنا معظم حياتنا لهذا العمل فإننا عليمان بأن عمر الإنسان أن هو إلا لحظة قصيرة في التاريخ وبأن خير ما يقدمه المؤرخ من عمل سرعان ما يكتسح حين يطمو نهر المعرفة ويتعاظم. غير أننا ونحن نتابع دراستنا من قرن إلى قرن ازددنا يقناً بأن كتابة التاريخ الرسمي قد أسرف في تجزئتها أبواباً وفروعاً وأنه ينبغي لبعضنا أن يحاول كتابة التاريخ كلاً كما كان يعاش في جميع وجوه الدراما المعقدة الموصولة .

لقد انقضت الآن أربعون عاماً من المشاركة السعيدة في ملاحقة التاريخ. وكنا نحلم باليوم الذي نكتب فيه آخر كلمة في آخر مجلد. والآن وقد أقبل هذا اليوم سنفتقد الهدف الممتع الذي أضفى على حياتنا معنى واتجاهاً. وإننا لشاكر فإننا للقارئ الذي صاحبنا هذه لسنين الكثيرة بعض الرحلة الطويلة أو كلها. لقد كنا على الدوام واعين بحضوره. والآن نستأذنه في الرحيل ونقرئه تحية الوداع ...

